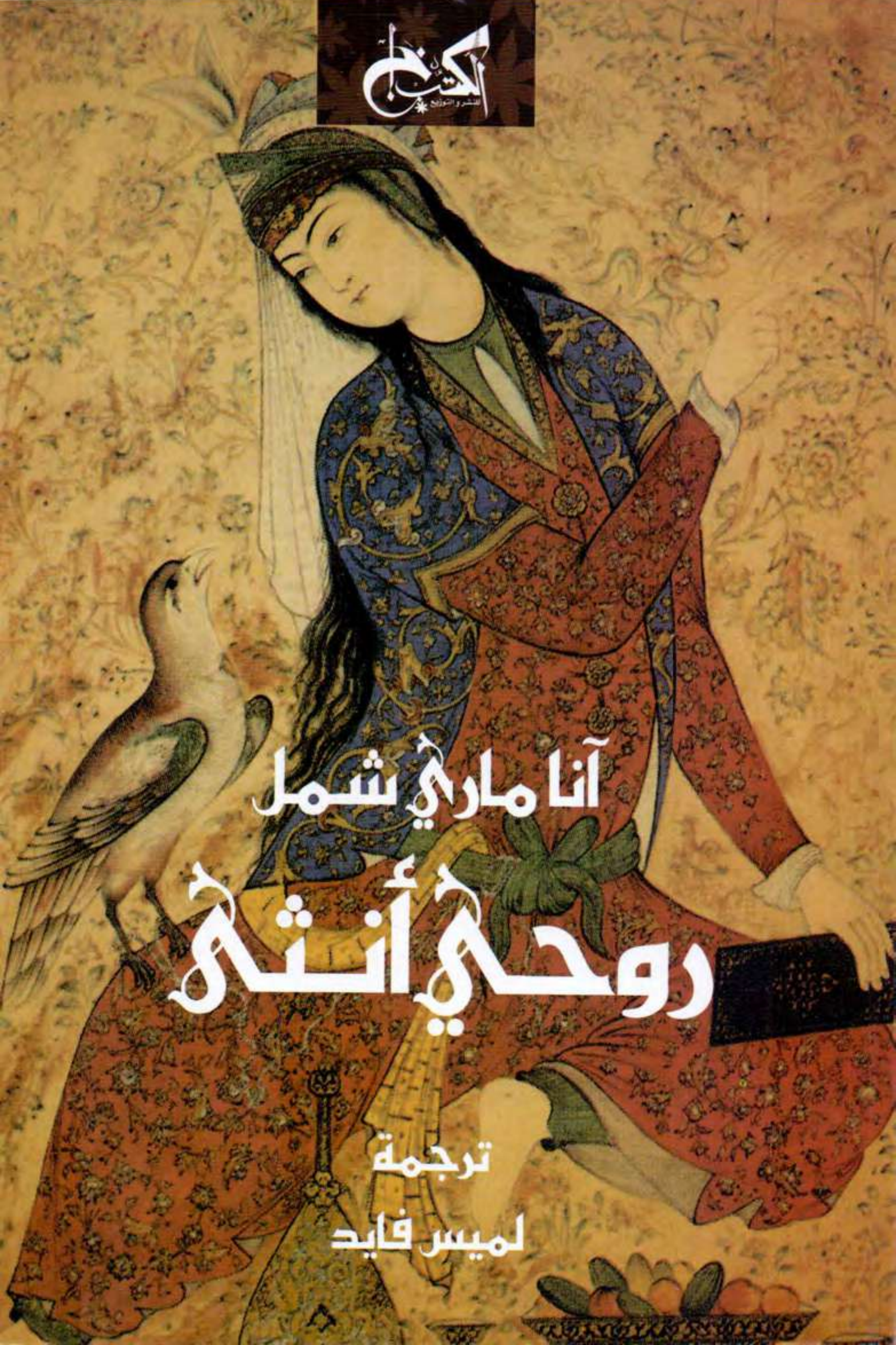

آنا ماري شمل
روحي أنثى
ترجمة
لميس فايد

# روحـــي أنثـى

## (الأنوثة في الإسلام)



روحي أنثى (الأنوثة في الإسلام)
الطبعة الأولى : ٢٠١٦
رقم الإيداع : ٧٥١٣ / ٢٠١٥
الترقيم الدولي : ٢-٧٥-٦٣٠٦-٩٧٧-٩٧٨
الغلاف : حاتم سليمان
جميع الحقوق محفوظة
الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة.
تليفون : ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ - ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+
بريد إليكتروني : info@kotobkhan.com
موقع إليكتروني : www.kotobkhan.com





# روحـــي أنثـــى

## (الأنوثة في الإسلام)

آنا ماري شِمِل

ترجمة لميس فايد



**فهرسه أثناء النشر**
**الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية**

شمل، آنا ماري
روَحي أنثى : تأليف آنا ماري شمل، ترجمة لميس فايد . – ط١ . – القاهرة : الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠١٦
٢٩٦ ص ، ٢٠ سم
تدمك : ٢-٧٥-٦٣٠٦-٩٧٧-٩٧٨
١ ـ القصص الألمانية
أ ـ لميس فايد (مترجم)
ب ـ العنوان

رقم الإيداع : ٧٥١٣
الطبعة الأولى ٢٠١٦

# مقدمة المترجم

تعد الترجمة لمستشرقة كبيرة كآنا ماري شمل، متعة وشرفًا وتعلمًا لا ينتهي. فقد سبق وتُرجم بعضٌ من أعمالها إلى العربية نذكر منها "جلال الدين الرومي: الشمس المنتصرة"، "الأبعاد الصوفية في الإسلام"، "وأن محمدا رسول الله" وغيرها، إلا أنه للأسف لا يزال الكثير من الإنتاج الفكري لتلك العالمة الجليلة غير معلوم للقارئ العربي، فضلا عن غزارته وتنوعه وعمقه الشديد وصعوبة المواضيع التي تتناولها، فالتصوف ودراسته عموما ليست بالأمر اليسير، ناهيك عن دقة الموضوع الذي عرضته آنا ماري شمل هنا وهو "عنصر الأنوثة في التصوف الإسلامي". وهو موضوع يكاد يكون جديداً على القارئ العربي، بالرغم من تناول صوفية عرب لهذا الموضوع من قبل مثل ابن عربي. إلا أن ذلك الموضوع الشائك تناوله المتصوفة العرب من غير المسلمين بدقة وعمق كبيرين، على يد متصوفة شبه القارة الهندية تحديدا. لذلك أرى أن أهمية الكتاب تكمن ليس فقط في حساسية الموضوع الذي تناولته شمل بمهارة وبساطة المتصوفة المتمرسين ولكن كونه يقدم ولأول مرة للقارئ العربي أدبًا إسلاميًا دسمًا وتراثًا زاخراً من اللغات الأردية، البنجابية، السندية،

وغيرها من لغات شبه القارة الهندية ومن ضمنها الفارسية. حيث لعبت اللغة الفارسية دوراً هاماً في حفظ تراث متصوفة شبه القارة الهندية وظلت لغة إمبراطورية المغول حتى سقوطها على يد الاستعمار الإنجليزي لتحل محلها الإنجليزية عام ١٨٣٥.

للأسف حلت صورة الإسلام السياسي الذي حملتْ لواءه حركة طالبان في أفغانستان وباكستان محل التراث الروحي الهائل لمسلمي شبه القارة الهندية. ولا يزال يحاول طمس معالم هذا التراث الروحي الضخم، الذي تجاوز الزمان والمكان والعقيدة ليخاطب الإنسان في كل زمن ومن كل ملة ونحلة. ولا يمكننا أن ننكر بأي حال من الأحوال دور الديانات السابقة على الإسلام في شبه القارة الهندية مثل الهندوسية، والبوذية، والشامانية، وغيرها من المعتقدات ذات الرياضات الروحية العالية، التي مارسها متصوفة شبه القارة الهندية وأعادوا صياغتها في قوالب إسلامية خالصة، مما ساعد إلى حد كبير في التعايش بين الإسلام الوارد حديثا إلى تلك المنطقة عن طريق المتصوفة والتجارة، وبين أتباع الديانات الأخرى العريقة المتجذرة في أراضي تلك المنطقة مثل: الهندوس بجميع طوائفهم، والسيخ.

لعل ما يحدثه هذا الكتاب بعد الانتهاء من قراءته من "إفاقة" أو "صدمة روحية وفكرية" لدى الكثير يدفعنا إلى إعادة النظر في كثير من التفسيرات التي تخص المرأة المسلمة والنظرة التي يجب أن نكون عليها. فما زلنا نجهل إلى حد كبير أبعاداً أخرى في تفسيرات القرآن عموما وفيما

يخص النساء تحديدا، ويدفعنا إلى إعادة النظر في الموروث الديني والثقافي لدى المسلمين العرب والإسلام.

لا ينكر أحد فضل آنا ماري شمل في دراسة التصوف والتراث الروحي للإسلام وعلاقته بالمسيحية وتقديم الأدب الإسلامي بلغاته الست: العربية، الفارسية، التركية، الأردية، السندية، البنجابية، والسرايكي (وهي لهجة غرب البنجاب) إلى القارئ الأوروبي. مع تقديم شرح وتبسيط لأعمق معاني التصوف في سهولة ويسر ولعلها قد نجحت في ذلك من خلال المقاربات المستمرة التي تعقدها بين الإرث الروحي الإسلامي والإرث الروحي المسيحي الغربي، وهو أمر مفهوم أن تحاول تقريب المفاهيم والتجارب الروحية الإسلامية من خلال تجارب الراهبات المسيحيات المتنسكات، أو من خلال المصطلحات اللاهوتية اللاتينية، فتلك ثقافتها القريبة. وهي مقاربة وُفقت فيها إلى حد بعيد، لكن أرى أنه من المثمر والأنسب مقاربة تجربة التصوف الإسلامي والإرث الروحي الضخم بالإرث المسيحي الشرقي الذي تركه الرهبان والراهبات، وبالأخص الرهبنة المصرية، فمصر كانت ميلاد الرهبنة المسيحية التي صدرتها للعالم، وهي من سنتْ كيف تقام الحياة الروحية في الأديرة وتنظم قوانين الرهبنة للسيدات والرجال، وبالفعل نرى بعض المتصوفة أمثال خاقاني ممن تأثروا بنظام الرهبنة وقوانينها في إنشاء الخانقاوات أو التكايا (بالتركية) وهي أماكن تجمع الصوفية حيث ممارسة الرياضات الروحية وحلقات الذكر، حيث يعاد بناء الإنسان ويعاد اكتشاف أصله وذاته والهدف من كونه، وعلامَ سيكون؟ وإن كان ما ذكر يخص متصوفة

إيران واحتكاكهم بالمسيحية النسطورية التي لجأت إلى ميسوبوتاميا ( أي العراق وإيران) بعد مجمع خلقدون عام ٤٥١ م هربا من سيطرة المسيحية الأرثوذوكسية. إلا أن تلك الصلة أو التأثير والتأثر لا يزال غير مدروس جيدًا على مستوى المسيحية المصرية على سبيل المثال. فما يتبادر إلى الذهن مثلا في دراسة تلك الصلات مصطلح هام أشارت إليه شمل في معظم فصول الكتاب وهو مصطلح "رجال الله" الذي استخدمه المتصوفة المسلمون على الرجال والنساء سواء. أو النساء المتصوفات ممن ارتدين رداء الرجال.

إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن تجربة تصوف السيدات في الإسلام تختلف في نشأتها وتطورها ودوافعها عن تصوف السيدات في المسيحية الغربية تماما، فلكل أسبابه ودوافعه الاجتماعية والثقافية التي دفعت بالمرأة إلى الروحانية والتصوف، ففي أوروبا العصور الوسطى كان لا يمكن تصور أي وضع للمرأة خارج الزواج وإنجاب الأطفال وتربيتهم وأعمال المنزل، ولعل هذا الوضع الاجتماعي والثقافي القاسي المتصلب قد دفع النساء في أوروبا إلى اللجوء للدير، أي إلى الرهبنة، فيذكر على سبيل المثال كيف كانت القراءة والكتابة قاصرة على التعلم في الدير وبعض العائلات الثرية. وكيف خاضت الراهبات المسيحيات حروبًا نفسية ضارية سواء ضد المجتمع أو ضد المؤسسة الدينية المتمثلة في الكنيسة لتغيير أوضاع المرأة في مجتمعها، فقد عانت نساء أوروبا في العصور الوسطى مما تعاني منه المرأة المسلمة الآن من تعنت تفسيرات النص الديني، فمثلا كان طبقًا للاهوتيي العصور الوسطى على المرأة أن

تتحمل وزر الخروج من الجنة في قصة آدم وحواء بالعهد القديم، وعقابًا لها عليها أن تتحمل آلام الطمث والولادة، لذلك عارض اللاهوتيون بشدة جميع العقاقير ومحاولات الطب من تخفيف آلام الولادة عن المرأة واعتبرتها خرقًا لناموس الطبيعة وأن على المرأة تحمل وزر كونها ولدت امرأة!

أما عن تجربة تصوف النساء في الإسلام فتُعزى لأسباب مختلفة تمامًا تغايرُ أسباب نساء أوروبا في العصور الوسطى، فإذا ما اقتربنا من أسباب تصوف رابعة العدوية أي رابعة البصرة صاحبة العشق الإلهي التي انتقلتْ بالتصوف من الزهد الصارم إلى رحاب التصوف النورانية، هو انفتاح المجتمع البغدادي وقت الخلافة العباسية وشيوع الرخاء وحياة الدعة، ووضع المرأة المخملي في بعض الأحيان، فما كان التصوف إلا رد فعل على المجون والخلاعة التي سادت المجتمع البغدادي كإحدى نتائج انفتاحه على الثقافات الأخرى التي دخلها الإسلام.

مع الأخذ في الاعتبار أن هناك أسبابًا عديدة للزهد والتصوف وليس فقط بسبب غضب الصوفية من انغماس العباد في الملذات الدنيوية. فالروحانية والنزوع إليها صفة إنسانية أصيلة، أن تجوع الروح وتتألم من أجل شيء ما، أن تشعر بالفرح والحزن فجأة أو أن يعتصرها الحنين إلى موطنها الأصلي كما شرحها شهاب الدين السهروردي في قصة "الغربة الغربية". وإن تعددتْ الأسباب وتباينتْ تماما بين تصوف النساء في الغرب المسيحي ومثيلاتها في الإسلام. ومن الجدير بالذكر في هذا السياق عن أسباب تصوف المرأة واختلافها من عصر إلى آخر كنموذج لفهم

الملابسات الثقافية والسياسية التي تعصف بالمرأة في سياقات اجتماعية وسياسية مختلفة هي الدراسة القيمة التي قام بها الدكتور شحاتة صيام "الحريم الصوفي وتأنيث الدين: ضلالات حجاج الأضرحة"، والذي يبدو من عنوانه أنه يتعارض مع الاحتفاء بتأنيث الدين، إلا أن الأمانة تقتضي الإشارة إلى تلك الدراسة الهامة لفتح آفاق أوسع للفهم والتحاور العلمي الجاد.

ولا شك أننا ندين للمستشرقة آنا ماري شمل بالكثير، بحياتها الحافلة التي قضتها بين مخطوطات وآداب العالم الإسلامي العربي وغير العربي، فلها الفضل في تقديم التصوف بنصوصه الأصلية بصورة واضحة للغرب لا لبس فيها، كشفتْ عن وجه آخر للإسلام يختلف عن هذا الوجه النمطي المعروف لدى الغرب والذيّ درسه وحلله باستفاضة إدوراد سعيد في كتاب "الإستشراق"، ولعله من المفيد هنا الإشارة إلى الترجمة العربية الرفيعة لسيرة حياتها "الشرق والغرب: حياتي الغرب - شرقية" التي قام بها عبد السلام حيدر وصدرت في المشروع القومي للترجمة ٢٠٠٤. إلا أن ما خص هذه الدراسة هي إقامة آنا ماري شمل في شبه القارة الهندية وإجادتها للغات تلك القارة المعقدة وهو ما ساهم في إخراج هذا الكتاب للنور. شغفت الأستاذة الكبيرة بباكستان على وجه الخصوص كما أشارت إلى هذا في كتابها، وندين لها بالفضل مرة أخرى - ها هنا - للتعريف بآداب الهند الإسلامية التي لم تكن معلومة للغرب تمامًا، وظلت الهند ذات الثقافة الهندوسية هي المسيطرة على الوعي الأوروبي، وليس لنا أن نحكم إذا كان هذا نتيجة التجاهل عن عمد، أم

أنه فقط التناسي؟ وعاصرتْ شمل تقسيم شبه القارة الهندية وإقامة دولة باكستان عام ١٩٤٧ . ولإصرارها على تقديم هذا التراث الديني الهائل تعلمتْ اللغة السندية وهي لغة شعرية غاية في الاتساق الموسيقي إلا أنها لا تخلو من الصعوبة. وترجمتْ من أدبه "الريسالو" الذي أفردت له الثلاثة فصول الأخيرة من هذا الكتاب، من أساطير العشق في الشعر السندي الشعبي لمؤلفه شاه عبد اللطيف (المتوفى عام ١٧٥٢م) وجمعها في مجلد ضخم المبشر الألماني إرنست ترومب في كاراتشي، ونشرت أول طبعة منه في ليبزيج إلا أن خلفيته البروتستانتية لم تسعفه في فهم الشعر الصوفي.

وبالفعل أصبحت باكستان وطنها الثاني، وحتى الآن لا يزال المركز الثقافي الألماني في لاهور هو المنزل الذي سكنتْ فيه إبان إقامتها هناك ويحمل اسمها إلى الآن.

ويعتبر الكتاب الذي بين أيدينا هو أحد إنتاجاتها الفكرية التي تبلورت خلال رحلاتها في شبه القارة الهندية، وتستعرض الكاتبة في الفصل الأول العلاقة بين النبي والنساء، واتخذتْ من زوجات النبي مثالا على شكل المرأة ودورها في فجر الإسلام، كما ناقشتْ تلك المسألة الشائكة عن تعدد زوجات النبي ورؤية المسيحية في العصور الوسطى لذلك السلوك. بينما تعرج في الفصل الثاني على مناقشة النساء في التصوف، ودور رابعة العدوية المحوري في التحليق بالتصوف بآفاق وفضاءات نورانية رحبة، ولم تقصره حسبُ على الزهد العنيف، حتى صارت كل امرأة زاهدة عاشقة هي رابعة عصرها. إلا أنها أبرزت

شخصيات نسائية أخرى وصل إلينا اليسير من سيرهن ما يدل على وجود نشاط ديني صوفي مكثف للسيدات منذ العصور الإسلامية الأولى امتدادا حتى العصور الوسطى سواء في العالم العربي الإسلامي أو في محيط الثقافة الهندية التي ربما تحظى فيها السيدات هناك بمكانة رفيعة في شبه القارة الهندية. وأشارتْ إلى دور المرأة كمعلم روحي لكبار المتصوفة مثل ابن عربي الأندلسي، ودورهن الفاعل في الطرق الصوفية وتمويلها، والتعليق على الأعمال الصوفية وشرحها كما فعلت بوبورساتي في شرحها، والتعليق على أعمال فخر الدين عراقي. بل ووصلت إلى درجة "القطب" الصوفي وهو أعلى درجات التصوف كما فعل ابن عربي أنه أعطى الخرقة لأربعة عشرة من النساء، كما أراد المرشد الصوفي ميان مير أن يجعل الأميرة بيبي جمال خاتون خليفته في الطريقة القادرية.

تتعمق الكاتبة في الفصل الثالث في مناقشة النساء في القرآن والسنة، وتسلط الضوء على تفسيرات صوفية عميقة للآيات القرآنية التي تتناول موضوع "الأنثى" بشكل ربما يبدو غريبا وجديدا على القارئ العربي وتستعين في ذلك بمصطلحات من الفلسفات الشرقية الأخرى مثل مفهوم "اليانج والين" في الفلسفة الصينية. وتشير إلى شخصيات النساء في القرآن، وأهمهن السيدة مريم العذراء أم السيد المسيح وما لها من مكانة كبيرة في نفوس المسلمين، وملكة سبأ وامرأة فرعون التي تعرف في الأدب الشعبي باسم "زليخة "، التي تبدو أيضًا بصورة مغايرة في الخيال الإسلامي بآسيا عن تلك في العالم العربي، فهي العاشقة التي أحرقها حب الله المتمثل في جمال يوسف كما تناولها الشعراء الفرس، وغيرهن.

أما في الفصل الرابع تتناول موضوعًا شائكا في التصوف وهو دور النوع في التجربة الصوفية، ومناقشة فكرة الروح المؤنثة في القرآن ومراتبها، و أن تهذيب النفس هو طريق خلاصها من نجاسات الباطن حتى تصبح "نفس مطمئنة"، ولكي تصل إلى تلك الرتبة الرفيعة عليها خوض حروب ضارية مع النفس "اللوامة والأمارة بالسوء" كما وصفها القرآن. وعلاقة الرجل بالمرأة، ومناقشة الزاوج والبتولية لدى بعض الصوفية ممن آثروا البتولية واختاروا طريق المسيح، كما أشار مولانا جلال الدين الرومي في كتابه "فيه ما فيه" وهو عمل نثري يعتبر مقدمةً لديوانه الضخم "المثنوي". كما تشير سريعًا إلى فكرة هامة، وهي "الغوص في الإلهية" عن طريق العلاقة الجنسية وهو ما أشار إليه من قبل الغزالي، كونه لا يتحقق إلا للمختارين..

ثم تترك للقارئ أن يحدد إذا ما كان للنوع دور في التجربة الصوفية أم لا. وتمر سريعًا في الفصل الخامس لتصف رمزية هامة في الأدب الصوفي وهي "العجوز" بعدما ناقشت تيمة "المرأة ـ الدنيا" في الفصول السابقة، فالعجوز تمثل مرحلة تتويج المحبة، بعدما تكون المرأة العاشقة قد أحرقها العشق وأنهكها الطريق لتصبح هي ذاتها حبًا خالصًا، فهي المرأة الخبيرة بشؤون العشق المتمرسة في الطريق، المنجدة عند الشدائد. حتى ترحب بها كعبة الله إذا ما زارتها ولا نعلم أيًا منهما يطوف بالآخر ويذوب فيه!

لا يمكن أن تغفل الكاتبة عن مكانة الأم في الإسلام والمجتمعات الإسلامية عمومًا، لذلك ألقت الضوء على دور الأم في حياة المتصوفة في الفصل السادس، ممن تركتْ أمهاتهم بصمة في تطورهم الروحي

خصوصا في سير أولياء الطريقة الشيشتية، حتى إن بعضهم قد وضع ضريحه بجانب أمه لكي تنال ما ينال من البركات والدعوات. كما أماطت اللثام عن مفهوم هام في التصوف وهو "الرضاعة" الذي ورد عند كثير من المتصوفة بارتشاف الحكمة الإلهية كما الرضيع. وكذلك "الولادة" التي تحمل مفهوما روحيا بجانب كونه تجربة محورية في حياة كل امرأة. وفي الفصل السابع تعالج الكاتبة برشاقة فكرة التجلي الإلهي المتمثل في المرأة، فمنهم من رأى "الكعبة" كامرأة خفرة متشحة بالسواد يرتحل إليها العاشق في رحلة شاقة لرؤيتها، ومنهم من تمثّل له "جوهر الذات الإلهية" في الأنثى كما حدث مع ابن عربي وديوانه الشهير "ترجمان الأشواق" الذي يعد خير مثل عن ذلك المفهوم. واستعانتْ الكاتبة هنا بمصطلحات لاهوتية مسيحية لتقرب الفكرة إلى القاريء الغربي الموجه له الخطاب في الأساس، إلا أنها لا تدري أنها أيضا وُفقت إلى حد كبير من خلال ذلك المزج الثقافي في إيضاح مفاهيم تبدو مستغلقة حتى على القارئ العربي المسلم، ولا عجب فالكل واحد في فضاء الإلهي ـ الروحاني.

وقد يبدو عنوان الفصل الثامن صادمًا بعض الشيء وهو "عرائس الله" غير أن القاريء كلما تعمق في الكتاب بدت له تلك المفاهيم والمسميات أوضح وأصبح أكثر تفهما لها. إذا ما عدنا إلى مفهوم القطبية في الحياة بين "الذكورة" و"الأنوثة" حيث تلعب الروح دور الأنثى العاشقة الباحثة عن حبيبها في رحلات وعرة وهو مفهوم ناقشته شمل بالأساس من أعمال مولانا جلال الدين الرومي، وأشعار السند الصوفية الشعبية، حيث تعتبر تلك القصص من الموروث الديني المكون للهوية

الدينية لإسلام أهل السند وربما إسلام شبه القارة الهندية كلها. كما ناقشت ببراعة رمزية "المرآة" المرتبطة بالأنثى، وهي رمزية لقلب العاشق المجلو العاكس للنور الإلهي، وأشارت الكاتبة إلى آلات موسيقية أخرى ارتبطت بالمرأة والروح في نفس الفصل.

ويرتحل القارئ مع الكاتبة في رحلات سحرية إلى شبه القارة الهندية حيث قصص العشق الإلهي في الهند وباكستان، فهناك يتبلور مفهوم الروح ـ الأنثى ونتعرف من خلالها على شعراء متصوفة كبار ربما هي المرة الأولى التي يتعرف فيها القارئ العربي على تراث أهل السند والبنجاب الصوفي، وأشهرهم شاه عبد اللطيف السندي الذي سطر شعره في فصول تعرف بـ "الريسالو" التي سيرد ذكرها كثيرا حتى آخر الكتاب. فالتصوف هناك مطبوع بالبيئة السندية الغربية المتنوعة من حيث السهول والصحارى القاحلة مثل صحراء ثار ومناخ الصيادين وقراهم الفقيرة، وهو ما تجلى في الرمزيات الشعرية التي استخدمها شاه عبد اللطيف السندي، الذي يُعتبر "مولانا الرومي" عند أهل السند. وتستهل شمل الفصل العاشر بإحدى قصص السند الشعبية وهي "ترحال ساسي (البطلة العاشقة) و"بونه (أمير منطقة الكتش في السند)" ويسرد أهوال رحلة العاشقة التي فقدت محبوبها ولا يهدأ لها بال إلا بالاتحاد معه، وهنا تتجلى رمزية الروح كأنثى في أرفع صورها في معظم أعمال شاه عبد اللطيف، وفي غضون تلك الرحلة الداخلية بالأساس يذوب معنى النوع أو الجنس وتصبح ساسي "رجل الله". وفي الفصل الحادي عشر نجوب مع بطلة أخرى عاشقة وهي "سوني" المغامرة التي قامرتْ بحياتها في النهر

من أجل لقاء حبيبها "ميحوال"، فضحَت بالغالي والنفيس والحياة والدعة التي تعيش في اللعب واللهو ودفء الشتاء، حتى عادت ما تعلم أي هدف تسعى إليه، وأضحت الرحلة نفسها والبحث هو الهدف. وتختم شمل كتابها الشيق برحلة أخرى ذات نهاية إيجابية وهي تلك البطلة مروى ذات العائلة المتواضعة التي أحبها الإقطاعي الوجيه عمر ونقلها في قصره الفخم إلا أنها لم تغتر بذلك الزخرف، وعانت آلام فراق الوطن والابتعاد عن أهلها وذويها، وكيف ترى موطنها الأصلي وتتوق للعودة له، والمقصود به هو "الوطن الإلهي" الذي اقْتطعت منه الروح وتتعذب حتى العودة إليه.

وفي ختام الكتاب أتمنى أن يكون فاتحة خير لاكتشاف ودراسة أعمق للتراث الإسلامي عمومًا والصوفي خصوصًا، وفيما يخصّ المرأة تحديدًا وإعادة صياغة المفاهيم وتنوير الأفهام للخروج من لحظات حرجة نمر بها جميعا على كافة الأصعدة. وأخيرًا أود أن أشكر كل من ساهم معي في إخراج النص العربي، أود أن أشكر زوجي طاهر زيا لإيضاح المفاهيم والتعريف بشخصيات كثيرة في الكتاب، نظرا لكونه بنجابي المولد من باكستان، كما أشكر زملائي في معهد الدراسات العربية والإسلامية في منستر ألمانيا.

Belkis Tunçer التي أمدتني بمعلومات عن الشاعرة التركية حبة، رغم المصادر الشحيحة عنها.

ومنهم الصديق واسع الاطلاع والمعرفة بالنصوص الصوفية باللغة الفارسية الزميل العراقي ليث حادث.

وأشكر Walter Joshua Pannbacker الذي ساعدني في ترجمة آيات من العهد القديم كتبت بألمانية قديمة. كما أتوجه بشكر خاص إلى الصديق العزيز خالد محمد عبده الباحث الجاد في التصوف الإسلامي على تشجيعي لترجمة هذا الكتاب لقارئ اللغة العربية، كما أود أن أعبر عن امتناني لأستاذ الدراسات العربية والإسلامية في جامعة ماربورج بألمانيا الدكتور عاصم حفني على قراءته للترجمة وإبداء ملاحظاته عليها وعلى الحواشي، وشكرٌ خاص للأستاذة كرم يوسف ودار نشر الكتب خان على إصداراتها الجادة ووعيها بضرورة التنوير في تلك اللحظات الحاسمة من تاريخنا.

وأتمنى لكم قراءة ممتعة

المترجم

# مقدمة الكاتب

تتعدد الكتب التي تعالج موضوع المرأة في الإسلام من زوايا مختلفة، سواء من حيث الدراسات الاجتماعية أو المشاكل الطبية، وكذلك قد تمت دراسة موضوع الحريم بسلبياته وإيجابياته. كما كُتبتْ أعمال أخرى عن السيدات الحاكمات التركيات والعربيات، كما عالجتْ أعمال أخرى المشاكل الجنسية وتربية الأطفال، وباختصار يعتبر موضوع المرأة في الإسلام موضوع الساعة، بحثتْ فيه مناصرات قضايا المرأة باهتمام خاص، لكن للأسف غالبًا ما تم هذا البحث بحرية تامة دون إلمام كاف بالحقائق التاريخية وخصوصًا الإلمام بلغات العالم الإسلامي وآدابه. لكنّ تظل الدراسة الشيقة التي قدمتها Wiebke Walthers[1] عن "المرأة في الإسلام" دراسة أساسية للأبحاث التالية، وكذلك الكتاب الملهم لـ Sachiko Murata[2] كتاب "الطاو في الإسلام" الذي يُعنى بالعلاقات الجنسية في الإسلام من نقطة انطلاق فقهية أشبه بتلك التي لدى كبار

---

١ دارسة ألمانية للآداب العربية والإسلامية من أعمالها "المرأة في الإسلام" و"تاريخ مختصر للأدب العربي".

٢ هي أستاذ درسات دينية آسيوية في جامعة نيويورك من أصل ياباني أشهر أعمالها كتاب "الطاو في الإسلام" و"زواج المتعة في الإسلام" وترجمت إلى اليابانية كتاب "معالم الأصول".

المتصوفة المقرونين. وإذا ما أردنا أن نقدم محاولة جديدة نأمل أن تكون أفضل لفهم الأنوثة في الإسلام الصوفي، لا يعني هذا أن نبدأ بطوفان الأدب المناصر للمرأة المعروف عربيًا بـ (فيمنست). فلقد صدر لي عام ١٩٥٠ مقالٌ عن المرأة في التصوف، جزء منه بدافع شخصي وجزء بسبب الأستاذ[٣] Friedrich Heiler الذي عملتُ معه بتعمق في مجال تاريخ الأديان، وقمت أثناء ذلك بإلقاء محاضرات وندوات عن وضع المرأة في الأديان، أتت بوجهات نظر جديدة جدًا عن الموضوع. فأول من درس موضوع "المرأة في التصوف" كانت Margaret Smith[٤] في كتابها

---

٣ هو فريدريش هايلر: (١٨٩٢ ـ ١٩٦٧) أحد أهم العلماء الألمان ممن ساهموا في تأسيس علم العقائد في المدرسة الألمانية، كرس حياته لفكرة "كثلكة الكنيسة الإنجيلية" ووحدة الكنائس. أخرج العديد من الدوريات والمجلات العلمية كما أسس عددا من تجمع الأخويات منها "أخوية كنيسة القديس يوحنا"، وكان عضوا في "رابطة المسيحية الحرة". ولد وتوفي في مدينته ميونخ، وكتب على شاهد قبره "باحث في الأديان وأسرارها، معلم وكاهن كنيسة المسيح، داع إلى وحدة المسيحية والإنسانية، فالكل كان واحدًا". يعتبر من مؤسسي علم العقائد فكان موضوع الدكتوراه الخاص به "أشكال الصلاة" بين أديان مختلفة، وكان لها صدى كبير وطبعت أكثر من مرة عام ١٩١٧، ويمكن للقارئ أن يتعلم علم الأديان، والحوار الديني وكذلك المسكونيات المسيحية من خلال كتاباته. تتميز رؤاه اللاهوتية بالليبرالية وساهمت بالفعل في وحدة بين الكاثوليكية والبروتستانتية كما تتسم كتابته بالفلسفة الدينية العميقة. وفي أكبر أعماله "أشكال التجلي والذات للأديان" يتناول بداية الدين كمنظومة رفيعة ومملكة كبيرة وأكبر نعمة للإنسان بأسلوب موسوعي مذهل. واشترط هايلر خمسة شروط لدراسة علم العقائد: المعرفة الاستقرائية بالأديان وتجلياتها، العمل بالمصادر المكتوبة للأديان، الخبرة المباشرة مع الدين في المسجد، المعبد، أو الكنيس اليهودي وغيرهم، وتبني موقف كوني ومنهج ظاهري أثناء الدراسة.

٤ هي مارجريت سميث: (١٨٨٤ ـ ١٩٧٠) كاتبة ودارسة للمسيحية المبكرة والتصوف الإسلامي، قدمت كتابات إسلامية من وجهة نظر مسيحية منفتحة. كانت أول من قام بعمل دراسة تاريخية عن سيرة رابعة البصرة، كما قامت بتجميع القصص والنوادر عن المتصوفة الآخرين، وترجمت النصوص العربية والفارسية إلى الإنجليزية. من أعمالها "المحسبي من

الأصيل عن رابعة العظيمة "رابعة المتصوفة وما تبعها من الأولياء في الإسلام" الصادر عام ١٩٢٨، والذي دومًا يذهلني ليس فقط لأهميته الأدبية ولكن لاقترابه من شخصيات عالية القداسة، ولسيدات متصوفات رائدات في العالم الإسلامي، من خلال زيارات لمقاماتهن التي تتمتع غالبًا بشهرة كبيرة، مثل السيدات في تركيا والهند وباكستان. ومنهن الكاتبة والمتصوفة التركية Samiha Ayverdi التي أهدي إليها هذا الكتاب وأشكرها، فما قدمته لا يقدر بثمن.

ويعد وصف دور المرأة في التعاليم الإسلامية أمرا شيقا. فهناك عدد كبير من السيدات في العلوم التقليدية مثل رواية الأحاديث، وتراث النبي (حتى لو عرف علم كشف رواية الحديث بعلم الرجال) أفلم تكن عائشة أصغر زوجات النبي مصدراً هاما للعديد من الأحاديث المروية، وخصوصًا فيما يتعلق بالشؤون الخاصة لحياة النبي؟ ومثلما سأل الصحابة النبي في مشاكل لاهوتية عُرفتْ أيضًا سيدات لاهوتيات في العصور اللاحقة. ولا أدل على هذا من العمل الفارسي المكتوب عام ١٦٠٠ ويناقش المجادلات بين خمس من السيدات اللاهوتيات المتعلمات توضحن المسائل المرفوضة على وجه الخصوص من التصورات والتقاليد الشعبية ورجال الدين الأرثوذوكس. وعرضت Ruth Roded° في كتابها

---

باكورات متصوفي بغداد"، "مقدمة في تاريخ التصوف"، "رابعة المتصوفة وما تلاها من أولياء"، "دراسات في باكورات التصوف في الشرق الأدنى والأوسط".

° روث رودد: (١٩٤٣ ـ حتى الآن) تعمل أستاذ في تاريخ الإسلام والشرق الأوسط بالجامعة العبرية، اهتمت بالدرسات النسوية ودراسة المرأة في الإسلام واليهودية دراسات مقارنة.

"المرأة في السير الإسلامية" أن معدل مشاركة المرأة في أعمال السير منذ القرن التاسع حتى الآن لا يزال ثابتًا.

وتظل الكتب أحد أهم مصادر معرفتنا عن الحياة الأنثوية في الإسلام، فهي تصور التصرفات اللائقة أو (فن الإتيكيت) للسيدات أي (كتب الآداب) للصبايا، مثل دراسة أميرة بهوبال شاه ان شاه بيجوم[6] التي كتبت في الثلث الثاني للقرن التاسع عشر بعنوان "تهذيب النسوان وتربية النساء". ويليه في نفس القرن العمل الضخم "بيهيشتي زيوار" أي "الحلية الفردوسية" لأشرف علي ثاناوي[7]، الذي ظل لمدة طويلة يُهدى للصبايا مع المهر في الهند. وهناك تتعلم النساء وفقا للتقاليد الأخلاقية لمدرسة ديوباند اللاهوتية[8] التصرفات اللائقة في كل مناحي الحياة: كيف يكتبن خطابات محترمة للآباء، وكيف يتجنبن العديد من

---

٦ شاه ان شاه بيجوم: هي سلطانة بوهال (١٨٣٨ ـ ١٩٠١) اشتهرت بالورع وتأليفها للعديد من الكتب باللغة الأردية، وساهمت بدورها في أعمال البناء في تاج محل وفي مجال الأعمال الخيرية، وتعد بحق من النماذج المضيئة للسيدات الحاكمات المسلمات ولها الآن جامع في لندن يحمل اسمها.

٧ أشرف علي ثاناوي: (١٨٦٣ ـ ١٩٤٣) عالم هندي بارز تخرج في مدرسة دار العلوم ديوباند، اهتم بالفقه والحديث والتصوف من خلال الطرق الشيشتية والصابرية والعمادية له ما يقرب من ٨٠٠ مؤلف ١٢ منها صدر بالعربية، اتُهم بالكفر عام ١٩٠٦ من قبَل أحمد رضا خان وعبادة الشيطان هو وغيره من قادة حركة ديوباند الإصلاحية من أعماله: بيان القرآن، الشكر، التهذيب، ألفاظ القرآن، الاستقامات.

٨ مدرسة ديوباند: هي حركة فكرية إسلامية ظهرت في الهند أسسها مجموعة من العلماء كرد فعل على قضاء الإنجليز على الثورة الإسلامية في الهند ضد الاستعمار، تتمركز في الهند، وباكستان وأفغانستان والبنغال، تأثرت في الهند بالوهابية بشدة في مستهل ميلادها، وهي مدرسة جمعت بين العقيدة والفقه والمنطق والتصوف، تشعبت فيما بعد لحركات صغيرة منها حركة طالبان الأفغانية كإحدى فروعها. "المترجم"

الممارسات غير الإسلامية التي تتسلل إلى الإسلام، وكيف يجب أن يكد المرء في معرفة الإيمان الصحيح.

وتم تجميع الكتاب بمهنية من قبل Barbara D. Metcalf[٩] بعنوان "تحسين النساء"، وهو ما يعد بحق مقدمة فريدة في الأسوة الحسنة التي ينبغي أن تتبعها الفتاة المسلمة. ولكن ينبغي أن يدرس الكتاب مع الروايات التي تتعلق بتعليم النساء وانتشرت في مطلع القرن التاسع عشر في العالم الإسلامي والتي تروّج بدورها في كثير من الأحيان أفكاراً تقدمية.

وفي المحيط الهندي الإسلامي تنتشر أعمال مثل أعمال دبوتي ناظير أحمد[١٠] "مرآة العروس" التي تصور البطلة المتعلمة المجتهدة تقوم بأعمال خيرية مثل إرسال الأغطية إلى الفقراء في الشتاء، ونراها في مناسبات أخرى توزع المصاحف. وترسم رواية "زينات" لمرزا قالش بج[١١] الصادرة في ١٨٩٢ كيف تتصرف المرأة الدارسة في العلوم الكلاسيكية في كل المواقف بحنكة ولياقة. ولفهم مشاكل المرأة المسلمة بشكل صحيح

---

٩ هي أستاذة تاريخ بجامعة كاليفورنيا: (١٩٤١ ـ ) تخصصت في تاريخ جنوب آسيا إبان فترة الاستعمار الإنجليزي وأستاذ للتاريخ الإسلامي في الهند وباكستان. كان موضوع رسالتها للدكتوراه "العلماء في مدرسة ديوباند والإصلاح الديني" من أعمالها دراسة كتاب أشرف علي ثاناوي "تهذيب النساء" و"تاريخ الإسلام في الهند وباكستان".

١٠ دبوتي ناظير أحمد: (١٨٠٣ ـ ١٩١٢) كاتب ومصلح اجتماعي وديني يعتبر رائد الأدب الأردي، بدأ حياته مدرسا للغة العربية، كتب روايته الشهيرة "مرآة العروس" أول رواية باللغة الأردية فيما بين ١٨٦٩ ـ ١٨٦٩) والتي تتناول تعليم المرأة وتكوين شخصيتها. "المترجم"

١١ مرزا قالش بج: (١٨٥٣ ـ ١٩٢٩)هو شمس العلماء قالش بج من علماء السند، أولى اللغة العربية والفارسية اهتمامًا خاصًا، له ما يقرب من ٤٥٧ عملا أدبيا أهمها "مقالات الحكمة". "علامات القرآن"، "حشرة الأرز". "المترجم"

يجب تتبع الأنشطة الأدبية، وذلك بتجميع عدد ضخم من الأنطولوجيا التي نظمتها النساء في الشعر. يأتي في مستهلها الرثاء العربي القديم الذي نظمته النساء في رثاء إخوتهن المقتولين، والذي يظهر مجددا في الشعر العربي الحديث كما في شعر فدوى طوقان "رثاء في أخيها"، ويظهر الحب الصوفي في أبيات الشاعرة الفارسية مهستي[١٢]، فرباعياتها العابثة تحولتْ إلى نصوص أغان للمغنيات الفارسيات والتركيات. ولا نغفل عن الأبيات المنسوبة للأميرات والإقطاعيات (مثل عمل فخري الهراوي[١٣] المكتوب في السند عام ١٥٦٠ "جواهر العجائب"، وتعد الأميرة المغولية زيب النساء[١٤] المتوفاة عام ١٦٨٩ نموذجا جيدا في ذلك المضمار)، وباختصار تُظهر مثل هذه الأنطولوجيا كيف ساهمت السيدات المسلمات من جميع الجنسيات - وما زالت تساهم - في الشعر.

---

١٢ الشاعرة مهستي: شاعرة شهيرة من القرن ال١٢ واسمها يعني "سيدة القمر"، تردد اسمها في شعر الرومي، وسنائي، والعطار وسعدي كشاعرة بارزة، اشتُهرت بشعرها الساخط على الغموض الديني والتعصب والدوجمائية، وصل إلينا فقط رباعياتها التي تعالج الحب ومواضيع فلسفية. "المترجم"

١٣ هو سلطان محمد فخري الهراوي: (١٥٥٤ - ؟) من حيرات خرسان كان السلطان شاه حسن أرجون مَن رعاه أديبا وكان حاكما شبه مستقل بإقليم السند، وعرفانا من فخري لسيده وراعيه أديبا أهدى إليه عملين: سير عن شعراء البلاط الملكي، وعمل "صنائع الحسن" عن البلاغة والتذكرة وهو عمل يعنى بشاعرات مبكرات في اللغة الفارسية، وقدمه إلى الملكة ماه بيجوم وعنونه ب "جواهر العجائب".

١٤ زيب النساء: (١٨٣٦ - ١٧٠٢) ابنة الإمبراطور المغولي أورانج زيب، شاعرة قديرة اشتهرت بقصيدتها "المخفي" جمع شعرها في ديوان سمي ب "ديوان مخفي" سجنها والدها آخر عشرين عاما من حياتها بعد شكه في علاقة حب فاشلة أقامتها، والبعض الآخر يرى أنها سُجنت لكونها شاعرة وموسيقية.

كذلك يمكننا أن نستنتج من الخطاطات اللاتي وقّعن أسماءهن على المخطوطات القرآنية البديعة أو في نصوص أخرى أسماء المعلمات والأستاذات ممن نلن على أيديهن قسطا من التعليم وكان من الجدير الإشارة إليهن أيضًا.

ولا نغفل عن المسلمات الفاعلات في السياسة وقد عمل بها سيدات وأمهات الخلفاء، حتى وإن لم يكن ظاهريا إلا أنهن كن ناشطات سياسيا وخصوصا في مجال السياسة الدينية عام ٩٠٠ هجريًا كما أوضح ذلك Louis Masignon[١٥] حيث ظهرن كحاكمات في المناطق النائية على أطراف العالم الإسلامي، فلقد عثر ابن بطوطة في جزر المالديف على ملكة مسلمة، وسجل عن الحرية المدهشة التي تتمتع بها نساء الطوارق في شمال أفريقيا، والتي استهجنها ابن بطوطة بعض الشيء. وحكمت السيدات في التقاليد التركية بمنتهى الحرية، لذلك تمكن حاكم دلهي ذو

---

١٥ لويس ماسينيون: (١٨٨٣ - ١٩٦٢) من أهم المستشرقين الفرنسيين في القرن العشرين، ارتبط اسمه بشهيد التصوف "الحلاج" حيث قام بدراسات وافية عن حياته وأعماله، وساهم في التفاهم بين الإسلام والمسيحية. فأراد ككاثوليكي أن يفهم الإسلام من داخله، وبالفعل ساهمت أعماله في فهم أفضل للإسلام عند الكنيسة الكاثوليكية. أجاد العربية والتركية والفارسية، تعلق قلبه لأسباب وقناعات دينية شخصية بالحلاج مما أدى لأن يكرس حياته لأعماله. عمل إبان الحرب العالمية الأولى مترجما وضابطا في الجيش الفرنسي، أسيء فهمه من الجانب الإسلامي والجانب المسيحي على السواء بسبب موقفه المنفتح على الإسلام. فكان من أعد اللبنة للدراسات الصوفية في الغرب، وله الفضل في إعادة اكتشاف التراث الصوفي وإعادة تقديمه وإعداد جيل من العلماء الجادين منهم هنري كوربين، والأستاذ المصري الكبير عبد الرحمن بدوي، وشيخ الأزهر عبد الحليم محمود. من أعماله تحقيق "الطواسين" وسيرة الحلاج في أربعة أجزاء.

الأصول التركية "إيلتوتمش"[١٦] عام ١٢٣٦ بتجليس ابنته "رازيا رضا" كخليفة له. وقبل ذلك بأعوام قليلة حكمتْ في مصر لبضع سنين شجرة الدر والتي كانت من قبلُ جارية. وفيما بعد لعبت طبقة السيدات الحاكمات في الهند دوراً رائداً ليس فقط في عصر المغول، ولكن في ممالك دكان[١٧] وخصوصاً مما يشاد به دور ملكة تشاند بيبي بنت أحمد نجار[١٨]، والتي تمت إزاحتها عام ١٦٠٠ أثناء دفاعها عن العاصمة من قبل ضباطها. وظهرتْ الإقطاعيات في دلهي وأجرا وجولسوندا وبيشابور كراعيات للعمارة وفن الخط والأدب ولا أدل على ذلك من أشهر قبر في العالم "تاج محل" الذي بُنى للملكة المسلمة ممتاز محل زوجة شاه شاهان المتوفاة عام ١٦٣٢ أثناء ولادتها لطفلها الرابع عشر. ولا نغفل عن دور السيدات المسلمات في الهند أثناء حرب التحرير عام ١٩٤٧.

ومن المثمر محاولة تجميع صور النساء في فن المنمنمات، أي في المنمنمات الفارسية المجردة وكيف تم تصويرهن في أدب الملاحم الفارسي، وصولاً إلى بورتريهات المدرسة الواقعية لمدرسة المغول في

---

١٦ هو السلطان شمس الدين للمش: (١٢١١ ـ ١٢٣٦) ثالث ملوك سلطنة دلهي، استقل بها بعد وفاة قطب الدين عام ١٢١١ اعتاد ارتداء الملابس الملونة خلافا لعادات أهل دلهي في ارتداء الأبيض يوم الجمعة. واجه زحف المغول وعضد ملكه إداريا واهتم بالفنون والعمارة والأدب حيث زخر بلاطه الملكي بالشعراء العرب والفرس، يعد قبره حتى الآن مثالا على ازدهار الثقافة الإسلامية في عهده.

١٧ يطلق على جنوب شبه القارة الهندية دكان وهو الآن مقسم بين الهند وباكستان بعد إنشاء باكستان عام ١٩٤٨. "المترجم"

١٨ تشاند بيبي أحمد النجار: (١٥٥٠ ـ ١٥٩٩) أميرة مغولية محاربة اشتهرت بدفاعها عن أبيها أحمد النجار ضد قوات الإمبراطور المغولي أكبر. "المترجم"

الهند، وكذلك من المرحب به جداً تحليل الوجوه والملابس. ويندرج تحت ذلك دراسة ألقاب الزواج التي تخاطب بها السيدات، والكتب الإرشادية لشؤون المحفوظات التي تحتوي على معلومات دقيقة، عن كيفية مخاطبة كل سيدة وبأي أسلوب معين توقرها، وكيف ينبغي أن تكون هيئة الخطاب وغيرها من أشكال البروتوكولات الهامة. وفي عصر المماليك عُرفت صيغ معينة تستخدم في كل مكان بمكاتب الإدارة. ولدينا عدد من الأعمال بالعربية والفارسية والتركية والأردية التي تتناول بشكل مفصل ـ قل أو كثر ـ سير مشاهير النساء.

ومن الطبيعي ألا يغفل المرء أثناء سرد كل هذه الجوانب الإيجابية، أن وضع المرأة قد ساء مع مرور الزمن، وتيبست القوانين المرنة، وانتشرت التصورات السلبية.

ويُفسر الاستنباط القرآني بشكل مضطرد (سورة "البقرة" آية ٢٢٨) ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ بالتقليل من شأن المرأة، وعليه يتم تقليم الكثير من الحقوق الشرعية. والسيدات اللواتي لم يتعلمن أبداً القراءة والكتابة يتم تجاهلهن غالبًا من قبل علماء الشريعة في حساباتهن في الميراث وفي ظروف الطلاق وغيرها من الأشياء المشابهة. لذلك كلما امتد الزمن احتدمت فكرة منع المرأة من القراءة والكتابة

بالرغم من معرفتنا بأنه على الأقل كانت إحدى زوجات النبي تقرأ وتكتب. إلا أنه حتى اليوم ما زالت المسألة تُناقش في صيغة "فتوى".

ويزخر الأدب الشعبي بحكايات عن مكر النساء إلا أنه لا ينبغي لنا أن نكوّن من تلك الروايات موقفًا معينًا عن المسلمين تجاه المرأة. لأن الغرب مر أيضًا بظروف مشابهة، أهمها هو محاولة اللاهوتيين لمناقشة تلك المسألة: "هل تنعم النساء في الجنة برؤية الله مباشرة؟" أي المصطلح اللاتيني[19] "Visio beatifica" (في حين أن تلك المسألة لم تشغل بال أحد غير اللاهوتيين).

بل، هل تدخل النساء الجنة أصلا؟ في حين أن "النساء أكثر أهل النار" كما في أحد الأحاديث المنسوبة إلى النبي؟ إلا أن إحدى الملاحظات المنسوبة إلى النبي أيضًا تعارض تلك النظرة السلبية حينما سألته مسنةٌ بخوف هل يدخل الخلق المسكين مثلي الجنة؟ فنفى محمدٌ وأضاف ضاحكًا "لا ولكنهن سيعُدن أبكاراً حسانًا". ولا يغفل المرء عن قيمة المرأة المتزوجة في المجتمع الإسلامي وخصوصًا الأم لذلك غالبًا ما تذكر تلك المقولة للنبي "لو أن امرأة سجدت لغير ربها لأمرتُها أن تسجد

---

١٩ مصطلح من اللاهوت المسيحي يعني رؤية الله مباشرة للأفراد العاديين (أي من خارج المحيط الكنسي)، ومن يصل إلى تلك الرؤية المباشرة يدخل في شراكة مع القديسين وبذلك يصل إلى الخلاص الكلي، وتلك الرؤية تتسبب في سعادة لا نهائية ونشوة ناجمة من رؤية الله "وجها لوجه"، والمقصود تحديداً بها هو رؤية الروح لله، دون رقابة، مثل التي صورها أشميا النبي، ووصفها توما الأكويني ب"نهاية النهاية"، وترجع أصولها إلى فلسفة أفلاطون كما أشار لها في "جمهورية أفلاطون"، أما في الإسلام فتحدث القرآن عن رؤية المؤمنين لله في سورة القيامة آية ٢٢ـ٢٣، أما من وجهة نظر الإسلام الشيعي فلا يقبل بتلك الفكرة استنادا إلى قول الله تعالى في سورة النساء آية ١٥٣، ورفض فكرة أن لله شكلا حتى تمكن رؤيته.

لزوجها" ، وهو ما يتعارض مع مبدأ المساواة، ولكنها أليست شبيهة بما ورد في الكتاب المقدس "إنه سيدك" .

إلا أنه على صعيد آخر تتمتع المرأة بمساواة كاملة في الصوفية، حتى وإن سُميت السيدة الرشيدة (الكاملة) بـ "رجل الله". فالإكبار بالسيدات العاشقات لله، والورعات، والمتعلمات أمر معروف في التاريخ الإسلامي، وهو ما نود إبرازه في هذه الدراسة، سواءٌ كانت شخصيات تاريخية حاضرة أو رموزا للروح التي اشتاقت إلى الله.

أدين باقتراح هذا العمل أولًا إلى زميلي وخليفتي في هارفارد د. علي أساني في المقام الأول، والذي فتحت دراساته عن "السيدات ـ الأرواح" في أدب التدين عند الإسماعيلية آفاقا جديدة للبحث، هو والأستاذة في جامعة نيويورك ستوني بروك فغالبًا ما تحدثنا ببعض الأحيان عن مشكلة الاستقطاب ودور الأنوثة في الإسلام، وSachiko Murata. كما ساعدتني Dr.Dorotha Duda في اختيار وتكوين الصور. وكذلك أشكر Anton Kenntemic على ملاحظاته المثيرة.

وأخيرًا أشكر Christa Sadozai مجددا لكونها "ملاك ـ الكاتب" .

كتب في

**Allerheiligen 1994**

**آنا ماري شمل**

# تقديم

"وروحي في حضرتك امرأة، أشبه بصهرة نعمى، أي مثل راعوث"[20]

هكذا ينشد ريلكه[21] في "كتاب الساعات[22]" وتبدو تلك الصورة (الشعرية) للقارئ المسيحي الغربي مألوفة. تتجلى فيه الصبية أو العذراء العاشقة التي أذلها الحب مثل راعوث أو مثل سلاميس[23] التي تنادي

---

٢٠ هي صورة شعرية مستوحاة من سفر راعوث حيث عادت راعوث وامرأة أخرى تدعى نعمى زوجة اليماك أحد قضاة يهوذا وهما مثالان لمن بحثا عن الشبع في الدنيا وتركا الله فرجعا خاليي الوفاض إلى يهوذا بعد أن كانا ممتلئين بالنعمة، سفر راعوث الإصحاح الأول آية ٢٠ ـ ٢٢. "المترجم"

٢١ Rilke

هو راينر ماريا ريلكه: (١٨٧٥ ـ ١٩٢٦) شاعر نمساوي من أكبر شعراء اللغة الألمانية له العديد من القصائد والمقالات ورواية تتضمن في مجملها آراء عن الفن والثقافة والتربية.

٢٢ كتاب الساعات: عنوان قصيدة للشاعر ريلكه تتضمن مجموعة أشعار تنتمي إلى عالم الحلم تتميز بأسلوب الرومانسية الجديدة ويعود العنوان إلى كتاب الصلوات في العصور الوسطى المتأخرة، وهو ما يشير إلى المحتوى الديني لتلك القصائد حيث يناقش الكتاب قضايا عصره التي عنيت بالبحث عن أصل الحياة ومعناها، وصاغه ريلكه في شكل حوار بين "الأنا" و"الله" ويتعقد ذلك الحوار حتى يختفي الفرق بين الأنا والله ويصبحان واحدا، وما يقصده ريلكه هو البحث عن الذات من خلال حوار مع الله.

٢٣ سلاميس: اسم عبري لسيدة وردت في العهد القديم في نشيد الإنشاد الإصحاح ٧ آية ١ وهي الشخصية المحورية هي ورجل يدور بينهما غزل يندرج تحت الأدب الإيروسي.

محبوبها بعبارات العشق في نشيد الإنشاد أو تشعر بأنها أمة الله[٢٤] التي تتقبل كل ما قرره شاكرة وصامتة. عرف العالم المسيحيُ العديد من المتصوفات واشتهر بالمتغنيات العاشقات بالحب الإلهي، مثل Mechthil[٢٥] von Magdeburg وعرف نساء ممن أدركن سر الميلاد، والاعتناء بطفل الرب والعمل على تحقيقه في حياتهن الخاصة مثل Margret Ebner، وغيرها من السيدات اللاتي عبدن الله باستسلام تام، وانخطفت قلوبهن في محيط[٢٦] قلاع النار (الباطنية)، مثل تريزا من

٢٤ المقصود بأمة الله هنا هي مريم البتول وهي عبارة شهيرة من إنجيل لوقا الإصحاح ١ آية ٣٨ عندما يأتي إليها ملاك الرب ليبشرها بحملها بيسوع فتتقبل الأمر شاكرة وتقول تلك العبارة الشهيرة "هو ذا أنا أمة الرب، ليكن لي كقولك فمضى من عندها الملاك".

٢٥ (١٢٠٧ ـ ١٢٨٢) متصوفة وراهبة مسيحية ترهبنت عام ١٢٥٠ خلفت أعمالا أدبية أهمها "الضوء المتدفق للألوهية" وهو ما جلب لها الكثير من النقد اضطرت على أثره أن تنسحب من الحياة وتدخل في خلوة بآخر حياتها، وتعد أعمالها من أهم وأكبر الأعمال الأدبية الألمانية عن تصوف النساء في تلك الفترة وكيف كانت تعاليم النساء في العصور الوسطى، ترجمت أعمالها إلى اللاتينية أثناء حياتها ومن خلال اللاتينية وصل إلينا إنتاجها الأدبي.

٢٦ (؟؟ ـ ١٣٥١) إحدى أشهر متصوفات أوروبا في العصور الوسطى، تنحدر من عائلة ثرية والتحقت بدير الدومينيكان للسيدات في عام ١٣١٤، عاشت الكثير من الرؤى شعرت خلال إحداها أن المسيح يخاطبها بشكل شخصي، عانت المرض المزمن في إحدى فترات حياتها. وفي عام ١٣٣٢ التقت بالكاهن Heinrich von Noerdlingen الذي كان بمثابة مرشدها الروحي وهو من شجعها على البوح برؤياها. ومن خلال الرؤى وعلاقتها بالمسيح استطاعت أن تثبت نفسها كإحدى كبريات متصوفات أوروبا في العصور الوسطى، لم تنحسر رؤياها في المسيح كعريس فقط ولكن أيضًا كطفل رضيع أي "يسوع الطفل"، فقد احتفظت بعروس خشبية تمثل يسوع الطفل، واعتادت أن ترضعها وتتحدث معها لساعات طوال، كما اعتادت أن تلصق صليبًا حديديًا بصدرها مما تسبب لها في إحدى القروح الجلدية، وعلق البعض على تجلياتها بكون البعض منها رؤى والآخر هلاوس دينية، عاينت خلال إحداها لقاء مباشرا مع المسيح، ووصف البعض أن تلك الهلاوس العصبية للمتصوفات تكون شديدة الألم وتصل بهن إلى العويل والصراخ. والرسائل التي تبادلتها مع الكاهن Heinrich von

أفيلا[٢٧] أو كاترينا من سينا[٢٨] التي سخرت القوة التي منحها الله لها في الشأن السياسي، وكذلك بريجيتا السويدية[٢٩].

---

Noerdlingen هي أقدم الرسائل في تاريخ اللغة الألمانية، يوم نياحتها ٢٥ يونيو، وطوبها البابا يوحنا بولس الثاني عام ١٩٧٩.

٢٧ (Teresa von Avilla ١٥٨٢ - ١٥١٥)

متصوفة وراهبة إسبانية كرملية، والرهبنة الكرملية تقضي بعدم تلقي أي زيارات من الخارج، أي الراهبات الغير مزارات، أسستها تريزا الكرملية وغالبا ما تُعرف بـ"تريزا الكبيرة" تمييزا لها عن "تريزا الصغيرة" وهي تريزا الطفل يسوع، ترجع عائلتها لليهود السفرديم إلا أن جدها وعائلته اعتنقوا المسيحية فيما بعد، من إحدى الكتابات الدينية التي تركت أثرا بعيدا فيها هي خطابات هيرونيمس أحد آباء الكنيسة قررت بعدها أن تلتحق بالدير، فضلا عن خوفها الكبير من الجحيم والابتعاد عن الحياة الرتيبة القاسية للمرأة المتزوجة في تلك الفترة وذلك أحد أهم أسباب رهبتها، وفي عام ١٥٣٥ دخلت دير "الكرمل لتجسد الرب"، وكان ذلك ضد إرادة والدها وفي العام التالي أصابها مرض احتار الأطباء في تشخيصه ما بين الصرع والاكتئاب وفي الطريق إلى إحدى الحكيمات عثرت على كتاب "الروحانية ألف باء جيم" للفرنسيسكاني Francesco de osema الذي يبرز أهمية "الصلاة الداخلية"، وعادت بعدها إلى الدير إلى أن اشتد عليها المرض حتى دخلت في عداد الأموات وتم تجهيز قبرا لها وظلت قعيدة مدة ثلاث سنوات إلا أن حالتها الصحية تحسنت عام ١٥٤٢ بعدها مرت بأزمة دينية توقفت على إثرها عن ممارسة "الصلاة الداخلية" التي اعتبرتها سيئة، إلا أنها تابت فيما بعد عن تلك الفكرة على يد أحد الكهنة. تعد التجربة الدينية الأعمق التي خاضتها في حياتها هي التي عاصرتها أثناء فترة الصوم في عام ١٥٥٤ أمام تمثال "يسوع المتألم" وهو تمثال يهدف إلى استدعاء المصلي بصلاة "باطنية مشاركة" اعتبرت تلك التجربة الدينية بمثابة بداية جديدة لحياتها، وكانت بمثابة "الفتح" لها لرؤى ولتجليات أخرى، وللأسف لم تلق الدعم والتأكيد على صحة تلك الرؤى إلا من الآباء الدومينيكان واليسوعيين ممن قدموا لها الإرشاد والشرح. كذلك تعد "رؤيا الجحيم" عام ١٥٦٠ أحد أهم تجاربها الروحية التي وصفتها طبقا لوصف الكتاب المقدس والتخيلات الشائعة في تلك الفترة إلا أنها تركز مع ذلك الوصف على المعنى العميق لرحمة الله، فيما بعد أسست حركة الرهبنة الكرملية التي ترتكز على "موت النفس" وتقوية العلاقة مع الله، كما انتهجت "تعذيب الجسد" لإماتة الشهوات مع الصوم المفرط. في عام ١٦١٤ طوبت وفي عام ١٦١٧ اعتبرت "قديسة إسبانيا" وأعلنها بولس السادس كـ "شفيعة للكتاب الإسبان". من أعمالها "الطريق إلى الكمال"، "تأملات في نشيد الإنشاد أو الحصن الباطني".

: (١٣٤٧ ـ ١٣٨٠) متصوفة وراهبة إيطالية وعذراء مكرسة وعالمة كنيسة، تلقت أولى رؤاها في سنونها الست حيث رأت فوق إحدى كنائس الدومينيكان عريسا مهيبا في هيئة الملوك هو السيد يسوع المسيح، بعد تلك الرؤية آثرت كاترينا العزلة وعزفت عن اللعب واكتفت بقليل من الطعام، ولما بلغت عامها الثاني عشر أي سن الزواج رفضته تماما وعزمت على قص شعرها الأشقر. إلا أن أمها عزمت على إبقائها مشغولة بالأعمال اليدوية وكل ما يبعدها عن السكون والتأمل والصلاة، إلا أنها استطاعت أن تخلق "قلاية داخلية" بها تحقق واحة التأمل والصلاة وبعد رؤية الأب دومينيكان مؤسس الرهبنة الدومنيكانية قررت أن تلتحق بدير الدومينيكان ومنذ أن أخبرت عائلتها بقرارها خُصصت لها غرفة ظلت بها معظم الوقت، امتنعت عن أكل اللحم والنبيذ والخضار المطبوخ وكرست نفسها للصيام والصلاة واستغنت عن النوم بتختها واكتفت بالنوم على ألواح خشبية. في عامها السادس عشر استطاعت التمييز بين الأرواح وقالت عن ذلك "إنه إذا كانت الرؤيا من الشيطان، تشعر الروح بسعادة غامرة فجأة إلا أنها تتلاشى بعد برهة ويحل مكانها الوهن والظلام والغضب، بينما الرؤيا من الله تملأ الروح فرحة واطمئنانا" إلا أن رؤيا يسوع هي النقطة الفاصلة في حياتها الروحية حيث خاطبها قائلا: " انظري! سأتخذك زوجة لي، أنا سيدك وخالقك. ستؤمنين بذلك وإن لم تفهميه إلى أن تتوجي في عرس سماوي فكوني واثقة يا ابنتي ولا ينتابك قلق فأنا أعتني بك، فقط بقوة إيمانك تتشبثين وتتغلبين بيسر على أعدائك". بعد تلك الرؤيا قررت الخروج لمساعدة الفقراء والمحتاجين والمسجونين كما كان لها إسهامات اجتماعية وسياسية. أعلنت كقديسة عام ١٤٦١ وفي عام ١٩٣٩ أعلنت كشفيعة إيطاليا كانت لا تجيد القراءة والكتابة مثل تريزا من أفيلا إلا أنها كانت تملي أفكارها على أحد الكتبة، من أعمالها: "إلى رجال الكنيسة"، "إلى نساء الرهبنة"، "إلى نساء الدنيا"، "إلى رجال السياسة".

29 برجيتا السويدية: (١٣٠١ ـ ١٣٧٣) كانت زوجة النبيل Ulf Gudmasson مؤسسة حركة رهبنة، وتقدسها كل من الكنيسة الكاثوليكية والإنجيلية والأنجليكانية. لعبت دورا هاما في سياسة إحلال السلام بين فرنسا وإنجلترا إبان حرب المائة عام وإبان أزمة انقسام الكنيسة عام ١٣٧٥ كرمها البابا يوحنا بولس الثاني باعتبارها شفيعة أوروبا هي وكاترينا من سينا السابق ذكرها عام ١٩٩٩. تنحدر من عائلة ملكية في السويد رأت في طفولتها مريم العذراء تتوجها بتاج ذهبي ولما بلغت عامها الثامن رأت المسيح المصلوب، اعتادت مساعدة السيدات المنبوذات في المجتمع. قررت هي وزوجها الحج إلى سان دييجو دو كومباستللو في إسبانيا توفي زوجها أثناء رحلة العودة عام ١٣٤٤. هناك تلقت رؤيتها بكونها "عروس للمسيح" بدأت على إثرها حياة زاهدة متقشفة إلا أنها حافظت على اتصالها بالبلاط الملكي وهناك تلقت رؤيا تأسيس حركة رهبنة جديدة في السويد في منطقة Vadstena تعرف بحركة البريجيات. بعد وفاتها قامت بناتها بتجميع أخبارها وكتاباتها ورؤياها التي تلتها على أب الاعتراف الخاص بها

وباختصار ما أردت أن أعرضه أن موضوع الأرواح العاشقة لله أو "عرائس الروح" كما تغنى بها بيتر هيله[30] في القرن التاسع عشر في شعره بشكل علماني (غير ديني)، هو موضوع معروف غربيًا خصوصًا مع تفسيرات نشيد الإنشاد من قبل Bernard von Clairvaux [٣١] التي أولت هذا الفكر وزنًا هامًا.

ولكن كيف سيكون رد فعل المسلم عند سماعه أبياتًا من شعر ريلكه، الذي يعرض فيه الروحَ كالعاشقة الكسيرة؟

لعل هذا يثير دهشة الجميع الذي يرى الإسلام دينًا تكوينه ذكوري حتى النخاع. هل للمسلم فهم صور ريلكه الشعرية، فإذا ما تيسر لديه قدرٌ يسيرٌ من آداب اللغات الإسلامية في منزله، لكان له أن يعقد مقارنات هامة.

---

وسطرها باللاتينية في عيد ميلادها السبعمائة حج إليها ما يقرب من ١١٥٠٥٥٥ . أثرت تجلياتها في الفن وخصوصا تصوير يسوع الطفل عاريا مع أمه في المهد.

30 (١٨٥٤ ـ ١٩٠٤) كاتب ألماني له العديد من الأعمال الأدبية مثل سميراميس كيلوبترا، سر يسوع، ابن أفلاطون.

31 (١٠٩٠ ـ ١١٥٣) من أهم دعاة الحملة الصليبية الثانية ومتصوف فرنسي، أحد أهم رهبان دير السيريين البورغوفي التي تعني (جدول الماء) إلا أنه ما زال أصل تلك التسمية خلافيا. له الفضل في انتشار حركة الرهبنة السيرية في أوروبا تم تأسيسها في أحد الأديرة البندكتية حيث تتبع وتطبق تعاليم رهبنة Bendikt von Nusria بعد خطابه الـ٤٥٧ لعام ١١٣٧ الأشهر في تاريخ الحروب الدينية حيث كان متحمسا جدا للحروب الصليبية ليس فقط من أجل الدفاع عن القدس ولكن من أجل مصالح أوروبا ركز في خطابه على غفران الخطايا مقابل الاشتراك في الحرب وبعد خطابه نقطة تحول في لاهوت حروب الدفاع حيث اعتبر الموت من أجل المسيح أسمى الأماني وبالأخص من أجل فرسان المعبد. يصور غالبا في الفن وهو يرضع من لبن مريم العذراء دلالة على فصاحته اللغوية وقوة إقناعه كداع تعد أشهر أعماله "المريميات" في تقديس العذراء مريم صوره جوته في المشهد الختامي لروايته دكتور فاوست.

فمن جهة يعرف الإسلام أن الحياة لا تقوم دون قطبية المرأة والرجل (من يانج وين[٣٢] كما أشارت إليها Sachiko Murata[٣٣] في كتابها "الطاو في الإسلام").

وكما أشار القرآن في سورة البقرة آية ١٨٧ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ١٨٧﴾، فتشير بذلك الظاهرة الدينية إلى أن كلًا منهم (الذكر والأنثى) هو الأنا العليا للآخر. لأن اللباس ما هو إلا نائب عن الشخص، ومن ناحية أخرى طُبع التصوف الإسلامي بنزعات أنثوية. فقد تشكلت الصور اللغوية وخصوصًا عند المتصوفة العرب بالحب من نمطه الكلاسيكي إلى الحب في صورة امرأة محالٌ الوصول إليها. ونقرأ

---

٣٢ اليانج والين: هما عنصران معروفان في الفلسفة الصينية، يمثلان العنصر والمقابل أو المضاد له وكلاهما يكمل الآخر، ويُعنى بأن يرتقي كل منهما بالآخر مثل النور والظلام، العلو والانخفاض، النار والماء، الموت والحياة، الشمس والقمر. ويمثل كل منهما عناصر تكاملية أكثر من تضادية وهي قوى تتفاعل مع بعضها البعض في نظام ديناميكي في الكل وكل شيء في الكون له يانج وين فالظل لا وجود له دون النور وفي فلسفة الطاوية يعرفان بالتضاد أي الخير والشر وترمز الين بالعنصر السالب أو الأنثوي المتلقي ورمزه القمر واليانج هو العنصر الذكري الإيجابي الفاعل ورمزه الشمس ويرمز للين بخلفية سوداء ونقطة بيضاء ولليانج بخلفية بيضاء ونقطة سوداء.

٣٣ هي أستاذ درسات دينية آسيوية في جامعة نيويورك من أصل ياباني أشهر أعمالها كتاب "الطاو في الإسلام" و"زواج المتعة في الإسلام" وترجمت إلى اليابانية كتاب "معالم الأصول".

كذلك في كثير من أبيات الشعر الفارسي عن سحر صبي كالقمر في الرابعة عشر، يكون "منحة أو هدية"! (وغالبا ما يُتغنى بصبي مسيحي أو شاب زرادشتي).

وعن كونه حبا أفلاطونيًا أم لا، هذا ما أبرزه Ritter Hellmut في كتابه القيم "بحر الأرواح"، فأظهر مدى صحة هذه الصورة في التصوف[٣٤]، على الأقل في العالم الفارسي.

وورد حب الملك محمود الغزناوي[٣٥] (٩٩٩ إلى ١٠٣٠) إلى مملوكه العسكري إياز كثيرًا في الأدب وظهر كيف جعل الحب من الملك "عبدا لعبده".

وتسرد سير الصوفية المئات من "رجال الله" ويكفي ذكرُ سير الأولياء عند السُلمي[٣٦] وأبو النعيم[٣٧] في المحيط العربي والتي كتبت بعد عام ١٠٠٠ ميلاديًا، وأصبحت نموذجًا للكتّاب الفرس فيما بعد.

---

٣٤: Helmut Ritter (١٩٧١ - ٨٩٢)

مستشرق ألماني عمل كمترجم للغة العربية والفارسية والتركية للقوات الألمانية في العراق وفلسطين بين عامي ١٩١٤ ـ ١٩١٨ كرس جل حياته في ترتيب الوثائق العثمانية والتركية في أرشيف إسطنبول الوطني حتى يؤســس اهتماما بتلك الوثائق في ألمانيا، واهتم بلغة التوريو وهي الآرامية الغربية من أعماله "القراقوز: خيال الظل التركي"، "أسرار البلاغة"، "بحر الأرواح: الإنسان والعالم والله في شعر فريد الدين العطا".

٣٥ (٩٧١ ـ ١٠٣٠) من ملوك غزنة ارتقت الدولة الغزنوية إلى أوجها في عهده امتدت من بخارى وسمرقند حتى كوجرات وماوراء النهر وكشمير، اهتم بالأدب والفنون.

٣٦ توفي والده الذي رباه تربية صوفية وأكمل تعليمه جده لأمه الذي حمل اسمه "السلمي" طاف في ترحال في العالم الإسلامي في كل من تركستان وخورسان والعراق وشبه الجزيرة العربية لم يشر أنه زار مصر أو دمشق إلا أنهما يبدوان معروفين لديه. في عمله طبقات الصوفية ضم ما يقرب من حوالي ١٠٥ سيرة للأولياء الصوفية جمعهم من بغداد ومكة من تلامذته البيهقي

وتعد كل من "تذكرة الأولياء" التي جمعها العطار[38] في أواخر القرن الثاني عشر، وعمل جامي المتوفى عام ١٤٩٢[٣٩] "نفحات الأنس" (وهو

---

والقشيري. ومن أعماله "حقائق التفسير" الذي يضم تفسيرا صوفيا للقرآن و" الرسالات الملاماتية" التي ناقش فيها النقد الموجه للطريقة الملاماتية التي يرجع أصول تأسيسها لجده. هو أبو عبد الرحمن السُلمي: (٩٣٧ ـ ١٠٢١) النيسابوري الصوفي صاحب طبقات الصوفية، مقامات الأولياء، وتاريخ أهل الصفوة

37 أبو النعيم الأصفهاني: (٩٤٨ ـ ١٠٣٨) مؤرخ ورحالة ولاهوتي عربي وجامع أحاديث، زار البصرة والكوفة ومكة والأندلس، له ما يقرب من مائة مؤلف أشهرهم كتاب تاريخ أصفهان، دلائل النبوة، وحلية الأولياء التي تضم سير الزهاد والمتصوفة في باكورة تاريخ الإسلام، نتج عن الخلاف الحاد بين الحنابلة والشافعية أنه حرم عليه دخول الجامع الكبير في مدينته أصفهان، وبعد أن غزا المدينة الملك مسعود الأول الغزنوي ارتكب مذبحة في هذا الجامع.

38 فريد الدين العطار: (١١٣٦ ـ ١٢٢٠) شاعر صوفي وجامع لسير الصوفية ولد في نيسابور وارتحل في العالم الإسلامي، سمي بالعطار لكونه ارتزق من العطارة والأعشاب إلا أنه أغلب الظن كان صيدلانيا أو طبيبا، أشهر أعماله "منطق الطير" التي تمتلئ بالأليجوري عن ألف طائر في رحلة عبر السبعة وديان للوصول إلى ملك الطيور "سيمورج" ولم يتمكن من الوصول إلا ثلاثون طائرا فقط هناك يدركون هويتهم الحقيقية. وفي عمله الآخر "تذكرة الأولياء" جمع سير الجيل المتأخر من الصوفية والزهاد ممن تركوا أثرا بعيدا وأفرد جزءا خاصا للحلاج الذي أثر بدوره على الشعر التركي والفارسي والهندي، تعد وفاته أيضًا أمرا مثيرًا تجنح إلى الرمزية الصوفية حيث أُخذ أسيرا في إحدى قلاع المغول وأراد أحد الأثرياء أن يشتريه بألف عملة فضية فرفض وقال إن الصفقة غير عادلة وأبقاه صاحبه المغولي آملا في سعر أعلى وأتى بعدها أحد العامة وعرض قشة مقابل تحريره فوافق وقال إنها لصفقة عادلة وهنا اشتاط المغولي غضبا وقطع رأسه!

39 عبد الرحمن جامي: (١٤١٤ ـ ١٤٩٢) متصوف وشاعر فارسي من أتباع الطريقة النقشبندية التي لعبت دورا سياسيا وثقافيا هاما في أفغانستان وآسيا الوسطى إبان تلك الحقبة، من أعماله "يوسف وزليخة" التي يتناول فيها قصة النبي يوسف مع امرأة العزيز بأسلوب أدبي رفيع محملة بدلالات صوفية، تلقى العلم في سن صغير وبلغ أرفع المقامات الصوفية في الطريقة النقشبندية أي بلغ درجة الكمال، وامتلك من كل فروع المعرفة في زمنه اللغة والمنطق والفلسفة والحساب والشريعة وطاف في العالم الإسلامي وتُوفي في هيرات في قبر متواضع يزار حتى اليوم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ترك مايقرب من ٨١ عملا في موضوعات مختلفة منها الشعر

عمل معدل عن سير الأولياء الذي كتبه عبد الله أنصاري[40] المتوفى عام ١٠٨٩م) الذي يليه بثلاثمائة عام هو عينة، تمثل ما يرد في الأساطير المطولة في سير الأولياء، كما ترد في مصاف الأعمال التركية والهندية المتأخرة. إلا أنهم لديهم القليل من أسماء النساء المتصوفات المعروفات. وللأسف فُقد كتاب السُلمي المتوفى عام ١٠٢١م عن النساء التقيات. ولعل أشهر شخصيتين في تاريخ التصوف هما ابن عربي[41] الأندلسي (١١٦٥ حتى ١٢٤٠م) ومولانا جلال الدين[42] الرومي المولود في منطقة تركية فارسية

---

والتاريخ والأحجية التي كانت لها شعبية واسعة في العالم الفارسي من أعماله أيضا "نفحات الأنس" الذي يضم سير الأولياء ومقدمة عن التصوف وتاريخه.

40 هو عبد الله بن محمد أنصاري: (١٠٠٦ - ١٠٨٩) يعرف باسم بير هيرات أي شيخ هيرات كان متصوفًا ومفسرًا للقرآن على المذهب الحنبلي كتب أعماله بالفارسية والعربية، يعد قبره في هيرات الآن أكبر مدن أفغانستان بعد كابل مزارا للصوفية. من أعماله "منازل السائرين"، "كشف الأسرار"، "ذم الكلام وأهله"، و"المناجاة" التي سطر منها على قبره وتضيء عند سقوط أشعة الغروب عليها.

41 هو محي الدين بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي: (١١٦٤ - ١٢٤٠) ولد في الأندلس وتوفي في دمشق حيث دفن ولا يزال قبره حتى الآن مزارا هناك. هو من لقب بالشيخ الأكبر وسلطان العارفين وإمام المحققين وغيرها من الألقاب التي تدل على مكانته وعلمه اللدني الواسع، ارتحل ما بين الشام ومكة لأداء فريضة الحج. ترك فيضًا غزيرًا من الأعمال الصوفية الشعرية والنثرية من لشعري ديوان ترجمان الأشواق الذي استعانت به المؤلفة هنا في أكثر من موضع، والفتوحات المكية التي كتبها أثناء إقامته في مكة، وفصوص الحكم وكتاب "شجرة الكون" وغيرها ولعل أشهر أبياته عن التسامح الصوفي هي

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي .. إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
لقد صارَ قلبي قابلاً كلَّ صُورة .. فمرعىً لغزلان ودَيرٌ لرُهبَان
وبيتٌ لأوثان وكعبةُ طائفٍ .. وألواحُ توراة ومصْحفُ قرآنَ
أدينُ بدين الحبِّ أنّى توجّهتْ .. ركائبهُ، فالحُبُّ ديني وإيمَاني

42 هو مولانا جلال الدين الرومي البلخي: (١٢٠٧ - ١٢٧٣) ويعرف عالميا وعربيا بالرومي صاحب الديوان الأشهر في أدب التصوف وهو "المثنوي" ولد في بلخ والتي يصعب تحديدها

تقع في شمال أفغانستان اليوم وقضى قسطا كبيرا من حياته في قونيا الأناضول، قد اتخذا موقفا خاصًا جدًا من الأنوثة يرسم في بعض الأحيان تصورات متناقضة. إلا أن جميع الأعمال الكلاسيكية والمتصوفة ليس لها إلا الاعتراف بأن الشخصية الفاصلة في التاريخ المبكر للتصوف كانت امرأة هي رابعة العدوية[٤٣] كما هو معروف في التراث الصوفي أنها أول من أضافت عنصر الحب الإلهي المطلق إلى التصوف شديد الزهد في القرن الثامن. ويُدان لها بمكانة رفيعة في تاريخ الحب الصوفي في الإسلام. فما قيل عن رابعة " أن المرأة إذا اتجهت إلى طريق الله لا يمكن أن تُعرف بعدُ بـ

---

بدقة اليوم إلا أنها ما بين شمال أفغانستان وطاجكستان اليوم. ارتحل مع عائلته إلى بغداد لأسباب سياسية ثم ارتحل بعدها إلى قونية في تركيا اليوم وهناك قضى حياته عالمًا جليلا ومتصوفا فيما بعد لقائه بشمس التبريزي إلى أن دفن هناك في قونية حتى اليوم لا يزال يحج إلى قبره الآلاف من جميع أنحاء العالم في ذكرى ميلاده ووفاته، تميزت آراؤه وأفكاره بالانفتاح على الأديان الأخرى المعاصرة له مثل المسيحية الشرقية التي كانت لا تزال حية في قونيا حتى القرن الثالث عشر والزرادشتية والأفلاطونية المحدثة. ولا عجب أن حزن عليه الجميع من كل الطوائف والملل وقت وفاته وساروا في جنازته، لعل لقاءه بالدرويش الغريب شمس التبريزي واختفاءه فجأة من حياته بطريقة درامية قد فجر لديه مشاعر فياضة صاغها في عمله "ديوان شمس" وأثر على جميع أعماله مثل رباعيات ورسائل مولانا الرومي فضلا عن ديوانه الفارسي الضخم "المثنوي" الذي تفضل المركز القومي للترجمة بنشر ترجمته العربية على يد الأستاذين حسن كفافي وإبراهيم الدسوقي شتا. إلا أن مؤلفة كتابنا هنا آنا ماري شمل لها كتاب بديع ترجم أيضا إلى العربية عن سيرة حياته وهو "الشمس المنتصرة".

٤٣ هي رابعة البصرة الزاهدة العابدة العاشقة الشهيرة: (٧١٧ ـ ٧٩٦) من أعلام التصوف الإسلامي وينسب لها الفضل بالانطلاق بالتصوف من الزهد والتقشف الصارم إلى فضاء الحب الإلهي، لم تترك عملا بخط يديها فمعظم ما نسب إليها أقوال تفتقد الدقة التاريخية وتعددت شخصيات نساء زاهدات في التاريخ الإسلامي كل منهن حملت اسم رابعة إلى أن التبس الأمر على الدارسين ولعل الدراسة القيمة التي قام بها أستاذ الفلسفة عبد الرحمن بدوي عنها وعن حياتها لا تزال موضع تقدير. نسب إليها الكثير من الكرامات والنوادر التي ذكرها عنها العطار في سير الأولياء.

"امرأة"، فامرأة كهذه يُطلق عليها دومًا "رجل" ويشكل استخدام كلمة "رجل" في العربية ونظيرتها في الفارسية "مرد" وفي التركية "آر" معضلة أخرى في فهم دور المرأة في نظرية التصوف وممارستها. فكلمة "رجل" يمكن أن تطلق على كل امرء توجه إلى الله بإخلاص، دون أن يكون للنوع أو الجنس دور فيه. فعندما يتحدث الشاعر السندي شاه عبد اللطيف[44] في القرن الثامن عشر عن بطلته التي تتوجه بجسارة في طريقها للمحبوب دون أخذ الصعوبات والآلام في اعتبارها، يُطلق عليها صفة "الذكورية".

---

٤٤ شاه عبد اللطيف: (١٦٨٩ ـ ١٧٥٢) متصوف سندي ولي وشاعر يعتبر أكبر شعراء اللغة السندية، جُمعت أشعاره فيما يعرف ب" الريسالو" ترجم إلى الأردية والإنجليزية وبعض اللغات الأخرى. كثيرا ما يقارن شعره بشعر مولانا جلال الدين الرومي. ترجع أصوله إلى خورازم شاه عائليا والبعض اعتبره من الأشراف أي يرجع إلى آل البيت. ولد وترعرع في العصر الذهبي للثقافة السندية قد علم نفسه بنفسه وتلقى اليسير من التعليم النظامي إلا مجمع أشعاره "الريسالو" يدل على اقتدار في اللغة العربية والفارسية والقرآن والحديث ومثنوي مولانا الرومي. بالرغم من كونه ولد في حال وعائلة ميسورة إلا أنه فضل البساطة واشتهر بتقديره للنساء والتعامل معهن بتحفظ كبير وهو ما كان أمرا نادرا في تلك الفترة. ارتحل في مناطق مختلفة من السند للوصول إلى الله والألوهية اشتغل بالتفكر في الأسئلة الآتية مثل ما غاية الإنسان ومصيره والهدف من وجوده. لعبت الثقافة السندية وخصوصاً الرحالة السند دورا هاما في أشعاره. قبل وفاته ب ١٢ يوما اعتكف في كهفه ثلاثة أيام خرج بعدها في رداء أبيض وطلب من مريديه العزف والإنشاد الصوفي لثلاثة أيام متوالية اكتشفوا خلالها أنه توفي أثناء العزف . في الخامس عشر من صفر يقام مولد لثلاث ليال على التوالي يأتي إليه الجميع من باكستان للاحتفال بالولي الكبير. ديوانه "ريسالو" جمعه مريديه أثناء حياته وبعد وفاته محمل بالرموز والإشارات الصوفية التي استوحاها من كل مناحي الحياة ينهل منها المسلمون والهندوس في الغناء والتأمل، يتكون من ثلاثين فصل عرف باسم "سور" جمعهم الباحثون في العصر الحديث و"سور" تعني طريقة الغناء حيث تغنى في فترات مختلفة في اليوم والليلة، وتسمى طبقا للموضوع الذي تتناوله وترتبط عادة بصفات الله كي يثري الإنسان بها نفسه وينفي الأنا ومن ثم يصبح أفضل.

ويلعب تشبيه المرأة في الأدب بالروح دوراً هاماً. فالنفس أو الروح هي كلمة مؤنثة وردت في القرآن ثلاث مرات في كل مرة بمعنى معين فمرة بـ "النفس الأمارة بالسوء"، سورة يوسف آية ٥٣ ﴿مَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، و "النَفس اللوامة" سورة القيامة آية ٢ ﴿لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾، و "النفس المطمئنة" سورة الفجر آية ٢٧ و٢٨ ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ والتي يتم مقارنتها بالأنثى بشكل مألوف ويقصد بها الزهاد النفس "الأمارة بالسوء". وبذلك تلعب النفس الأنثوية دورا حاسما كانعكاس للدنيا أو العالم الأرضي. وهي أيضاً بدورها مؤنثة في اللغة العربية. حتى لقد ترك الكتاب المسلمون ملاحظات غير سارة عن تيمة "المرأة الدنيا" الغاوية التي تبتلع الرجال والأولاد تماماً مثل اللاهوتيين المسيحيين في القرون الوسطى. فتيمة "المرأة الدنيا" تثني الرجل عن طموحه الفكري والديني وهو ما يمثل الذعر التقليدي للزاهد من قوة الأنوثة.

إلا أن الثلاثة مستويات للنفس المشار إليها في القرآن تُعتبر تقديراً لقابلية تطور الأنوثة، كما أشار سنائي الشاعر المتوفى[45] في عام ١١٣١م

45 هو أبو المجد بن مجدود بن آدم السنائي الغزنوي: عاش ما بين القرن الحادي عشر والثاني عشر، شاعر فارسي من غزنة، يعتبر هو ومن فريد الدين العطار الآباء الشرعيين لمولانا جلال الدين الرومي حيث يشترك الثلاث في كتابة المثنوي وهو احد أنواع الأدب الفارسي الصوفي، وهو أول من كتب القصيدة والغزل، تعتبر أشهر أعماله التي اكسبته مكانة مميزة في محيط الثقافة الفارسية هي "حديقة الحقيقة وشريعة الطريقة" حيث تعتبر أولى الملاحم الصوفية التي كرسها للملك بهرام شاه، ويعكس العمل أفكاره عن الله والحب والفلسفة والعقل. ويعتبر من كتاب التعاليم الصوفية الأساسيين. ارتكزت فلسفته على أن الشهوة والطمع وغيرها من الطباع الإنسانية السلبية حاجزا بين الإنسان والله، ورأى أن الدين العادي الممارس من العامة خالياً من الحقيقة ويدخل في إطار العادة والطقوس فقط.

والذي عُرف بعدم حبه للمرأة "إن المرأة الطيبة أفضل من ألف رجل". إلا أن نفوره من الجنس الأنثوي جعله يعلق على أسماء صور مجموعة النجوم للدب الأكبر، والتي تسمى في العربية بـ "بنات النعش" بأنه من الأفضل أن تكون بنات على مجموعة الدب القطبي على أن تكون في الدنيا (أي في الحياة الدنيا على الأرض)!

ومن الغريب أن يُوصم الإسلام بأنه دين معاد للمرأة، فغالبًا ما علق محمدٌ قائلا" حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة" فالنساء مثل الطيب أي العطر فكلاهما في العربية لهما نفس الأصل. ويحضرنا أيضًا خديجة زوجة النبي المتوفاة عام ٦١٩م والتي كانت زوجته الوحيدة لمدة خمس وعشرين عاما، فهي من دعمته وشدت من أزره عندما تعرض لصدمة روحية غير مسبوقة، أثناء تجلي الوحي عليه لأول مرة. وتعتبر ابنتها الكبرى فاطمة أم حفيدى النبي المقتولين الحسن والحسين المثل الأعلى والأنبل للنساء في التدين الشيعي.

ويحتل عنصر الأم دورًا محوريًا في الإسلام. فيكفي الإشارة إلى أن كلمة "رحمة" لها نفس الأصل العربي من كلمة "رحم"، لذلك من الممكن أن يكون "حب الأم" بمعناه الواسع هو حب للخالق. وكما قال النبي "الجنة تحت أقدام الأمهات"، ويدين المرء للأم بقلقها اللامتناهي عليه. وبهذا الربط تكون الروح عنصرًا أموميًا، وكما في التيارات الثيوفية[46] الروحانية يعتبر كل إنتاج أوعملية إنتاج "زواج" فعندما يجتمع

---

46 Theosopic : مصطلح يوناني يعني الحكمة الإلهية وهو خليط يجمع بين الصوفية الإلهية وفكر فلسفة الطبيعة، التي ترى العالم كتطور إلهي أي "مبدأ وحدة الوجود" وتعنى الثيوفانية

حجر الصوان والمطرقة ينتج من "زواجهما أو اتحادهما" شيء أسمى وهو النار. فاتحاد عناصر الذكورة والأنوثة وتفاعلهما معا يمكّن للحياة أن ترتقي إلى مستوى أعلى، فالذكورة أو العنصر الصلب هو "الخوف"، والأنوثة العنصر اللين هو "الرجاء"، يؤديان معًا الى "الإيمان الحقيقي" كما أكد على ذلك سهل التستري المتوفى[٤٧] عام ٨٩٦م. العقل هو عنصر (يانج) والروح المستقبلة له هي عنصر(ين) لا ينفصلان أبدًا مثل التحليل والرأي أو أشبه "بالعلم والحب" (لكي لا نغفل عن عنوان لشعر مشهور لإقبال[٤٨] بالفارسية).

---

في الدراسات الأكاديمية شيئين الأول وهو تيار من ضمن التيارات الباطنية الغربية التي تعود بدورها إلى القرن ١٥ وتعني بهذا الثيوفانية الغربية المسيحية التي تعنى بالمعرفة الإلهية الحادثة من خلال التجربة الصوفية وهومصطلح تم تطويره بشكل اكبر على يد Gershon Scholem وتعرف في التقاليد اليهودية واستخدمها Henry Corbin في الدرسات الإسلامية، والثاني: هو مصطلح يستخدم في إطار المجتمعات الثيوفانية الغير دينية التي قامت على أسس فلسفية وأسسها Ernst Bloch.

٤٧ سهل التستري: (٨١٨ - ؟) متصوف إيراني ومفسر للقرآن كان لتصوفه الأثر الأكبر على الصوفية اللاحقة يحتل الذكر حجر الأساس عنده في التصوف والذي ترك بدوره أثرًا بعيدًا على تفسيره للقرآن فهو يرى الذكر كغذاء روحي يومي، وأولى للتوبة اهتمامًا خاصًا في فكره حتى يُنسب إليه قول" التوبة واجبة على الإنسان في كل نفس يدخل إليه" كل آية من آيات القرآن لها عنده تفسير ظاهري وآخر باطني وثالث أخلاقي

نسب ابن النديم له في الفهرست مجموعة رسائل لم يصل إلينا منها إلا عملان بجانب تفسير القرآن ومجموعة من أقواله في ثلاث مجلدات.

٤٨ هو إقبال نور محمد: (١٨٧٧ - ١٩٣٨) من أشهر شعراء الهند الإسلامية، وهو من أسس بفكره لإقامة دولة باكستان أي انفصال الهنود المسلمين عن الهندوس وإقامة قومية خاصة بهم في غرب الهند وهو ما يعرف اليوم بباكستان أي "أرض الأطهار"، وإن كان لم يمتد عمره ليرى إقامة الدولة التي أسس لبنائها، درس الفارسية والعربية بجانب الأردية اللغة الأم، ورحل إلى أوروبا حيث درس الفلسفة وعاد إلى وطنه ليكمل مشروعه الأدبي الضخم الذي أثرى الفكر الإسلامي وجدده، كانت له أنشطة سياسية وثقافية هامة ترك إرثا كبيرا من الشعر الصوفي كتبه

ولكن هل لنا أن نتخيل بالفعل وجود ما يشبه أبيات شعر ريلكه السابق ذكرها في التصوف الإسلامي؟ فهل تبدو النساء كنماذج لأرواح مشتاقة تعبر بلغتها الخاصة عن استسلام العاشق للحب؟ نعم فهن يبدون في هذا الدور بشكل أساسي وتعرض دراسة دقيقة عن تاريخ الشعر الصوفي بأن هناك تطوراً هاماً لهذا الموضوع. نادراً ما يتحدث القرآن عن السيدات. ومثلت حواء في الأساطير الشعبية للأنبياء بأنها الغاوية، إلا أن القرآن لم يذكر دورها في الوقوع في الخطيئة. ولا يوجد أي تصورات عن جنس فاعل الخطيئة الموروثة. فيشار إلى النساء دون ذكر أسمائهن باستثناء مريم العذراء والدة آخر الأنبياء قبل محمد. فهي شخصية محببة لدى المسلمين وخصوصاً عند الصوفية فهي الأم العذراء التي هزت بجذع النخلة الجرداء أثناء آلام المخاض، ومن ثم طرحت لتوها بلحاً حلواً سورة مريم آية ٢٥ ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾. وهي كما في المسيحية أَمة الرَبِّ الحقة. ومن أهم السيدات اللاتي عُرفن في تطور الأدب المتأخر هي امرأة بوتيفار[٤٩] في العهد القديم (زليخة) التي حاولت إغواء يوسف. والتي طالما أشار إليها الشعراء بأنها رمز

---

بالفارسية والأردية، لذلك لقب بشاعر الإسلام، بجانب مؤلفات هامة مثل "رسالة المشرق" و"أسرار إماتة النفس" وتجديد الفكر الإسلامي" وغيرها. عُرف في العالم العربي بسبب قصيدة "شكوى جواب الشكوى" التي غنتها له أم كلثوم تحت مسمى "حديث الروح". تأثر بشعراء كبار مثل جلال الدين الرومي على المستوى الروحي وبفكر جمال الدين الأفغاني سياسيا، ومحمد شبلي، وتعد إسهاماته الفلسفية الكبيرة التي تقوم على نقد رفض العقلانية للدين حجة هامة في التوفيق بين الدين والحداثة، لم يعارض القومية واعتبار حب الوطن من مكونات الإيمان.

٤٩ بوتيفار: هو عزيز مصر أثناء فترة قدوم النبي يوسف إلى مصر طبقاً لروايات العهد القديم وزوجته كانت تسمى راعيل بنت رمايل ولقبها الشهير "زليخة".

للنفس المطهرة التي لا تعرف حدودا للحب، وبسببه تعاني آلامًا لا محدودة، وأخيرًا ستتحد مع يوسف. فالمحب العاشق الباحث دون كلل يجد في آخر طريقه جمالاً لا يقارن، وهو ما يتمثل في يوسف. وبذلك تتم مطابقة قصة يوسف وزليخة بالروح أي (زليخة) التي تعاني العشق في البحث عن مصدر الجمال بأسره، عن الله (المتمثل في جمال يوسف). وبعض الباحثين قد شبهوا أنفسهم بزليخة .

وفي الشعر الكلاسيكي الصوفي تأخذ مريم مكانة أو وظيفة ملكة سبأ المشار إليها في القرآن في سورة ٢٧ "سورة النمل" والمعروفة تقليديا ببلقيس، فاحتلت مريم مركز البرعم الحلو الذي انبثق عنها الزهر العطر "يسوع"، بينما تظهر كل من السيدات الثلاث كرموز للأرواح العاشقة في كتابات الشاعر الصوفي الكبير في الإسلام مولانا الروميّ. ويسبقه ابن عربي الثيوصوفي ب (المعنى الكلاسيكي) في إسلام العصور الوسطى في عمله الضخم "الفتوحات المكية" بالإشارة إلى أن النساء يمكنهن بلوغ أعلى درجات التصوف. بل وذهب أبعد من ذلك بأن ليس فقط كلمة "النفس" المحملة بمعان سلبية هي الأنثوية، ولكن بالأخص مفردة "ذات"، فالله هو الخالق الذكريّ والعنصر الأنثوي المستقبل، وبدون أنوثة المرأة يستحيل رصد جمال الله في كونه المخلوق. فلقد أكد ابن عربي على الدور المحوري لعنصر الأنوثة في العالم، ويوجه الناقدون المسلمون في العصرالحديث إليه بالميل إلى "رمزية التوازي الجنسي Parasexuelle".

إلا أن فكرة التصاق الأنثوي بالذكري (ألم تكن حواء جزءًا من آدم؟) قد تركت آثارًا بعيدة المدى. وأفضل من عبر عن تطور صورة

"عروسة الروح" في الأدب الصوفي كان في مناطق الهند وباكستان. ومن السهل تناول مصطلح "فيراهيني"[50] في التقاليد الهندية والتي تشكل حجر الأساس خصوصًا في صوفية "بهاكتي"[51] لأن المرأة فقط هي من تشعر بال"بريما" الحب وال"فيراها" الشوق، فعندما يبتعد عنها محبوبها أو خطيبها أو زوجها تعاني بما لا يُوصف من آلام البعاد. ويعبر الشعر الهندي "باراهماسا"[52] شعر الاثنتي عشرة شهر عن مشاعر الشوق التي تعاني منها المرأة طوال العام. وكذلك في أقوال وأساطير السند والبنجاب توجد مثل هذه الأفكار. وفى الأدب السندي والبنجابي المرأة هي البطلة، التي تبحث عن محبوبها بعد معاناة طويلة ليتحقق الوصال في الموت، حتى في أحلك الظروف تظل له الصديقة الأولى الأبدية المخلصة والشجاعة، والتي يمكن تفسيرها بسهولة على أنها رموز للأرواح.

---

50 Virahini: تمثل موضوعا مهما في الشعر الهندي والفيرها تعني الانفصال أو البعد وهو ما يمثل فيراها الفتاة الحبيسة التي فارقها حبيبها وتظل جالسة تنتظر الزواج أو تنتظر الحب وهو ما يمثل أيضًا الفتاة الخجول المنطوية وفى أثناء معاناتها في هذا البعد تسرد في كل شهر من شهور السنة مشاعرها المختلفة. ولقد كانت وما زالت الفيراهيني موضوعا محببا لدى الرسامين الهندوس.

51 البهاكتية: هي تيار صوفي في كل من الهندوسية، السيخية، والإسلام في جنوب آسيا مضمونها هو التقوى كطريق للخلاص، وحب الله والاستسلام له. نشأت كحركة روحية احتجاجية منذ القرن السادس أو السابع الميلادي حتى الخامس عشر، لكي تحتج على سلطة المعبد وتؤسس للعلاقة بين العبد والإله.

52 Barahamsa: هي الروزنامة الهندية الموسمية المقسمة إلى ست مواسم على ١٢ شهر للسنة التي تعالج العلاقة بين اختلاف الفصول وتأثيرها على الإنسان فلقد عبر عنه هذا النوع من الأدب بالتفصيل حيث تسرد الحبيبة المهجورة مشاعرها المختلفة في كل شهر من شهور السنة.

فلدينا ساسي[٥٣] التي ندمت على غفلتها وظلت تجول بين الصحارى الملتهبة، وفي آخر طريقها تتحول إلى الحب، ومثيلتها مروى التي قادها إقطاعيٌ قوي في قصر مزين فخيم، وظلت رغم ذلك تفكر في الوطن وتشتاق إليه، مثل الناي الذي يشتاق إلى جذعه الذي منه بُتر، وبذلك تكون قد تجسدت التجارب الإنسانية والنظريات الصوفية في تيمة (الأرواح ـ المرأة) في الأقاويل الهندو ـ باكستانية.

وفي الأدب الديني الإسماعيلي الشيعي يتجسد نفس التصور في "جنان[٥٤]"، ويحدث أحيانًا بمرور الزمن أنه لم يعد الله هو المحبوب المبتغى الصعب الوصول إليه، فشعر الحب وأغاني العروس يمكن أن تكون موجهةً إلى المحبوب النبي محمد أو تُوجه كما هو الحال في الأدب الإسماعيلي إلى حضرة الإمام الزعيم الروحي للطائفة.

ونتشابه هذه التيمة في هذه العينة من الشعر، حيث تُصور الروح في هيئة المرأة المجتازة الطريق الضيق الذي يقودها إلى المحبوب، وهنا يستحضر الشعراء الهوية الأنثوية ويستدعون تصورا لـ "شريكات الحياة" و "الخليلات" أثناء قيامهن بالغزل.

---

٥٣ ساسي وبونه إحدى أساطير السند التي سطرها شاه عبد اللطيف وسيرد حديث مفصل عنها في الفصل العاشر من هذا الكتاب.

٥٤ الجنان (كنان) هو شعر ديني يلقيه الشيعة الإسماعيلية أدخله في الأصل شيوخ الطرق الصوفية، أول من جلبها إلى جنوب آسيا هو بير Satayrmoor في القرن ١٢ وكتب شعر (الجنان) بلغات عديدة في جنوب آسيا أهمها الأردي، والسندى وجوارتى ويعتمد على آيات في القرآن وقصائد تقرأ بالعربية والفارسية أو الطاجيك في آسيا الوسطى عند الإسماعيلية وفي إيران وفي سوريا كانت تقرأ بعد وقبل الصلوات في المساجد.

ففي بعض الأحيان، يتزيا الدراويش الأتقياء كالنسوة ويعرّفون أنفسهم بـ "إماء الله". ولقد عرف الصوفية العبارة المنسوبة لله خارج القرآن "قديسيني تحت قبي"، مع إشارة محدودة للسيدات، ممن هن جديرات بالثقة والقرب منهن، فتقبلوا المقولة المنسوبة إلى أبي يزيد البسطامي[٥٥] المتوفى ٨٧٤م "الأولياء عرائس الله".

٥٥ هو المتصوف والشاعر الفارسي أبو يزيد البسطامي: (٨٠٣ ـ ٨٧٥) قد كان جده زرادشتيا وأسلم، عرف أيضا بطيفور له دراسة موسعة عن الشريعة الإسلامية، اشتهر منذ صباه بالتحكم في النفس والزهد والعزلة، اتبع أسلوب "إماتة النفس عن العالم" للوصول إلى الله كان خليفته ذو النون المصري، وكان مريداً عند أبي حيان التوحيدي، أكد على أن تجربة النشوة مهمة في الإسلام. لعبت فكرة "السكر والوجد" دورا محوريا في أعماله.

## الفصل الأول

# النبي والنساء

"حُبب إليّ من دنياكم الطيبُ والنساءُ، وجُعلتْ قرة عيني في الصلاة" .

غالبًا ما يُذكر ذلك الحديث النبوي، وبالرغم من ذلك يُعتبر الإسلام دينًا معاديًا للمرأة! وأدى هذا التطور غير المسبوق إلى أن تأخذ المرأة مكانتها في التشريع و تيارات الزهد، والتي كانت بعيدة تمامًا عن تلك التي عهدنها في عصر النبي والصحابة. فحتى الآن لم يتم تقدير دور خديجة زوج النبي الأولى حق قدرها، تلك الأرملة التاجرة أم العديد من الأولاد، فهي من عرضت الزواج على شريكها الشاب المجتهد محمد، وولدت له الأولاد، وهي مَن عزته بعد رؤيته الأولى وسماعه الوحي أول مرة، وشدت من أزره وأقنعته بأن التجلي الذي ظهر له في غار حراء أثناء تأمله ليس برؤيا شيطانية ولكنه من عند الله.

وبالفعل استحقت خديجة لقب "أم المؤمنين" و "خير النساء" لذلك هي اسم مفضل عند كثير من نساء المسلمين في العصر الحديث، وكذلك المسلمات يؤكدن على الدور المفصلي لها في التاريخ المبكر

للإسلام. أحبها محمد حبًا جمًا ولم يتزوج إلا بعد وفاتها عام ٦١٩م - بعد زواج دام أكثر من ٢٥ عامًا - عددًا من السيدات، منهن الصبية عائشة ابنة صديقه الوفي أبي بكر. أما الأخريات فكنّ إما أراملَ أو مطلقات أو إماءً معتوقة. واتخذ الهنود الحداثيون في القرن التاسع عشر والعشرين تلك الحادثة كحجة هامة في الجدل القائم عن زواج الأرملة، والذي كان أمرًا مستبعدًا عند الهنود المسلمين بسبب تأثير التراث الهندوسي (الذي يحرّم زواج الأرملة). فكيف لهم معارضة النموذج الذي ضربه النبي؟

وأيضًا أضيف لقب "أم المؤمنين" إلى زوجات النبي التاليات وطُلب منهنّ كما في القرآن سورة النور آية ٣٠ و٣١ ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ، وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وهو طلب ربما أراد به تكريمهن، للتمييز بينهن وبين سيدات الطبقة الدنيا اللاتي ارتدين ملابس أخف. فلقد كان ذلك الستر شرفًا وليس علامة على التضييق. إلا أنه بمرور الزمن أصبح ذلك الاستثناء بسبب التحولات الاجتماعية أكثر تشددًا، ووصل أوجَهُ في إلزام السيدات "السادة" في محيط الثقافة

الهندية الإسلامية ـ أي المنحدرات من نسل النبي وبنته فاطمة ـ بكثير من المحظورات.

ألم تكن السيدات ناشطات في العصر المبكر، ألم تناقش عائشة مع سيدات النبي المشاكل التقليدية، فندين لها بعدد كبير من النقل عن حياة النبي الخاصة وفي عام ٦٥٦م نأتْ عن الدخول في معركة الجمل حتى لا تحارب علي ابن أبي طالب وشيعته. وكثير ما يفخر أهل السنة بقول محمد لعائشة الصبية كلميني يا حُميراء (مثنوي ١ ١٩٧٢ومثنوي ٧ ص ١٣٤[٥٦]). حيث إن علم الصبية كان قادرًا على إنارة النبي محمد في بعض الأحيان. إلا أنه بالنسبة للصوفية يتم تفسير قول النبي بتصرف على أنه خطاب العاشق إلى الروح الإلهية الذي يرغب في التحدث إلى محبوبه أو محبوبته.

إلا أن عائشة مكروهة في التقاليد الشيعية، فقد كانت خصمَ عليٍ وشيعته ابن عم النبي وزوج ابنته، والذي يعتبر الإمام الأول للشيعةً والقائد الحقيقي للمؤمنين. وكان يجب أن يكون الخليفة الشرعي لمحمد بعد وفاته كما يزعم الشيعة وأن والد عائشة أبا بكرٍ قد اغتصب الخلافة ما بين ٦٣٢ و٦٣٤م.

---

٥٦ من المثنوي الجزء الأول: "ولقد أقبل المصطفى قاصدا المؤانسة، فقال: كلميني يا حميراء - يا حميراء ضعي السنبك في النار، حتى يصبح هذا الجبل من السنبك ياقوتا - وحميراء هذه لفظة مؤنثة، والروح أيضا مؤنثة عند العرب ـ لكن لا بأس للروح من التأنيث فلا علاقة للروح بالتذكير والتأنيث ـ فهي أعلى من المذكر وأعلى من المؤنث وهي ليست تلك الروح الموجودة من اليابس والأخضر." ويقصد به أن الرسول صلى الله عليه وسلم أهاب بعائشة أن تخرجه من تأملاته لتخرجه مما هو فيه، ويقصد بوضع السنبك في النار إلى عادة قديمة فعند استحضار اسم شخص غائب يكتب اسمه على السنبك ويوضع في النار.

مما أدى إلى نفور بين عائشة وعلي، والذي تحدث عنها بشكل سلبي عندما فقدت قلادتها أثناء العودة من إحدى الرحلات وقادها أحد الشباب إلى القافلة. إلا أن الوحي رد الشك في شرفها سورة النور آية ١١ ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

فموقف عائشة من علي الذي حاربته في موقعة الجمل عام ٦٥٦م، أدى إلى تصاعد مشاعر عداء الشيعة ضدها لذلك لا يتم تسمية أي من نساء الشيعة على اسمها عكس الحال عند سيدات أهل السنة اللاتي ينتشر بينهن الاسم. وفي أدب غلاة الشيعة النصيرية[57] تقارن عائشة بالبقرة الحمراء، قربان موسى في سورة البقرة (سورة البقرة : آية ٦٧ ـ ٧٢) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، ٦٨ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ، ٦٩ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ، ٧٠ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ

---

57 الشيعة النصيرية : هي إحدى فرق الشيعة الاثنا عشرية الجعفرية وتسمى أيضا بالعلوية وتمنى بالتفاسير الباطنية للإسلام وعرفوا بالنصيريون نسبة إلى الإمام محمد بن نصير النميري أحد نواب الإمام المهدي في فترة الغيبة الصغرى. بسبب انغلاق تلك الطائفة اتهمها الكثيرون بالكفر والممارسات الشاذة. يتواجد معظمهم في جبال سوريا وتركيا ولبنان وبعض منهم في المغرب العربي.

ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ٧١، وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ٧٢﴾.[58]

وكان للنبي أربع بنات، وفي ذلك الزمن أن يكون لك بنات لم يكن شيئا نادرًا كما كان قبل الإسلام في الجزيرة العربية حيث كانت الفتيات يُدفنّ أحياءً لأسباب واهية، فهي عادة مذمومة عبر عنها في سورة التكوير آية ٨ ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ﴾. ويظهر تثمين البنات من خلال الكنيات التي كانتَ كأبي طلحة أَو ما يشابهها وأضحت أبو ليلى، أو أبو ريحانة، حتى لا يظهر خجله من البنات كما تقول التقاليد.

وكما هو معروف تقليديًا أن يُهنأ عند ولادة البنت ويعد السبب لهذا ربما مفاجئًا للقارئ اليوم، فالبنت من جانبها لها أن تنجب سبعًا من الذكور.

ثلاث من بنات محمد توفين قبل وفاته، وهن زينب، ورقية، وأم كلثوم. والأخيرتان تزوجتا من أبناء أبي لهب، الذي لُعن في القرآن كألدّ

---

58 يبدو أن الأمر هنا قد التبس على المؤلفة فالبقرة التي تقصدها ووردت في القرآن وكانت قربان موسى عليه السلام هي بقرة " صفراء" اللون كما ذكرت الآية قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩)، بينما البقرة التي أشارت لها في النصّ "حمراء" وهي تلك البقرة التي تستخدم في طقوس تطهيرالنجس الذي لامس إحدى جثث الموتى، أو العظم أو تواجد مع أحدهم تحت سقف أو لامس المقابر، وقد ورد الطقس في سفر العدد (١ ـ ٢٢) بالتفصيل، وأكد التلمود على ندرة تلك البقرة التي يجب أن تكون حمراء بالكامل بينما رأى بعض الجانب الآخر من المفسرين أن المقصود بها أن تكون بنية. ولا يزال المعنى أو التفسير الحقيقي لذلك الطقس خلافيًا بين طوائف اليهود، وإن كان يراها البعض أنها تمثل الطاعة والامتثال لله دون أسئلة.

أعداء النبي في "سورة المسد"، إلا أنهن انفصلن عن أزواجهن، وتزوج بهنّ عثمان ابن عفان ثالث الخلفاء (٦٤٤ حتى ٦٥٦م) وتزوجهن واحدة تلو الأخرى أي بعد موت الأولى، حيث الجمعُ بين الأخوات محرّمٌ، لذلك لُقّب بـ "ذي النورين" ولهذا يُستخدم الاسم المركب "عثمان نوري" حتى الآن في تركيا ويعني "صاحب النورين".

توفيت فاطمة أصغر بنات الرسول بعد أشهر من موت أبيها، وكانت متزوجة من ابن عم محمد، علي ابن أبي طالب وولدت له ابنين، كانا أحفاد النبي المحبوبين اللذين أحب اللعب معهما كما حكت الأساطير الرقيقة والحكايات الشعبية. توفي الحفيد الأكبر الحسن عام ٦٦٩م ربما مسموما، بينما قُتل الأصغر الحسين عام ٦٨٠م فيما يعرف بموقعة كربلاء في حربه ضد الخليفة الأموي يزيد. فلقد اغتصب الأمويون الخلافة عام ٦٦١م بعد مقتل علي وحاول الحسينُ بعد تولي ثاني الخلفاء الأمويين يزيد ابن معاوية استعادة السلطة مرة أخرى إلى البيت النبوي. وتُعد تراجيديا كربلاء العراق في العاشر من محرم أول الشهور القمرية من العوامل المؤثرة في التدين الشيعي بشكل عميق، وتم تصوير أحفاد النبي في أدب الشعوب الإسلامية كأبطال مضيئين وكأئمة الشهداء بينما قد حظيت فاطمة بمكانة "الأم الحزينة" [٥٩] Mater dolorosa.

---

٥٩ Mater Dolorsa: هو لقب يأتي ضمن "تقديس مريم" وتعني أيضًا الأم المتألمة، وعرفت في الأيقونات والفن المسيحي بشكل عام وهي ترنو إلى السماء وفي صدرها سيف وفي بعض الأحيان سبعة سيوف تخترق صدرها.

بالرغم من أنها قد سبقت وفاتها مقتل ابنها الأصغر بما يقرب من نصف قرن فهي عند الشيعة أعلى من رتبة البشر، تلك الرتبة التي استمدتها من محمد وعلي ومن الأسماء التي أضيفت لها مثل "الزهراء" و"البتول" و" الكنيز" و"المعصومة" أي التي عُصمت من الذنوب وغيرها من الأسماء التي يتسمى بها الشيعة. فهي ليست مجرد شفيعة لكل مَن يندبون ابنها الحسين، ولكنها تُسمى في آفاق التصوف بـ "أم أبيها". وقُصت الكثير من الحكايات عنها وخصوصًا عن الفقر الذي عاشت فيه وألهب خيال المؤمنين. فهي بحق "سيدة البشر". وثمة أدبيات عُرفتْ باسم "كتاب مهر فاطمة"[٦٠] "جهازنامى فاطمة" التي عُنيت بسرد المتاع المتواضع الذي أهداه لها والدُها كمهر، وعن كرمها مع الفقراء (وإن كانت هي وعائلتها ترزح في الجوع)، فتشير إلى قلة ملابس ولديها وهو ما يتم إعادة سرده باستمرار مع إضافات زخرفية لتقديمها كأسوة للفتاة المسلمة، وبالفعل ظهرت طائفة في العصور الوسطى كانت تترك الميراث كله للبنات بسبب فاطمة.

وتحظى فاطمة أيضًا بمكانة كبيرة عند العالم الإسلامي السني فإذا ما يقرأ المرء توقير فاطمة في الملحمة الفارسية التي ظهرت عام ١٩١٧ "رموزي بي خودي"[٦١] "أسرار فقدان النفس" لمحمد إقبال

---

٦٠ هي إحدى كتابات فريد الدين العطار في إلهي نامه وهي حكايات عن مهر فاطمة.

٦١ أسرار فقدان النفس هو من أهم أعمال الشاعر والفيلسوف الكبير محمد إقبال كتبه بالفارسية وصدرعام ١٩١٨ يعتبر ثاني عمل فلسفي لإقبال، والمكمل للكتاب الأول المعنون " أسرار النفس" وكلا الكتابين استهدف بهما إقبال العالم الإسلامي، حيث يرى أن الفرد والمجتمع مرآة كل منهما للآخر، وعلى الفرد أن يقوم نفسه قبل أن يندمج في المجتمع والذي يعتمد بدوره

(١٨٧٧حتى ١٩٣٨م) ويتضح فيه الموقف السني بجلاء من توقير فاطمة، وغيرها مثل مؤلف علي شريعتي[62] "فاطمة هي فاطمة"[63] والذي ظهر إبان الثورة الإيرانية، وفي كل مكان دومًا ما يُتغنى بنبل وفضائل تلك المرأة المسلمة بكلمات مؤثرة.

ولا بد ألا يغفل المرء عن تلك الحقيقة وهي أن ذرية الحسن والحسين فقط هي من تُلقب بالسيد وليس بقية ذرية أبناء علي.

والغالبية دومًا ما تتغنى بأبيات الشعر للسنائي[64]. (المتوفى ١١٣١م في غزنة أفغانستان حاليًا)

"قد يعج العالم بالنساء ولكن أين تلك كفاطمة خير النساء؟"

وقد أضيف لقب التوقير "خير النساء" لاحقًا لا لخديجة فحسبُ ولكن لابنتها الكبرى أيضًا. وفي دوائر الصوفيين يُرى اللقب الذكوري

---

على مدى التحكم في النفس، وهذا يتأتى من خلال الاحتكاك بالآخرين، ومن ثم تتحدد حرية النفس ومعنى الحب، لذلك رأى إقبال أن على الأم دوراً كبيراً في زرع تلك القيم في نفس أولادها.

62 علي شريعتي: (١٩٣٣ ـ ١٩٧٧م) كاتب ومفكر إيراني درس علم الأديان في فرنسا وعلم الاجتماع، ساهم فكره في إسقاط نظام الشاه وإشعال الثورة الإسلامية عام ١٩٧٧م، ابتعد بنفسه عن المذهبية وانتقد التطرف المذهبي سواء من "التسنن الأموي" و"التشيع الصفوي"، له العديد من المؤلفات مثل معرفة الإسلام، التشيع مسؤلية، و فاطمة هي فاطمة وغيرهم.

63 فاطمة هي فاطمة : وهو كتاب عن فاطمة الزهراء حفيدة رسول الله كتبه علي شريعتي ليكون إرشاداً للفتاة المسلمة، كُتب قبل الثورة الإيرانية، وفي تلك الفترة كان من الصعب تحديد أي فاطمة يقصدها علي شريعتي، وأكد في مقدمته أنه أبرز أكثر من وصف تفصيلي لتلك الشخصية وعلى القارئ الذكي أن يعرف هويتها.

64 سبق الكلام عنه

"فاطر" وهو اسم من أسماء الله على أنه من ألقاب فاطمة. وتخبرنا النصوص عن العديد من السيدات في محيط النبي، بعضهنّ هاجر مع عائلاتهن إلى الحبشة، ومنهن من رافق محمداً وجيشه في الكثير من المعارك وشاركن في مداواة الجرحى، وكان من البديهي مشاركتهن في الصلاة، فالحديث النبوي يقول " لا تمنعوا *إماء الله* مساجد الله". وهو تقليد أضافه (وإن كان لا يحبذه) الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (٦٣٤ حتى ٦٤٤م) كان ينبغي له لما عُرف عنه من حزم وعدل شديدين أن يُظهر نفسه على تفاهم ووفاق مع السيدات. وحينما أراد قتلها أثناء تلاوتها لآيات القرآن تأثر بكلمات القرآن واعتنق الإسلام في التو ليصبح من أشد المدافعين عن الإيمان، وهي قصة أوردها الرومي تفصيليًا في ديوان شعره النثري "فيه ما فيه"[٦٥].

واشتهرت الصحابيات في عهد النبي غالبًا بسبب تدينهن، ومنهن السيدة نفيسة وهي إحدى باكورات أحفاد النبي التي تزوجت بابن سادس الأئمة جعفر الصادق المتوفى عام ٧٦٥م، وانتقلت مع ابنة عمتها سُكَيْنَة إلى القاهرة حيث اشتهرت بزهدها وورعها، حتى إن الإمام الشافعي أحد مؤسسي المذاهب الفقهية الأرثوذكسية اعتاد إقامة الصلاة معها، كما أخبرنا ابن خلدون في كتاباته عن السير. ومن الطبيعي أن تُحيط بها الكرامات، ومنها ماء الوضوء الذي كانت تتوضأ به وكان سببًا

---

65 إحدى كتابات مولانا الرومي يضم ٧٢ موضوعًا تحمل النسخة الأقدم له من عام ١٣٥٠ عنوانا آخر "الأسرار الجلالية" كما أشار له مولانا الرومي نفسه في المجلد الخامس من المثنوي تحت مسمى "مقالات مولانا". يعتبر بمثابة مقدمة للمثنوي يشرح معاني التصوف بمعان بسيطة.

في علاج امرأة يهودية. ولما توفيت في عام ٢٠٨ هجريًا ٨٢٤ ميلاديًا بُني لها مقام إلى الآن يستقبل يوميًا الكثير من الزوار كمكان حج، وفي العصور الوسطى لاسيما في العصر المملوكي كان يُقامُ احتفال مهيب بميلادها من قبل السلطان في قلعة القاهرة.

وسببت مقولة النبي عن النساء التي وردت في أول هذا الفصل وزيجاته المتعددة استياءً واسعًا من اللاهوتيين وغير اللاهوتيين المسيحيين، مثلًا كقولهم "كيف يدّعي رجلٌ أنه نبي وينغمس في الملذات؟". حيث كانت البتولية المسيحية في ذلك الوقت متجذرة في الكنيسة، وكانت تعد ذلك تعارضًا قويًا ضد مبدأ البتولية. أما المسلم فلا يرى في هذا أي نقيصة، ولكنها بالأحرى سعادة بالحسيات التي تتجلى في خلق الله.

ومن أحد التفسيرات الهندوإسلامية لمقولات النبي، تلك التي تبناها الولي الكبير من دلهي نظام الدين أوليا[٦٦] أنه كان يعني بالنساء "عائشة"

---

٦٦ نظام الدين أوليا: (١٢٣٨ ـ ١٣٢٥م): صوفي هندي شهير من كبار الطريقة الشيشتية في شبه القارة الهندية، يعتبر أسلافه في الطريقة الشيشتية كلٌ من معين الدين شيشتي، بختيار كاكي، وفريد الدين جان شاكار. بالنسبة له كان حب البشرية هو الطريق إلى الله. تركت أفكاره وكتاباته أثرًا بعيدًا على مسلمي دلهي حتى اليوم. ارتكزت أفكاره الدينية للوصول إلى الله من خلال أفكار سابقيه مؤسسي الطريقة الشيشتية وتنحصر في الثقة بالله، الاتحاد مع البشر، مساعدة المحتاجين، الرفض التام لمخالطة الأمراء والسلاطين، رفض التوصية فيما يخص كل أشكال السياسة والقمع الاجتماعي، ولعب "السماع" الموسيقي دورا هاما في تلك الطريقة، ربما تأثرا بالثقافة الهندوسية، وأسس أحد تلامذته وهو أمير خوسرو موسيقى "القوالي". يخلد ذكراه أيضًا في قصة وفاته حيث صمم السلطان قطب الدين مبارك شاه على دعوة كل رجال دلهي أسبوعيا في مجلس أدبي إلا أن نظام الدين لم يحضر أيا من تلك الجلسات السلطانية. وبعث السلطان قطب الدين برسالة يدعوه فيها وإلا سيُعدم إذا لم يأت، فتجاهل نظام الدين الرسالة وخشي طلابه ومريدوه على حياته. فذهب إلى قبر والدته وعاد مضطربا،

وبـ "قرة عينه" فاطمة، والتي كان يعنيها بالصلاة إلا أنها تبدو بعيدة عن المعنى المقصود، لذلك من الأوْلى تبني تفسير ابن عربي أن النبي لم يحب النساء لأسباب طبيعية، كلا، لكنه أحبهن لأن الله خلقهن محبات له. ومن المهم ربط العلاقة بين الطِّيب والنساء، الذي دومًا ما يُفسر بالأنوثة من ناحية أو بالقداسة من ناحية أخرى. فهو المصطلح العربي المذكر الوحيد الذي ذكره النبي مع مصطلحين مؤنثين النساء والصلاة. والتي تظل دوما عند الصوفية أسلوب تعبير عن علاقة غامضة تستحق التأمل.

---

وأخبر تلامذته بالانصراف، وفي اليوم التالي أتى تلامذته فوجدوه هادئا ومن ثم سمعوا بأخبار انقلاب في البلاط الملكي أطاح بالسلطان قطب الدين.

## الفصل الثاني

# النساء في التصوف

نستعرض في هذا الفصل وضع النساء الذي ساء في نواحٍ كثيرة منذ عصر النبي، إلا أنهن لعبن في التصوف دورا محوريا. بدأ تطوُر التصوف أو "الروحانية الإسلامية" بعد ما يقرب من مائة عام من وفاة النبي في مفتتح القرن الثامن، وبدأ كحركة زهد خالصة، كرد فعلٍ على دنيوية المسلمين ولتذكيرهم بواجباتهم الدينيّة. حيث كانت الإمبراطورية الإسلامية آنذاك في اتساع، ففي عام ٧١١م عبر المسلمون مضيق جبل طارق، وفي نفس العام وصلوا إلى وادي السند وهو ما يعرف حاليًا بجنوب باكستان، كما عبروا منطقة أوكسوس[67] في آسيا الوسطى.

أما عن الزهاد فكان مقصد غزواتهم هو مملكة الروح والقلب. وفي تلك المرحلة لعبتْ امرأةٌ دورًا هامًا. ألا وهي رابعة العدوية، التي عُرفت برابعة البصرة حيث مسقط رأسها، والتي تُعد بحق أول الزهاد في الإسلام، فانتقلت بالتصوف من الزهد القاتم إلى آفاقِ الحب الصوفي.

---

67 نهر أكسوس هو نهر جيحون بالعربية: في جبل بامير بآسيا الوسطى يفصل بين أفغانستان وطاجكستان وأوزبكستان، عبره الفاتح مسلم ابن قتيبة.

وأصبح من المعروف قصتها الشهيرة عندما كانت تجوب البصرة حاملةً إناء الماء في يد ومشعلَ نارٍ في اليد أخرى، ولما سُئلتْ عما تقصده أجابت: "أريدُ أن أطفئ جهنّم بالماء، وأشعل النار في الجنة، حتى يختفي حجابهم وليعبد اللهَ الناسُ لا خوفًا من جحيمه و لا طمعًا في جنته ولكن ليعبدوه وحده فقط من أجل جماله الأبدي". هذه الحادثة وجدتْ طريقها إلى العالم المسيحي. وكان مَن أحضرها إلى الغرب Joinville نائب لويس التاسع[٦٨] لتظهر في كتابات كاموس الكاتيست Quietisten[٦٩] Camusفي كتابه الصادرعام ١٦٤٠م بعنوان Charité ou la vraie charitée "الخير أم الخير الحقيقي" ويقص فيه تلك الحادثة، فالإشارات في كتابه تتحدث عن امرأة شرقية تحمل شعلة وإناءً، على جلدها تسطع شمسٌ ووشم عبري باسم "يهوه"، وهو ما يشير إلى الأصل الشرقي للقصة وليس الإسلامي. .وفيما بعد ظهرت رابعة في مواضع عديدة من الأدب الأوروبي.

ونُسج حول رابعة البصرية الأَمَة المعتوقة ما لا يعد من النوادر. ويبدو أن البصرة في البداية كانت موطنا لكثيرٍ من الزهاد. وكثيرا ما يرد

---

٦٨ لويس التاسع (١٢١٤ ـ ١٢٧٠م): ملك فرنسا يعرف أيضًا بالقديس لويس، قاد الحملة الصليبية السابعة ١٢٤٨م وكانت وجهته الأولى دمياط، وأسر في المواجهات بالمنصورة عام ١٢٥٠م في دار ابن لقمان الشهيرة.

٦٩ Quietisten: هي طائفة مسيحية كاثوليكية ظهرت في فرنسا وإيطاليا وأسبانيا من ١٦٧٠ حتى ١٦٨٠م وحرمتها الكنيسة ووصفتها بالهرطقة وذلك لاعتمادها على الممارسات التأملية والهدوء الفكري أكثر من الصلوات المنطوقة، وذلك من خلال النمو الروحي والاتحاد مع الله.

ذكرُ العالمِ والداعية الحسن البصري[70] المتوفى عام ٧٢٨م في القصص مع رابعة، حيث أفردت سير الأولياء الكبرى في العالم الإسلامي الفصول الطويلة لها. فكمالها البشري قد تجاوز العديد من الرجال لذلك سُميت بـ "بتاج الرجال" كما ورد في كتاب محمد الزهني عن "مشاهير النساء". وحتى اليوم يمكن أن يطلق على أي امرأة زاهدة برابعة الثانية.

ونُسبتْ إلى رابعة الكثير من الكرامات، منها أن أصابعها كانت تنير ليلًا كمصابيح، وأن الكعبة أتت إليها سعيًا أثناء أدائها لفريضة الحج، وهو ما أثار بديهيًا غضب أحد الصوفية. رفضت رابعة كل أشكال الروابط الدنيوية مثل الزواج وحلّقتْ في السماء على سجادة الصلاة الخاصة بها. وفي أحد أيام الربيع الجميلة، ظلت رابعة في صومعتها وعندما ألحتْ عليها الخادمةُ بالخروج لرؤية جمال خلق الله الأخاذ في الحدائق، أجابتْ أن جمال الله في الباطن (الداخل)، وما الجمال الظاهر إلا انعكاسٌ للجمال الباطني وهو ما أشار إليه الرومي في إحدى قصصه عن زاهد مجهول في المثنوي الجزء الرابع بيت ١٥١٨. ويضاف إليه أيضًا ما ذكرهُ العطار[71] في إلهي نامه[72] الجزء ال٢٢ عندما تحدث عن نور الله:

---

٧٠ هو الحسن بن يسار البصري (٦٤٢ ـ ٧٢٨م) من الرعيل الأول للتصوف والأقرب لبيت النبوة حيث خدمت والدته زوج النبي أم سلمة، وعاصر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. كان من أعلم أهل البصرة، تعد خطبه علامة بارزة بين بقية أعمال العلماء للأسف لم يبق منها إلا شذرات وتُعد مثلا جيدا على النثر العربي.

٧١ سبق ذكره

٧٢ أحد أشهر أعمال العطار يتكون من ٦٥٠٠ بيت يتشابه مع منطق الطير في الشكل والمحتوى، يسرد حكايته فيه من خلال قصة الملك الذي أنهكته طلبات أولاده الستة الدنيوية والمادية. يحاول الملك أن يصرف انتباههم عن تلك المطالب بقص قصصا وأخبارا عن الروحانيات.

"عندما يشرق نور الله على امرأةٍ مسنّة يجعلها اللهُ من الكبيرات مثل رابعة"

وذكر العطار أيضًا في نفس الملحمة بالفصل الخامس عشر فقرها وظهوراتها الدينية :

"قالوا إن رابعة الولية لم تجد ما تقتات به منذ أسبوع، أبدًا لم تجلس خلال هذا الأسبوع، لم يكن لها إلا الصومُ والصلاة إلى أن أوهن الجوعُ قدميها وخارت أعضاؤها، فأتتْ إليها جارتُها الورعة بإناء الطعام، وهنا اعترى رابعةَ الألمُ والهمُ، حتى تحضرَ قنديلا للغرفة، وبينما كانت تحضر رابعةُ القنديل ألقتْ قطتُها بالإناء أرضًا، فنهضتْ مرة أخرى لتحضر قلة الماء لتكسر صيامها، إلا أن الإناء سقط من يديها وظلت على عطشها. وهنا انفجرت في نُواح يقطّع نياط القلوب، كما لو كان العالم يحترقُ ونادتْ ربها مئات المرات مناجِية: "يا إلهي ماذا تريد من تلك الأمَة الضعيفة؟ لقد ألقيتَ بي في حيرة عميقة، إلى متى تتركني أتعثر في الدم؟ وهنا أتاها الرد: لو أردتُ هذا لأرسلتُ إليك توًا الدنيا بأسرها، ولجنبتُك الألم الذي احتملته طويلًا وهو حب الدنيا، وآلام العشق التي احتملتهاَ لأجلي، فالاثنانَ لا يجتمعان في القلب. فإذا أردت أن تحملي آلام العاشق، عليك أن تتركي العالم دومًا. فإذا ملكت واحدًا ذهب الآخر. إلا أن آلام حبَ الله لا تضيع هباءً".

وهذا كان تأكيدها الدائم على تباريح العشق والآلام التي حكى عنها الولي الهندي الشيشتي قطب الدين بختيار كاكي[٧٣] عام ١٢٣٥م: "أنه عندما اعترتْها آلام التجليات الدينية كانت تبتهج وتقول " اليوم قد ذكرني خلي" وعندما كانت لا تزورها تلك الآلام كانت تبكي قائلة: ماذا أذنبتُ كي لا تذكرني؟ " .

إلا أن رابعة لم تكن الزاهدة الوحيدة التي وهبتْ نفسها إلى عشق الله. فهناك أم حرام[٧٤] إحدى قريبات النبي والتي شاركتْ بحماس محموم في أوائل المعارك ضد قبرص وهناك نالت الشهادة في إحدى معارك الجهاد عام ٢٧ هجريًا ٦٤٩ ميلاديًا.

ويحتوي كل كتاب عن الصوفية قائمة طالت كانت أم قصُرتْ عن باكورات الزاهدات ممن قضوا يومهن بين البكاء والصوم، وليلهن في الصلاة. ولقد جمعت Margret Smith سلسلة من الشخصيات الهامة في أوائل القرون الهجرية في عملها " رابعة المتصوفة ومن تلاها من الأولياء

---

٧٣ قطب الدين بختيار كاكي (١١٧٣ ـ ١٢٣٥م): من كبار متصوفة أهل الهند من الطريقة الشيشتية في دلهي كرست له "قطب منار" في الهند وكان تأثيره كبيرا على التصوف في الهند في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، اعتاد الهندوس والمسيحيون والسيخ زيارة داره كل أسبوع لنيل كراماته وفي أثناء كفاح غاندي للاستقلال عن التاج البريطاني تعرضت المئذنة المكرسة لقطب الدين بختيار للتدمير فما كان منه أثناء فترة إضرابه عن الطعام إلا أن أمر السيخ والهندوس بالتكفير عن العنف الذي وقع بين الطوائف الدينية بإصلاح المئذنة.

٧٤ هي الصحابية أم حرام بنت ملحان: تعرف أيضا بشهيدة البحر أو راكبة البحر، حيث إنها في عصر عثمان ابن عفان ركبت البحر إلا أنها سقطت عن دابتها وصُرعت حين خرجت من البحر، ودفنت حيث ماتت وبُني مسجد عليها هو مسجد لارنكا الكبير ويعرف باسم "قبر المرأة الصالحة".

في الإسلام". ونرى بينهن شريكات لرابعة مثل مريم البصرية[٧٥] التي توفيت في زهدها. وأهدتْ إليها الشاعرة التركية المعاصرة لها لالا مولدور Lale Muelduer[٧٦] شعرا رقيقا:

"قد كانت مريم البصرية خادمة رابعة، ما إن عرفت الحب الإلهي حتى سقطت فيه خائرة قواها، وفي إحدى حلقات الذكر توفيت فجأة من الحب، فلله إماء كالمطر إن تساقط على الأرض نما الحب، وإن تساقط في البحر أضحى لؤلؤًا"

كذلك تعرف بحرية الموصلية[٧٧] التي بكت إلى أن أضحت كفيفة فقالت: إن العمى الظاهر يُجلي بصر عشاق الله، أو يجعلهم أفضل رؤية. وكما يُقال فإن العين لا تقف حجابًا بين الرائي والمرئي. ولدينا أيضًا ريحانة الوالهة[٧٨] التي عاشت في زهد دائم وأخريات منهن آثروا

---

٧٥ من أهل البصرة في أيام رابعة، وعاشت بعدها وكانت تصحبها وتخدمها وكانت تتكلم في المحبة فإذا سمعت بعلوم المحبة طاشت. وقيل إنها حضرت في مجالس بعض الواعظين فتكلم في المحبة فانشقت مرارتها فماتت في المجلس. كانت مريم البصرية المتعبدة تقوم من أول الليل قائلة: الله لطيف بعباده. ثم لم نجز به حتى أصبحت. وقالت مريم: ما اهتممت بالرزق ولا تعبت في طلبه منذ سمعت الله عز وجل يقول (وفي السماء رزقكم وما توعدون).

٧٦ لالا مولدور: شاعرة وكاتبة تركية ولدت عام ١٩٥٦م من أهم الشعراء الأتراك في نصف القرن الأخير، درست في فرنسا وإنجلترا، ترجمت بعض أشعارها إلى الإنجليزية وبعض إلى الفرنسية.

٧٧ ربما تقصد "بحرية" أي راكبة البحر والتي عرفت أيضا بالعابدة: إلا أنها كانت من عارفات البصريين، كانت تقول "إذا ترك القلب الشهوات ألف العلم واتبعه واحتمل كل ما يرد عليه". كانت تبكي وتقول: "تركتك وأنا رطبة وأتيتكَ وأنا حشفة فاقبل الحشفة على ما كان منها".

٧٨ من متعبدات البصرة كانت في أيام صالح المري، وكانت قد كتبت من وراء جيبها:

الاختباء في بيوت مشبوهة، حيث يكون حبهن هناك متدفقا، ويتجاهلن بذلك الصيغة الظاهرة للفروض. كما وجد العديد ممن يطلق عليهن "عاشقات الله"، وهن سيدات ورعات مجهولات، ورد ذكرهن كثيراً في الأدب، البعض منهن تغنى بأغان قصيرة كما فعلت رابعة، فهن لم يتركن مقطوعات فنية لكنهن قدمن باكورات نماذج الشعر الصوفي الإلهي الذي أضحى في القرون التالية إحدى العلامات الهامة للمتصوفة العاشقين.

"هو الحبيب الذي لا يعادله حبيبا
هو وحده من خطف قلبي
هو الغائب عن نظري وجسدي
إلا أنه لم يغب دوما عن قلبي"

كذلك تغنت رابعة الشامية السورية[٧٩]. وهناك مثل آخر ذكره جامي[٨٠]:

---

"أنت أنسي وهمتي وسروري أبى القلب أن يحب سواكا
يا عزيزي وهمتي ومرادي طال شوقي متى يكون لقاكا
ليس سؤلي من الجنان نعيم غير أني أريد أن ألقاكا"

٧٩ عابدة أخرى مشهورة، أصغر من العدوية، وقد تدخل حكايات هذه في حكايات تلك، والثانية هي القائلة ما روى أحمد بن الحواري عن عباس بن الوليد أنها قالت: أستغفر الله من قلة صدقي في قولي رابعة الشامية هي زوجة أحمد بن أبي الحواري، وفضيلة وكرامة هذه المرأة لم تكن قابلة للإنكار، كان زوجها يقول: عندما نفرش مائدة الطعام، كانت رابعة تقول لي: كل فإنها ما نضجت إلا بالتسبيح. ( ما المقصود من هذه الجملة ؟ هل المقصود أنها كانت تسبح أثناء الطبخ - مثل الكلام الذي ورد بشأن بعض مراجع التقليد، بأن أمه كانت تقول: لم أرضعه الحليب إلا باسم الله - أي أنني كنت أقول سبحان الله أثناء طبخ الطعام)

"من أحب الله يضحي مريضًا في هذه الدنيا
ومن يتحمل آلامه تصبح آلامه دواءً له
ومن أحب الخالق الأكبر حقا
يضل في الدنيا فكره ويراه"

وربما تكون مؤلفة تلك الأبيات على معرفة مع أحد أبيات أمة الجليل[٨١] الغير معروفة التي قالت:

"لا تمر طرفة عين ينشغل فيها الولي بغير الله، ومن ينشغل بغير الله يكون كاذبًا".

ومن الشخصيات الهامة في باكورات التصوف هي شعوانة[٨٢] التي اشتهرت بكثرة بكائها. وكذلك الزاهد الكبير الفضيل بن عياد[٨٣] المتوفى عام ٨٠٣م والذي طلب منها الصلاة لأجله. وكذلك أمينة الرملية[٨٤] التي

---

٨٠ جامي سبق ذكره

٨١ ربما ما تقصده شمل هي "أمة الله الجبلية" التي ورد ذكرها في السُلمي، كانت قريتها على فرسخ من بسطام، وكانت صاحبة فراسات وآيات وكرامات، سمعت علي بن محمد يقول سمعت أبا عمران يقول: سمعت أبا يزيد يقول: كانت همتي في عبد الله فظهرت لي امرأته.

٨٢ كانت أمة سوداء كثيرة العبادة رُويت عنها كلمات حسان وقد سألها الفضل بن عياض الدعاء فقالت أما بينك وبينه ما إن دعوته استجاب لك فشهق الفضيل، ووقع مغشيا عليه. كانت تبكي في الليل والنهار فخافوا عليها العمى من كثرة بكائها، وكلموها في ذلك. فقالت: أعمى والله في الدنيا من البكاء، أحب إلي من أن أعمى في الآخرة من النار.

٨٣ أحد أشهر متصوفة القرن الثاني الهجري لقب ب"عابد الحرمين" توفي عام ٨٠٣م كره التجمعات الكبيرة ونأى بنفسه عن الحياة العادية ووافته المنية وهو في صلاته.

٨٤ تقصد الكاتبة آمنة الرملية: عابدة زاهدة من عابدات القرن الثالث للهجرة، كان يزورها العباد والزهاد في زمانها، دخل عليها بعض العابدين يسألونها الدعاء، فقالت لهم: لو أن

ترجّى منها الشفاعة كلٌ من الزاهد المتصوف بشر "الحافي"[85] المتوفى عام ٨٤١م، والفقيه الكبير أحمد بن حنبل المتوفى عام ٨٥٥م، وعلما أنهما قد نجيا من النار بفضل شفاعتها. وحكى الغزالي[86] عن شعوانة أنها ظهرت له في أحد المنامات مكرَّمَة من سكان الجنة وأسدت نصيحة لصاحب الرؤية مفادها "فليكن قلبك دومًا حزينًا ودع حب الله يتقدمْ على شهواتك، فلا يضرك شيء حتى الممات".

ويعد التفكر في الموت والحياة الآخرة من العلامات الهامة للمتصوفة المبكرين، فمعاذة[87] إحدى البصريات التي حرمتْ نفسها من النوم قدر الإمكان، فلطالما أرّق فكرَها نومُ القبر الطويل.

---

الخاطبين خرسوا، ما تكلمت عجوزكم من البكم ولكن الدعاء سنة، ثم قالت: جعل الله قراكم من الجنة، وجعل ذكر الموت بيني وبينكم على بال، وحفظ علينا الإيمان وهو أرحم الراحمين"

اعتل بشر بن الحارث، فعادته آمنة من الرملة. وبينما هي عنده إذ دخل الإمام أحمد بن حنبل يعوده، فلما عرف الإمام بوجود آمنة عنده طلب من بشر بن الحارث أن يسألها الدعاء، فقالت آمنة: اللهم إن بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل يستجيرانك من النار فأجرهما.

٨٥ هو بشر ابن الحارث ابن عبد الرحمن ابن عطاء ابن هلال ابن ماهان ابن عبد الله المروزي أبو نصر، المعروف بالحافي (١٥٢ ـ ٢٢٧ هجريا): لقب بالحافي لرفضه ارتداء النعال علامة على الزهد، كان من أشهر متصوفة بغداد في القرن الثالث الميلادي.

٨٦ هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (١٠٥٨ ـ ١١١١م) عرف باسم "حجة الإسلام" لاهوتي ومتصوف وفيلسوف فارسي له إسهامات كبيرة في علم الكلام والتصوف والفقه والمنطق، وُلد في طوس وارتحل إلى بغداد للدراسة، ثم اعتكف أربعة أعوام تفرغ بها للرياضات الروحية والتصوف ليكتب بعدها عمله الأشهر "إحياء علوم الدين"، عرف عنه الجدل المحتدم بينه وبين ابن رشد وأتباع الفلسفة اليونانية وسطر جدله في "تهافت الفلاسفة".

٨٧ هي معاذة بنت عبد الله، أم الصهباء، العدوية العالمة البصرية العابدة الزاهدة صاحبة المحبة الراقية والشوق المتزايد زوجة التابعي الجليل صلة بن أشيم. كانت تلميذة لعائشة رضي الله عنها، روت عنها الحديث كما روت عن علي ابن أبي طالب وهشام بن عامر. استشهد زوجها

ولقد بلغت تلك السيدات الورعات مكانة كبيرة في التصوف. فإحدى مريدات المتصوف البغدادي سريّ السقطي[88] المتوفى عام ٨٦٧م أخبرها أن ولدها قد مات غرقًا إلا أنها لم تصدق مرشدها ووجد ابنها بالفعل حيًا فهي لم تصلها أي أخبارعن موت ابنها من "اللامرئي" و"حيثما يطع المرءُ الله، يمتلكْ معرفة كليةً عما يخصه".

وتظهر هذه القصة القصيرة أنه لم تتبع كل المتصوفات نموذجَ رابعة في البقاء دون زواج. ومن ضمن شخصيات المتصوفات المتزوجات فاطمة النيسابورية[89] المتوفاة عام ٨٤٩م وكانت تصغر رابعة بربع قرن. وقد كان زوجها الزاهد المعروف أحمد خيضرويه[90] وهي من قادته في بعض الأحيان

---

وابنها في إحدى الحروب، مر عشرون عاماً على وفاة زوجها وفي كل يوم يمر كانت معاذة تستعد للموت وتأمل أن يجمعها الله بزوجها وابنها في مستقر رحمته، وقد روي أنه لما احتضرت معاذة العدوية بكت ثم ضحكت. فقيل لها: مم بكيت ثم ضحكت فمم البكاء ومم الضحك؟ قالت: أما البكاء الذي رأيتم فإني ذكرت مفارقة الصيام والصلاة والذكر فكان البكاء لذلك، وأما الذي رأيتم من تبسمي وضحكي فإني نظرت إلى أبي الصهباء قد أقبل في صحن الدار. وعليه حلتان خضراوان وهو في نفر، والله ما رأيت لهم في الدنيا شبها فضحكت إليه ولا أراني أدرك بعد ذلك فرضا. فماتت قبل أن يدخل وقت الصلاة.

٨٨ أبو الحسن سري بن المغلس السقطي: من أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري ببغداد، وكان تلميذ معروف الكرخي، أول من تكلم عن التوحيد وحقائق الأحوال، من أقواله "من استعمل التسويف طالت حسرته يوم القيامة"، "من خاف الله خافه كل شيء"، "الأدب ترجمان العقل".

٨٩ هي إحدى أكبر زاهدات خراسان، قد ذكرها ذو النون المصري ب "أستاذتي"، كما أثنى عليها أبو يزيد البسطامي وقال عنها "مَا رَأَيت فِي عمري إِلَّا رجلا وَامْرَأَة فالمرأة كَانَت فَاطِمَة النيسابورية مَا أخبرتهَا عَن مقَام من المقامات إِلَّا وَكَانَ الْخَبَر لَهَا عيَانًا".

٩٠ هو أبو أحمد بن خضرويه البلخي: من أعلام التصوف السني في القرن الثالث من خراسان، من أقواله "الطريق واضح، والحق واضح، والداعي قد أسمع، فما التحير بعد هذا إلا من العمى".

على طريق التصوف. كما تذكر الروايات أنها كانت على صلة بكبار متصوفة عصرها، وتراسلت مع المتصوف ذي النون المصري[٩١] المتوفى عام ٨٥٩م. فأرسلت له منحة ردها إليها لأنها من سيدة، فوبخته على أخذه بالأسباب الثانوية وعدم رؤيته للعاطي الحقيقي وهو الله.

ويقال أيضًا إنها أثارت إعجاب ذي النون لفهمها العميق للقرآن، ففي حكايات ذي النون تظهر امرأة مجهولة، أو فتاة امتلأ قلبها بحب الله قد تعلم منها أن يزيد في مدح الله في كل مكان بالطبيعة. وتجادلت فاطمة الذكية أيضًا مع أبي يزيد البسطامي المتوفى عام ٨٧٤م حيث لم تكن مستورة، ولاحظ في ذات المرات جمالها، أو كما تشير بعض الروايات شاهد يدها المحنّاة، فقطع علاقته معها حيث أن علاقته الروحية بها لم تعد ممكنة. إلا أنه يصعب تأكيد صحة تلك الرواية. حيث لعبت تيمة الصداقة الروحية التي تفسد بين الشريك أو الشريكة بسبب نظرة دنيوية دورًا هامًا متكررًا في سير الأولياء.

وفي ذلك السياق نرى أيضًا ما يستحق ذكره عن الأرملة رابعة بنت إسماعيل[٩٢] زوجة المتصوف أحمد بن أبي الحواري[٩٣] المتوفى عام ٨٥١م

---

٩١ هو المتصوف المصري المكنى ب"أبو الفيض" ولد في إخميم عام ٧٩٦ وتوفي عام ٨٥٩م في الجيزة: لُقب بذي النون أسوة بالنبي يونس عليه السلام، وهو ما يعني الحوت في اللغة الآرامية، لقبه أتباعه من غير المصريين ب"مصري"، اعتمدت فلسفته على "معرفة الله" وليست "مخافة الله" كما ينسب له معرفة اللغة المصرية القديمة ورموزها الهيروغوليفة، والتي وظفها في شعره الصوفي.

٩٢ كان نسبها أبو بكر بن أبي الدنيا. قال أحمد بن أبي حوار زوجها: قلت لرابعة وقد قامت بليل: قد رأينا أبا سليمان وتعبدنا معه وما رأينا من يقوم أول الليل. فقالت: سبحان الله مثلك من يتكلم بهذا؟ إنما أقوم إذا نوديت قال: وجلست آكل وجعلت تذكرني فقلت لها "دعينا

أرادت أن تستفيد بميراثها ومالها الذي جمعته بيدها وعرضت نفسها للزواج من ذلك الصوفي، والذي كانت له كزوجة يوسف. حيث قضت وقتها بين الصوم والصلاة واهتمت بأحمد وزوجاته الأخريات لأنها كما أوضحت له: "أنا لا أحبك كزوج ولكني أحببتُك كأخ". وعن زوجة رباح القيسي[٩٤] أيضًا أخبرنا أنها ارتدت ثيابًا جميلة بعد أدائها صلاة العشاء وسألت زوجها إن كان يرغب فيها أو إن لم يكن يرغب، ووهبت نفسها للصلاة حتى الصباح. ومن الوارد أن يرى أحد الورعين "زوجة المستقبل في الجنة" كما حدث مع عبد الواحد ابن زيد[٩٥] المتوفى عام ٧٩٤م حيث أعجبته إحدى الشابات ثم رأى إحدى الراعيات ترعى تحت حمايتها الذئاب والحملان في سلام، فأدرك أنها له بلا شك. طبقا لتفسيرنا

---

يهنينا طعامنا، فقالت: ليس أنا وأنت ممن يتنغص عليه الطعام عند ذكر الآخرة. وسمعتها تقول في حال الخوف: وزادي قليل ما أراه مبلغي ألزاد أبكي أم لطول مسافتي؟
أتحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجائي فيك؟ أين مخافتي؟. كان لها سبعة آلاف درهم أنفقتها علي وقالت لي لست أستحل أن أمنعك نفسي وغيري، اذهب فتزوج قال: فتزوجت ثلاثا وكانت تطعمني اللحم وتقول اذهب بقوتك إلى أهلك، وكنت إذا أردت جماعها نهارا قالت: أسألك بالله لا تفطرني اليوم، وإذا أردتها بالليل قالت: أسألك بالله لما وهبتني لله الليلة.

٩٣ أبو الحسن أحمد بن أبي الحواري: (١٦٤ ـ ٢٢٣هجرية) من أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري سكن دمشق إلا أن مولده بالكوفة، وصفه الإمام الجنيد بأنه "ريحانة الشام"، من أقواله "ما ابتلى الله عبدا بشيء أشد من الغفلة والقسوة"، "ليس بالطاعة سعدوا، ولكن بالسعادة أطاعوا، وليس بالمعصية شقوا، ولكن بالشقاوة عصوا".

٩٤ هو رباح القيسي المكنى بأبي المهاصر وهو من قديم الصحابة اختلفت المصادر في اسمه إلا أنه حضر غزوة خيبر.

٩٥ هو عبد الواحد ابن زيد أبو عبيدة البصري توفي عام ١٧٧ هجريا من تلامذة الحسن البصري، كان من زهاد عصره، وكان ممن بنوا خانقاوات للصوفية وكان من أتباع الصحابي السابق ذكره رباح القيسي.

نحن لتلك الواقعة؛ من خلال ورعها في الدنيا حققت السلام الأخروي بين الحيوانات.

ولقد عشتُ شخصيًا في إحدى المرات كيف حكت إحدى السيدات المسنات فجأة إلى عالِم تركي ورع عروسه في الجنة..

ولعل من أهم الشخصيات في ذلك السياق هي زوجة الثيوصوفي الكبير الحكيم الترمذي[٩٦] المتوفى عام ٩٣٦م. والذي اعتاد إخبارها أحلامه كما ورد في سيرته، لأنها كانت قادرة على إرشاده إلى الفهم الصحيح لأحلامه ورؤاه. كما أخبرها مَلَك أنها هي وزوجها قد بلغا نفس المستوى الروحي.

ومن إحدى التيمات المتكررة في الأدب العربي، والتي طورتها فيما بعد الآداب الفارسية، هي قصص المغنيات اللاتي أثرن بأغانيهن الحب الصوفي. وذُكر أن عالم النحو الأصمعي[٩٧] قد وبخ فتاة تغنت بالحب في الكعبة، إلا أنه تعلم منها الحب الإلهي الحق. وفي بعض الأحيان كانت تُعتق الإماء المغنيات (بالرغم من كونهن الأغلى ثمنا بين الإماء)، لقدرتهن على قراءة القرآن بقراءات مؤثرة محركة للقلوب. وحُكي عن

---

٩٦ أبو عبد الله محمد ابن محسن ابن علي ابن الحسين الترمذي: (٨٢٠ - ٩٣٠م) من أشهر متصوفة خراسان عنيت كتاباته بالعلاقة بين الله والكون والكمال الإنساني، ألفها جميعا باللغة العربية، وترك سيرة حياته في الطريق الصوفي وتعد الأولى من نوعها في ذلك الأدب. من أعماله "كتاب ختم الأولياء"، "الفرق بين الآيات والكرامات".

٩٧ هو عبد الملك ابن قريب ابن علي ابن أصمع الباهلي (٧٤٠ - ٨٣١م) أحد أئمة اللغة والشعر والبلدان.

مغنية أنها عادت إلى الإسلام الحق على يد أبي حفص عمر السهروردي[98] المتوفى ١٢٣٤م أثناء عودتها من رحلات الحج أثارت إعجاب حاكم همذان بغنائها البديع حتى ندم الحاكم والحاضرون على خطاياهم وعادوا إلى الإيمان القويم. بمعنى أخذ الإسلام مأخذ الجد. ومن إحدى القصص المعروفة في سيرة الرومي أن هناك "فتيات داعرات" قد عدن إلى الإسلام الصوفي بفضل تأثيره.

ويبدو أنه في باكورة العصور الإسلامية كانت هناك سيدات وليس فقط مريدات لدى كبار المتصوفة ممن ارتبط اسمهن بتلاوة القرآن والذكر. ومنهن فاطمة ابنة المتصوف الكتاني[99] المتوفى عام ٩٣٤م التي يُحكى أنها توفيت مع ثلاثة رجال آخرين من الوجد أثناء خطبة للزاهد سمنون[100] المحب المتوفى عام ٩٠٠م. ومن هنا نستنتج أن مشاركة

---

٩٨ هو شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردي: (١١٤٤ ـ ١٢٣٤م) من متصوفي القرن الرابع الهجري ساهم في نشر الطريقة الصوفية التي أسسها عمه أبو النجيب السهروردي، كان أعلم أهل عصره في علم الحقيقة وصاحب كتاب "عوارف المعارف".

٩٩ هو محمد ابن علي ابن جعفر الكتاني: أحد علماء أهل السنة والجماعة، ومن أعلام التصوف السني في القرن الرابع الهجري صحب الإمام الجنيد وابا سعيد الخراز، كان واعظا في بغداد وكثير الترحال، وأقام بمكة إلى أن تُوفي ودُفن فيها ومن أقواله "الشهوة من زمام الشيطان، فمن أخذ بزمامه كان عبده".

١٠٠ هو سمنون بن حمزة الخواص: (٢٩٨هجريا ـ ٩١١م) كان لقبه "العاشق" إلا أنه لقب نفسه "بالكاذب" كي ينزه نفسه عن العجب، ويدل على تطلعه الدائم نحو نقاء الكلام، اشتُهر بعلو الكلام في الحب، اعتاد شعره أن يحدث اضطرابا بالعالم المادي وجالب للخطوب، عين مؤذنا لجامع بغداد مدينة السلام فكان يصدح بالأذان في أركان الكون الأربع وكانت الشهادة هي الحقيقة المطلقة بالنسبة له. كان من أفضل من عبر عن مفهوم "المحبة" المتبادلة بين الخلق والخالق. عاصر المتصوف الكبير الجنيد وربما أيضاً سري السقطي الذي أخبره "إن المحبة لا تكتمل إلا حين ينادي أحدهما الآخر قائلا: آه يا نفسي". يُنسب له

السيدات في مثل هذه التجمعات كان أمرا طبيعيا. إلا أن إجراء تكريس امرأة (أي أخذ العهد) من قبل مرشد الطريقة استغرق وقتا طويلا في مناقشة الطريقة الشرعية الصحيحة لذلك الإجراء، فحسب القوانين المتشددة (الشريعة) لا يجوز لرجل أن يلمس جلد امرأة غير قريبته (وفي بعض المدارس الفقهية توجب الوضوء بعدها فيكون بذلك مجدداً لطهوره) فيحاول البعض مثلا أن يغطس يد المريدة في إناء الماء وبذلك يأخذ العهد منها أو تمسك المرأة بذراع قميصه أو بقطعة قماش أو بأي جزء من أردية الشيخ عندما تحلف يمين العهد. ويبدو أن ذلك الأمر في القرون الأولى مثله مثل أمور أخرى كان أكثر انفتاحا وتسامحا. فوردت الإشارة إلى بعض الصوفية ممن ظهروا مع المريدات في العلن. وكان الصوفي الشبلي[١٠١] الغريب الأطوار المتوفى عام ٩٤٥م دوما مع مريدة له، وزارا معًا الحلاج المصلوب وسألته "ما هو التصوف؟" وبالرغم من عدم صحة الواقعة التي ذكرها العطار تاريخيا، إلا أنها تدل على أن المتصوفات لعبن دورا بارزا في الحياة العامة. فظهرت شقيقة الحلاج[١٠٢] بعد إعدامه

---

إيضاح مفهومين في التصوف هما "الفقر" و"التصوف" عُرفت عنه بشاشته وسروره الدائم كما أخبرنا ابن عربي، فلقد كان غارقا مع الله كليا، من الجدير بالذكر أن آراءه عن "المحبة" أدت إلى سجنه ومحاكمته.

١٠١ هو الشيخ الزاهد أبو الحسن محمد بن إسماعيل أبو بكر الشبلي (٨٦١ ـ ٩٤٦م): شاعر ومتصوف بغدادي انتهج السياحة في أرض الله الواسعة حيث كانت إحدى المناهج الصوفية في الرياضات الروحية ربما تأثرا بالرهبان السواح في المسيحية الشرقية، لكي تصفو الروح، اعتاد الاختلاط بالمجانين والعيش في الصحراء حتى يميز ما بين الصوت الإلهي وصوت النفس البشرية.

١٠٢ هو أبو عبد الله حسين بن منصور الحلاج(٨٥٨ ـ ٩٢٢م) أصله من فارس إلا أنه نشأ في العراق يُسمى ب"شهيد الصوفية" حيث أُعدم في بغداد بقرار ظالم من القاضي محمد بن

تلومه بعد وفاته على أقواله الجريئة وغير المألوفة، وألقت برماده في نهر دجلة كما تمنى هو. إلا أنه في نفس الليلة ظهر لها أخوها الحلاج في أحد الأحلام وشرح لها سلوكه "الغيرأرثوذوكسي". (وعن دور الأخت في التراث الروحي الإسلامي توجد بعض التفاصيل الهامة التي يمكن سردها كما كان الحال فيما قبل الإسلام عندما اعتادت الأخت إنشاد شعر الرثاء في حالة موت الأخ، كما يجد المرء أيضًا أخوات في قصص التصوف احتللن مكانة هامة ولعل خير مثال هي الأميرة شاهنارا[103] التي أعدم أخاها وليُّ عهد البيت المغولي درا شيكو[104] كمهرطق).

واستمرت تقاليد المتصوفات الورعات حتى القرون التالية ليس فقط في الشرق الأوسط، ولكن أيضًا في جنوب شبه القارة الهندية ونعلم منهن

---

داود الذي رأى أنه شذ عن تعاليم الإسلام. كان صاحب همة عالية على تهذيب النفس، ارتحل بالمدن الكبيرة، واعتكف بمكة فترة، له أتباع في الهند وخراسان، كان مؤمنا بالجهاد ضد النفس والطغيان، وهو السبب الرئيسي في إعدامه كونه عارض سياسيا، وكتابه "طواسين الحلاج" عبارة عن رسالتين مختصرتين تضمان حوارا مع إبليس.

١٠٣ هي الأميرة ابنة الإمبراطور المغولي شاه جاهان (١٦١٤ ـ ١٦٨١): الابنة الكبرى لممتاز محل كانت السيدة الأولى في البلاط الملكي مع والدتها بالرغم من وجود ثلاث زوجات أخريات لأبيها، كانت مع أخيها دار شيكو تلاميذ لدى المولا شاه بكاداشي الذي أدخلها في الطريقة القادرية وحظيت بمكانة روحية عالية، وأراد أن يجعلها خليفته في الطريقة القادرية، كتبت "مؤنس الأرواح" جمعت به سيرة معين الدين شيشتو، و"رسالة صاحبية" جمعت بها سيرة حياة مولا شاه.

١٠٤ ابن وخليفة الملك المغولي الخامس شاه جاهان (١٦١٥ ـ ١٦٥٩): كان هو وأخته جاه ناهار بيجوم خلفاء أبيهم على العرش إلا أن أخاه الأصغر محي الدين هزمه في إحدى المعارك. عرف عنه عقليته المستنيرة ودعوته إلى التعايش بين أديان الهند المختلفة، واعتبر كشاعر متصوف مما جعله موضع شك من قبل إخوته الأرثوذوكسيين وكان له سبعة أساتذة "جورو" من السيخ، وعني بالتقريب بين التراث الروحي الهندوسي والإسلامي.

مريدات فريد الدين شاكارجندش[١٠٥]. (خطأ من ماري شمل في كتابة الاسم، والصحيح هو: فريد الدين شاكرتجند بكش المعرف ببابا فريد).

وعن عوينة جدة المتصوف أبي الخير التيناتي الأقطع[١٠٦] أشار عين القضاة في أدبه الدفاعي أنه كان لها ٥٠٠ مريد من الرجال والنساء، كما ورد في سيرة المتصوف الحنبلي عبد الله أنصاري من حيرات المتوفى عام ١٠٨٩م أن إحدى قريباته وتُدعى بيبي نازانين كانت تُسدي له النصح، وهي مَن جعلته على اتصال بالحكيم الصوفي الأمي الخرقاني[١٠٧] الذي اهتم بارتقائه الروحي فيما بعد.

---

١٠٥ هو حضرة خوجة فريد الدين مسعود كنج شكر: (١١٧٣ ـ ١٢٦٦) داعية ومتصوف كبيرعرف في منطقة البالجاب في جنوب آسيا وينتمي للطريقة الشيشنية، كان مرشده الصوفي قطب الدين بختيار كاكي، انتقل إلى دلهي لدراسة العلوم الإسلامية، والتقى بنظام الدين أولياء في طريقه إلى مدينة فريدكوت حيث أصبح أحد مريديه وخليفته من بعده. التقى به الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي وصفه بالمرشد الروحي لسطان الهند. في أول محرم من كل عام يتوجه الكثير بزيارة مقامه وإقامة مولد كبير يتم إحياؤه بموسيقى القوالي، أدخل المعلم السيخي جورو ناناكا شعار باب الفريد في كتاب السيخ المقدس ويعرف ب جورو جرانث صاحب.

١٠٦ هو أبو الخير الأقطع التيناتي: من أعلام التصوف السني في القرن الرابع الهجري، عاش بين ثغور الشام إلا أن أصله كان من المغرب سكن حلب وجبال لبنان مدة من الزمن. قال الأصفهاني: سمعت غير واحد ممن لقي أبا الخير يقول إن سبب قطع يده أنه كان قد عاهد الله ألا يتناول بشهوة نفسه شيئا مشتهياً، فرأى يوماً بجبل لكام شجرة زعرور فاستحسنها فقطع منها غصناً فتناول منها شيئاً من الزعرور، فذكر عهده فتركه، ثم كان يقول: قطعت غصنا فقُطع مني عضو. من أشهر أقواله "القُلُوب ظروف فَقلب مَمْلُوء إيمَانًا فعلامته الشّفَقَة على جَمِيع الْمُسلمين والاهتمام بِمَا يهمهم ومعاونتهم بِمَا يعود صَلَاحه إِلَيْهِم وقلب مَمْلُوء نفَاقًا فعلاَمته الحقد والغل والغشّ والحسد".

١٠٧ هو أبو الحسن الخرقاني (٩٦٣ ـ ١٠٣٣) من كبار متصوفة فارس ولد في شمال إيران، عرف عنه كونه فلاحًا أميا جهولا بالمسائل اللاهوتية المعقدة إلا أنه كان متصوفا كبيرا، لم يأخذ الطريق على يد أي شيخ إلا أن الكشف قد حدث له على يد روح أبي يزيد البسطامي الذي

وغير هؤلاء عُرف أيضًا في حيرات سيدات أخريات، عُرفن بالزهد والورع وتميزن بالتزام السلوك النبوي مثل السيدة المتوفاة في حيرات أم فضل الحمرائية توفيت عام ١٠٨٤م. كما ذكر الأب الفرنسي الدومينيكاني[١٠٨] Serge de Laugier de Beaureceuil عن "الوسط الأنثوي" الذي التزم بتقاليد النبي والمذهب الحنبلي والتصوف معًا على نهج عبد الله أنصاري، وهو ما يتفق مع ملاحظته عن وجود نساء على المذهب الحنبلي حاضرات في دائرة الشهيد المتصوف الحلاج وهنّ مَن روين عنه التعاليم فيما بعد مثل زينب الكمالية.

وبين تلك النساء المتميزات عند المحافظين كريمة من مرو المتوفاة عام ٤٦٣ هجريا ١٠٧٠ ميلاديا وكانت زاهدة لم تتزوج (بتولية) ويقصد بذلك ارتباطها "بالفتوة الأنثوية" التي أسستها خديجة الجهنية المتوفاة ٤٦١ هجريا ١٠٦٧ ميلاديا والتي يبدو أنها أُسست لتصبح مؤسسة موازية لرابطة الفتوة الرجولية، وهي رابطة هدفت إلى تمثيل الرجولة

---

ظهر له بعدما يقرب من قرن من وفاته، كما تقول الروايات توجه إلى بسطام حيث قبر أبي يزيد البسطامي وهناك أقام ليلة عاد بعدها إلى مدينة مولده ليؤم الناس في صلاة الفجر دون وضوء أي لم يتم ولم يتنجس بدنه. وظل على وضوئه منذ البارحة التقى في آخر عمره بالمتصوف عبد الله أنصاري الذي تأثر به بشدة وتواترت عنه الكرامات التي أوردها مولانا الرومي في مثنويه.

١٠٨ هو راهب فرنسي دومنيكاني: (١٩١٧ ـ ٢٠٠٥) درس اللغات الشرقية وعمل في دير الآباء الدومينيكان في القاهرة لفترة، كرس حياته للدراسات الصوفية، وتعلم الفارسية لفهم نصوص المتصوف الأفغاني عبد الله الحواري، وبعد عدة زيارات إلى كابول قرر البقاء فيها حيث عمل كأستاذ جامعي، وبعد اندلاع حرب الأفغان والسوفيت انتقل ما بين فرنسا وبلجيكا والقاهرة. من أعماله "تعليق على كتاب الدرجات لمحمود الفرقوي من القرن الرابع عشر"، "عبد الله الأنصاري الحواري"، كتاب عن تجربته في كابول بعنوان "كاهن غير المسيحيين"، "مسيحي في أفغانستان"، "لقد تقاسمنا الخبز والملح".

الحقيقية والحياة الشريفة مرتبطة ارتباطا عميقا بالعبادات. وكما كان التقليد دومًا ارتبطت كريمة بسلسلة هامة من سلسلة الأولياء المرتبطة بأبي نجيب السُهروردي المتوفى عام ١١٦٥، وبالتتابع مع عمل ابن أخيه أبي حفص عمر السُهروردي[١٠٩] الذي يعد من أكثر كتب التعليم انتشاراً عن كبار المتصوفة، والتي تُدرّس في كل أنحاء العالم الإسلامي. ومن بين السيدات المتعلمات الورعات شُهدة الكاتبة المتوفاة عام ١١٧٦ والتي عرفت كراوية أحاديث وخطاطة مشهورة، وذكر بعد ما يقرب من قرن ونيف ابنُ بطَوطة الرحالة الشمال أفريقي عالمات حديث في دمشق وبغداد، يقصد بذلك كلاً من أم محمد عائشة وفاطمةَ بنت تاجِ الدين.

وعُرف عددٌ من السيدات الورعات اللاتي وهبن حياتهن للتصوف أيضًا في تركيا بزمن السلاجقة، ويُعد السلوك المتحرر لجلال الدين الرومي مع سيدات الطبقة الراقية في قونيا مثل زوجة نائب الملك أمين الدين ميكال أمرًا معروفًا فضلاً عن قدرته على جذب النساء له من جميع الطبقات كما ورد في سيرته. ويُحكى أن زوجة الحاكم السلجوقي جيات الدين اعتادت أن تحمل صورة لجلال الدين معها. (ويُلاحظ هنا مدى التقارب بين تقاليد الفن البيزنطي والأيقونات الإسلامية). وكيف مُدحت الزوجة الثانية لجلال الدين الرومي كيرا سليلة إحدى الأسر "المسيحية"[١١٠] بكونها رابعة الثانية أو مريم. وكانت بعض السيدات

---

١٠٩ هو شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردي: (١١٤٤ ـ ١٢٣٤) من متصوفي القرن الرابع الهجري ساهم في نشر الطريقة الصوفية التي أسسها عمه أبو النجيب السهروردي، كان أعلم أهل عصره في علم الحقيقة وصاحب كتاب "عوارف المعارف".

١١٠ لمعرفة المزيد عن حياة مولانا جلال الدين الرومي ينصح بقراءة "الشمس المنتصرة" لنفس الكاتبة آنا ماري شمل. ترجمة "عيسى الكاعوب".

فاعلات في انتشار الطريقة الصوفية التي أسسها ولده سلطان ولد المتوفى عام ١٣١٢ ، وعرفت بالمولوية، بعض من هؤلاء السيدات كانوا بناتها بالفعل. وتُعرف المريدة بالوسط التركي في الطريقة الصوفية باسم (باجي) ويعني الأخت كما نص القرآن في سورة الحجرات آية ١٠ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .

إلا أن موقف ابن عربي من المرأة يُعد الأهم في ذلك المجال، فذكرياته عن زاهدات مدينة سفيلا Sevilla[١١١] الكبيرات التي قابلهن أثناء صباه زاخرة بالتفاصيل الحية.

تأتي في مستهلهن فاطمة بنت المُثنى[١١٢] التي عاشت في فقر مدقع، وكانت متزوجة لفترة طويلة حتى تُوفي زوجها بالجذام. فكتب عنها

١١١ أي إشبيلية باللغة العربية عاصمة منطقة أندلوسيا ومقاطعة إشبيلية.

١١٢ هي فاطمة بنت الحسن المثنى: هي الأم الروحية لمحي الدين ابن عربي "عذراء، هيفاء، تقيد النظر من العابدات السائحات الزاهدات، شيخة الحرمين إن أسهبت أتعبت وإن أوجزت أعجزت وإن أفصحت أوضحت، شمس بين العلماء، بستان بين الأدباء، علمها عملها، عليها مسحة ملك وهمة ملك". هكذا يصف محيي الدين ابن عربي في كتاب "الفتوحات المكية" فاطمة بنت المثنى. التي التقى بها في مكة وخدمها سنين وكان عمرها أثناء ملازمته لها ٩٥عاما .ويتناول ابن عربي حياتها بالتفصيل لأنه عاصرها فترة حياتها. أعطاني حبيبي فاتحة الكتاب اسمها فاطمة بنت المثنى، ولقبها القرطبية لأنها ولدت وترعرعت في إشبيلية بإسبانيا (الأندلس). ويقول ابن عربي عن فترة خدمته لها "خدمت أنا بنفسي امرأة من المحبات العارفات بإشبيلية. خدمتها سنين وهي تزيد في وقت خدمتي إياها مدة خمس وتسعين سنة وكنت أستحي أن أنظر إلي وجهها وهي في هذه السن من حمرة خديها وحسن نعمتها وجمالها تسميها بنت أربع عشرة سنة من نعمتها ولطافتها. وكان لها حال مع الله وكانت تؤثر على من يخدمها من أمثالي، وتقول: ما رأيت مثل فلان إذا دخل علي دخل بكله ولا يترك منه خارجا عندي شيئا وإذا خرج من عندي خرج بكله لا يترك عندي منه شيئا. ويروي ابن عربي عن كراماتها قائلا: كانت فاطمة القرطبية تقول لي: يا ولدي ما تقول فيما أقول، ثم أقول: يا أمي القول قولك.

الأندلسي الكبير أنها "كانت رحمة لقاطني المعمورة"، وأخبر عنها معجزات نادرة منها أن سورة الفاتحة كانت من أكثر مَن خدمها ولبّى لها جميع أمنياتها، حتى أنها أعادتْ زوجًا غير مخلص إلى زوجته بعد لجوء الزوجة إلى السيدة الولية ترجو مساعدتها. وبالرغم من فقرها الشديد فقد كانت لابن عربي بمثابة "الأم الروحية"، بل بمثابة الأم الفعلية للثيومتصوف الكبير. كانت في بعض الأحيان تضرب بالدف مادحةً الله فرحة بفضله قائلة:

" فرحتُ بالذي نظر إليّ (تجلى إليّ)، وجعلني من أحد خلانه، وصيّرني لنواياه. فمَن أكون أنا، لكي يختارني من البشر، فهو غيور عليّ إذا ما توجهتُ لسواه، فيرسل إليّ الجزاء "

يعكس تكريمُ ابن عربي لفاطمة حنينَه الخاص إلى القديسات، فقد التقى في مدينة سفيلا بامرأة أخرى عالية المقام تجاوزتْ الثمانين ربيعًا تدعى شمس أم الفقراء[١١٣] تلك المتصوفة ذات المكانة الرفيعة، اشتهرت

---

١١٣ هي أم الفقراء شمس: قال عنها ابن عربي "لم أر أحدا من الرجال يقدر على ما تقدر عليه من العبادة. وهي من أكابر المجتهدات. كانت حاكمة على وهمها، كثيرة الوصال في الصوم، على كبر سنها. أدركتها وهي في عشر الثمانين سنة. كانت تتكلم على الخواطر، صحيحة المكاشفة. رأيت لها عجائب! كنت يوما، أنا وعبد الله ابن الأستاذ عندها، فالتفتت إلى ناحية في البيت وصاحت بأعلى صوتها: يا عليّ، ارجع خذْ المنديل. فقلنا لها: مَنْ تنادين؟ فقالت: عليّ، قصد زيارتي، فلما وصل إلى ماء بالطريق عند بلجانه قعد يأكل، وقام ونسي المنديل، فصحت به لئلا يرجع من أجله – وبينهما ما يزيد على فرسخ – فبعد ساعة دخل علينا، فقلنا له: يا عليّ، ما اتفق لك في طريقك؟ فقال: نزلت على الماء، وأكلت، ثم قمت ونسيت المنديل، فسمعت صوت ستي شمس وهي تنادي: يا عليّ، خذْ المنديل، فرجعت وأخذته.

بقدرتها على الإلهام إلا أنها حاولتْ قدر الإمكان إخفاء مكانتها الروحية.

وهناك أيضًا أمة غير معروفة الاسم اشتهرت بقدرتها العالية على ضبط النفس، وعلى الإسراع بالمسافات البعيدة في وقت لا يذكر، وعلى حديثها مع الجبال والحجارة التي أجابتها بـ "الترحاب".

كذلك كان ابن عربي متهيئًا لمقابلة سيدة ملهمة له في مكة، كانت تُدعى بـ "النظام"[١١٤]، ابنة إمام مقام إبراهيم في المدينة المقدسة التي التقت به عندما كان يطوف بالكعبة مرددا شعراً عن الوجد. وأصغت "النظام" له وفسرت أبياته.

وبفضل ذلك اللقاء مع تلك الحسناء سطر ديوانه المعروف بـ "ترجمان الاشواق"[١١٥]، وهو شعر صيغ على غرار شعر الحب العربي التقليدي حيث تنتحب الشخصيات الرئيسية في ديوان الشعر، حتى أن ابن عربي اضطر إلى إضافة تعليق على شعر الحب هذا، وربطه بالإطار الصوفي الفلسفي لإيضاحه، وهو ما مهد لتطور جديد في الشعر الصوفي.

---

١١٤ أحبها ابن عربي حبا عميقا، وكان ذلك عندما سافر إلى مكة، والتقى بالشيخ مكين، زاهر بن رستم بن أبي الرجاء الأصفهاني، ومن الواضح أنه من أصل فارسي. كانت له ابنة شابة اسمها نظام. فائقة الجمال، وعلى قدر وافر من الذكاء والعلم وطيب الخصال. ومن أجلها كتب ابن عربي ديواناً غزليا كاملاً بعنوان (ترجمان الأشواق) ضمنه حبه الشديد لهذه الفتاة، التي يبدو أنها غادرت مكة إلى نجد، ربما متزوجة من غيره.

يقول ابن عربي في مقدمة الديوان: "فكل اسم أذكره في هذا الجزء فعنها أكنّي، وكل دار أندبها فدارها أعني".

١١٥ هو "فتح الذخائر والإغلاق شرح ترجمان الأشواق" ديوان شعري للإمام محي الدين ابن عربي.

وهناك عددٌ غيرُ قليل من الصوفيين اللاحقين له وجدوا أنه من الضروري قبول تفسيرات عن هذه المفردات مثل النبيذ والحب والشوق. (بالرغم من أن هذه التفسيرات تسبب اضطرابًا في هذا التوازن المحبب بين المستويات الحسية والفوق حسية، إلا أنه من خلال الأبيات الشعرية الرقيقة يمكن استخراج خلاصة تعاليم الحكمة الصوفية). وفي حالة ابن عربي ظهر فيما بعد في ديوانه أشعارٌ أخرى، البعضُ منها ربما صيغ من أجل زوجاته السابقات إلا أنها لا تزال غير واضحة.

وفي كل مرة تبدو "النظام" كما لو كانت الخاصة بابن عربي، كما لو كانت كل إقامته في المدينة المقدسة مكة فاتحة خير له، Beatrice[١١٦]، لكتابة عمله الأكبر "الفتوحات المكية". وهناك أيضًا في مكة التقى بسيدة أخرى تُدعى "زينب القلعية"[١١٧] التي اشتهرت بجمالها وثرائها إلا أنها اعتكفت في مكة حيث عُرفت بكونها زاهدة كبيرة تحلّقَ حولها الكثير من المتصوفين. فدومًا ما أثارتْ إعجاب ابن عربي في دقة أدائها لفروض الصلاة، وقد مارست التأمل برفع الأشياء في الهواء. وهي ظاهرة لم ترد على الأقل في سير المتصوفات الأخريات، إلا أنه يبدو أمرًا معروفًا في ذلك الوقت.

---

١١٦ المقصود بها بياتريس: امرأة فلورنسا ظهرت في شعر دانتي أليجري ب"الكوميديا الإلهية".

١١٧ زينب القلعية، من قلعة بني حماد. كانت من أهل كتاب الله. زاهدة وقتها. وكانت ذات حسن وجمال وثروة، تركت الدنيا عن قدرة. كانت إذا قعدت تذكر ترتفع عن الأرض في الهواء، قدر ثلاثين ذراعا، فإذا سكنت نزلت إلى الأرض برفق! رافقتها إلى القدس من مكة، فما رأيت أحفظ على أوقات الصلوات منها. كانت من أعقل مَنْ في زمانها.

وارتحال ابن عربي معها إلى القدس يعكس التقدير الكبير الذي كنّه لها، مما جعل موقف الأندلسي الكبير من السيدات موقفًا خاصًا. حيث ألهمه الله أنه "خاتم الأولياء"، فقد امتلك منحة الشفاعة التي طُلبتْ منه في سنواته المبكرة من شخصيات في مجملها من النساء مثل أختيه وزوجته في ذلك الوقت وكذلك زوجته الرابعة (لا نعلم تحديدا عدد المرات التي تزوج فيها ابن عربي). ولقد منح ابن عربي الخرقة (زي الطريقة) كعلامة على الطريق الروحي إلى أربع عشرة سيدة من أصل خمسة عشر شخصاً (وهذا ما أخبرنا عنه جامي) لأنه كان على يقين أن السيدات قادرات على الوصول إلى مكانة داخلية في كل مستوىً من الحياة الروحية، حتى أن منهنّ مَن وصل إلى منزلة القطب، وهي أعلى رتبة في التدرج الروحاني. وحتى آخر عمره اعتاد ابن عربي أن يُشرك السيدات في دروسه وأن يتركهن للاستماع إلى محاضرات من أعماله.

ولكن كيف كانت حياة السيدات اللاتي اقتربنَ من طريق التصوف؟ أو اللاتي قررن اتّباعه؟ منهن مَن اتخذ طريق فعل الخير بالدخول إلى إحدى الخانقاوات (التكايا) من خلال دعمهم المادي للمرشد ومريديه، بتزويدهم بالمبيت والغذاء. وكان يكفيهم بركة المرشد أو الشيخ كشكرٍ لهم.

وتنتمي تلك المجموعة من السيدات فاعلات الخير في خانقاه أبو سعيد أبو الخير[118] المتوفى عام ١٠٤٩ في ميحاناة شرق إيران، وأشهرهن

---

١١٨ أبو سعيد أبو الخير: (٩٧٨ ـ ١٠٤٩) من أشهر متصوفي فارس وأحد من ساهم في تطوير التقاليد الصوفية هناك. كان أبوه عطارا وطبيبا ومتصوفا، تأثر بالتصوف وهو في عامه ٢٣

بيبي نيشي[119] منتجة زيت العيون، والتي اتبعت مرشدها بعد تردد مبدئي. وفي بعض المناطق كان يُسمح للسيدات بحضور الذكر مثل العصور الأولى.

لهذا الغرض كان يوجد غرفةُ تجمعٍ للسيدات في خانقاه الرفاعية بالقاهرة، والمولوية أثناء الإمبراطورية العثمانية إلا أنه في مناطق أخرى كان يُخصص لهنّ مكان على مقربة من الذكر لمشاهدته أو من أحد الأدوار العلوية. فقط في طريقة دراويش واحدة كانت السيدات بها دوراً فاعلاً وهي الطريقة البكتاشية[120] في تركيا وهو ما أدى بالطبع إلى وصم

---

وعبر عن تجربته الصوفية بشعر الحب البسيط، وكان فاتحا لغيره من شعراء التصوف الفرس. يشك الكثير من الباحثين في نسب شعره إليه إلا أنه اعتاد أن ينشد الشعر بعد كل صلاة حتى أن كلامه العادي كان شعرا، وفي جنازته تلا مريدوه على قبره شيئا من شعره بدلا من القرآن. كان أحد تلامذة السلمي السابق ذكره ويعد هو أول من وضع قوانين للتصوف على غرار قوانين الرهبنة في المسيحية لمريديه. كرس نفسه للزهد مدة سبع سنوات لم يشغل نفسه إلا بترديد لفظ الجلالة "الله". اعتنى ببذل النفس من خلال خدمة أقرانه وشغف بطقس الوضوء. وبسبب صراحته وتمرغه في التراب أثناء حلقات الذكر ناهضه علماء الشريعة والدين في تلك الفترة مما أدى إلى محاولات متكررة لاغتياله إلا أنها جميعا باءت بالفشل. وصلت لنا أخباره من خلال كتاب جمعه عنه أحد أقاربه يدعى "أسرار التوحيد في مقامات أبو سعيد". أما عن خانقاته فقد قام الصوفي أبوسعيد بن أبي الخير المتوفي عام ٤٤٠ هـ (١٠٤٨م) بوضع نظام لأهل الخانقاوات يتكون من عشرة أحكام، وحسب رأي من جاء بعد أبي سعيد بأن أبا سعيد هو أول من نظم الحياة الجماعية في الخانقاوات وفقاً لنظام أبي سعيد. وتقع خانقاته حتى اليوم في منطقة ميهني وهي تركمان حاليا وليس شمال إيران كما يعتقد البعض.

١١٩ من مريدات أبو سعيد أبو الخير في ميهان في أوائل القرن ١١.

١٢٠ الطريقة البكتاشية : هي طريقة صوفية في ألبانيا تعد أكثر الطرق الصوفية تأثيرا وانتشارا في منطقة الأناضول والبلقان وتتبع الطريقة العلوية، أسسها "حاجي بكتش"، نشأت في منتصف القرن الثالث عشر إبان حكم السلاجقة لآسيا الصغرى. تلقت الطريقة البكتاشية ضربة قاسمة لها عام ١٨٢٦ على يد السلطان محمد الثاني الذي حل الكتائب الإنكشارية

البكتاشيين أنهم تحولوا إلى طرق غير أخلاقية في الحياة خصوصاً إذا ما اختلى مرشدٌ مع مريدة مدة طويلة وحدهما ليأخذ منها العهد أو لأي سبب آخر. ورسمت رواية يعقوب قدري كاراوسماجولو[١٢١] "فقط بابا" التي ظهرت في إسطنبول عام ١٩٢٢ فنون الغواية التي مارسها أحد المرشدين الشباب في الطريقة البكتاشية، وصدرت ترجمة ألمانية للرواية بعنوان "الشعلة والذبابة"، وهي من الأسباب التي ساهمتْ في دفع أتاتورك بعدها بثلاث سنوات أن يغلق معاقل الدراويش (الخانقاوات والتكايا). وقد عولج الموضوع من زوايا عديدة في النقد الأدبي الحديث بالعالم الإسلامي بطريقة روائية.

وعُرفتْ العديد من السيدات القاطنات في أماكن تجمع الصوفية من عصور القرن الثاني عشر في كلٍ من بغداد ومكة وسوريا والقاهرة. وتُعد

---

وكانت كلها تلاميذ في الطريقة البكتاشية، لكي يؤسس جيشا نظاميا جديدا على غرار الجيوش الأوروبية. إلا أن الطريقة استمرت بعد موت السلطان محمد الثاني. وإبان الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ تلقت الطريقة ضربة ثانية بعد أن دخل اليونانيون ألبانيا ودمروا أغلب التكايا البكتاشية في جنوب ألبانيا. وينتمي ما يقرب من ١٥ ٪ من الشعب الألباني إلى تلك الطريقة هاجر منهم الكثيرون إلى أمريكا وأسسوا تكايا في الولايات المتحدة. تختلف تعاليمها عن التعاليم الدينية الإسلامية الكلاسيكية، حيث لا يصلي مريدوها في أوقات الصلاة الخمس المعلومة ولكن ترتكز صلاوتهم في الليل مع طقس "السماع" حيث يصطحبها الموسيقى والرقص المولوي مع ترديد "هووووو" مع رفع أياديهم للخالق.

١٢١ يعقوب قدري كارا اوسماجلو: (١٨٨٩ ـ ١٩٧٤) كان صحفيا وسياسيا وكاتبا تركيا، ولد في القاهرة من عائلة أرستقراطية، ظل في القاهرة حتى عامه السادس بعدها عادت أسرته إلى تركيا. له العديد من الروايات مثل "الغريب"، و"فقط بابا" التي نشرت لأول مرة في سلسلة مقالات عام ١٩٢٢ وتحكي قصة حب في وسط الطريقة البكتاشية. وتعد الرواية مادة جيدة للتعرف على الطريقة البكتاشية وتعاليمها وممارستها.

مكة من أكثر المدن تنظيماً لهذه الإقامة مثل رباط الزهيرية ودار ابن السودا (عام ١١٩٤) ورباط بنت التاج، وفي ذلك الوقت عُرفتْ في بغداد التي كانت تُعد في ذلك الوقت مركز العالم الإسلامي دارُ الفلك، الذي بنَتْه إحدى السيدات على الضفة الغربية لنهر دجلة، وتبعته العديد من الخانقاوات أو التكايا بين عامي ١١٢٧ و١١٧٧. وقبل سقوط الخلافة العباسية بأربع سنوات أسس آخر الخلفاء عام ١٢٥٤ رباطاً مخصصاً للسيدات كانت ابنته القائمة عليه. ويتسارع للذهن الشبه بين هذه الخانقاوات والمؤسسات الخيرية التي أقامتها السيدات في أوروبا. وكانت القائمات على هذه الخانقاوات يخطبن ويقمن الصلاة ويدرسن التعاليم والحكم الصوفية، إلا أنه كان في العديد من هذه الخانقاوات مكان مخصص للإقامة الدائمة للسيدات الأرامل والمطلقات حيث يقضين الثلاثة شهور وعشرة أيام على الأقل، وهي فترة العدة للسيدات الراغبات في الزواج مرة أخرى. (والغرض من وراء هذه الشريعة ورد في سورة ٦٥ آية ٤ ﴿اللَّائي يَئِسْنَ منَ المَحيض من نِّسَائكُمْ إن ارْتَبْتُمْ فَعدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أشْهُر وَاللَّائي لَمْ يَحضْنَ وَأُوْلاَتُ الأحْمَال أَجَلُهُنَّ أن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّق اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ منْ أمْره يُسْرًا﴾ حتى يتبينَ وجود حمل أم لا قبل البدء في زواج آخر). واعتادت كلُّ السيدات الورعات أن يقضين فترة العدة في المنزل دون الاختلاط بأحد إلا في حدود القرابة الأولى حتى في الصلاة ورياضة التأمل، وهي عادة ما زالت تمارسها بعض العائلات المحافظة في باكستان كما لاحظتها شخصياً في كراتشي.

ومن المعروف تاريخيًا بقاء زعامة الإرشاد في البيت الواحد في الطريقة فمثلاً، قضت حفيدة المتصوف الكبير أحمدي جام[١٢٢] اختباراتها الروحية التي تستمر أربعين يومًا في خانقاه جدها الكبير، بينما قضت امرأة أخرى تُدعى أمينة خاتون حفيدة الشاعر المتصوف أحاد الدين كرماني[١٢٣] حياتها في دمشق حيث درست أيضًا، فقد كانت شيخة وحافظة للقرآن. ومن بين السيدات المتصوفات العالمات لا ينبغي أن نَغفلَ عن بوبو راستي[١٢٤] في بورهان بور بالهند، التي كانت خبيرة في تفسير الشعر الفارسي من العصور الوسطى وخصوصًا أعمال فخر الدين العراقي[١٢٥] وكتابه

---

١٢٢ صوفي فارسي توفي عام ١١٤١.

١٢٣ شيخ أحاد أبو حيد أحآد الدين كرماني: من متصوفي فارس في القرن الثالث عشر. له من المؤلفات مثنوي يدعى "مصباح الأرواح" وهو عمل أليجوري يشمل على رحلة الحج من خلال مدن خيالية تتشابه إلى حد ما مع الكوميديا الإلهية لدانتي كما له من الرباعيات تعد هي الأقدم عن رباعيات الخيام. اتهم بالهرطقة وتوفي عام ١٢٩٨.

١٢٤ هي ابنة الشيخ الأصغر محمد عريف المتوفى عام ١٥٨٥ صوفي من أحمد آباد عرف بتقواه وعلمه، حصلت ابنته بوبو راستي على تعليم عال تحت إرشاد أبيها وعينت في نفس المدرسة كخليفة لأبيها عرفت بفصاحتها وسط طبقة النبلاء المغول ولها تعليق على شروحات السابقين في العقيدة والعلوم التقليدية.

١٢٥ هو فخر الدين إبراهيم العراقي: (١٢١٣ - ١٢٨٩) شاعر وكاتب فارسي صوفي، يعرف ب"العراقي" رغم أنه من مواليد أكمجان بالقرب من همان في فارس وارتحل إلى ملتان حاليا في باكستان وإلى كل من قونية وتقات في تركيا حاليًا، عرف عنه التعليق والشرح على الكثير من النصوص الصوفية. درس العلوم الدينية وألم بالآداب العربية والفارسية في عمر ١٧ عام بعدها التقى بالدراويش القلندر أي الدراويش السائحين وقرر الانضمام لهم وسافر معهم إلى مدينة ملتان، عمل في خدمة بهاء الدين زكريا مؤسس الطريقة السهروردية. ارتحل بعدها إلى تركيا حيث التقى بشيخين كبيرين هما مولانا جلال الدين الرومي وصدر الدين قونيوي الذي أثر في تربيته روحيا وفكريا. من أشهر أعماله "اللمعات" الذي كتبه أثناء فترة حياته في تركيا، بعيدا عن لغة الحب المطبع بها الكتاب إلا غنه يبرز كيف يرى الإنسان العالم، فعلى العكس من سابقيه رأى العراقي العالم كمرآة تعكس أسماء وصفات الله،

"لمعات"، ذلك الكتيب في الحقيقة يضم خليطًا من الشعر الفارسي والمقامات، بينها أفكارٌ لابن عربي شرحتها بطريقة أخّاذة، والبعض الآخر منها يخص أرقى الأعمال من شعر الحب الصوفي. توفيت بوبو راستي بعد عام ١٦٢٠ . وفي ثلاثينات القرن السابع عشر تم تدشين (تكريس) الابنة الكبرى للمعلم المغولي شاه جاهان (١٦٢٨حتى ١٦٥٨) الأميرة فاطمة شاه نارا التي كرست في طريق التصوف (حدث لها التكريس) مع أخيها الصغير ولي العهد الأمير دارا شيكو. وكان أولاد الملك مفتونين بولي يُدعى ميان مير[١٢٦] في لاهور المُتوفى عام ١٦٣٥ ، الذي خصص ولي العهد في سيرته الذاتية جزءًا عن سير الأولياء ممن كانوا مرشديه وفصلا كبيرا لأخت ذلك الولي القديسة بيبي جمال خاتون[١٢٧] . وحققت الأميرة أيضًا بعضًا من التقدم في الطريق الروحي،

---

وليس "كحجاب" يفصل بين الإنسان والله. ويشرح فيه صوفية ابن عربي من خلال رمزية الحب.

١٢٦ هو ميان مير محمد: (١٠٤٥ ـ ١٦٣٥) عاش في لاهور إلا أنه من مواليد إقليم السند اشتهر بعلمه في الفقه الجذب للتعليم الروحي منذ صغره ووهب نفسه للصلاة والصوم حتى أنه ترك انطباع الأولياء لدى عامة البنجاب ارتبط فكره بمذهب ابن عربي "وحدة الوجود" نظرا لقربها من المذهب الهندوسي "الفيداتنا" تكرس على يديه العديد من المريدين، وارتبط بطقسة صوفية لا نعلم عنها الكثير تسمى ب" نشات العشق" وورد عنه قبول دعوة الجوزر الخامس ووضع حجر أساس المعبد الذهبي معه كان من تلاميذه ملا شاه بداكشي الذي أشرف على تعليم الأمير شاه جاهان.

١٢٧ هي بيبي جمال خاتون المتوفاة عام ١٦٤٧ من قديسات السند الأخت الصغرى للصوفي الكبير ميان مير الذي تولى أمر لإرشادها الروحي بعد زواجها الذي دام عشر سنوات حدث الطلاق ووهبت نفسها للزهد والتأمل والصلاة في قلاية خاصة بها، أشار أخوها ميان مير إلى تمارينها الروحية كمثال يتبعه تلاميذه وأشار إليها الأمير دارا شيكوه في الفصل الثامن من كتابه سير "القادرية" الذي مدحها برابعة عصرها.

حتى أن خليفة ميان مير وهو مرشدها الروحي الحقيقي المولا شاه[١٢٨] المُتوفى عام ١٦٦١ أراد أن يجعلها خليفته لو كان ذلك ممكنًا طبقًا لقوانين الطريقة. وبالرغم من هذا الشرط التعجيزي ظلت الأميرة مخلصة إلى التصوف حتى بعد وفاة أمها المباغتة (الذى بُني تاج محل تكريمًا لها) فجعلها السيدة الأولى في المملكة.

وتعد الطريقة القادرية هي الطريقة الصوفية التي درست فيها هي وأخوها، واتخذت من جنوب الهند والبنجاب فيما بعد مقرًا لها منذ القرن الرابع عشر، بالرغم من ميل عائلة المغول إلى الطريقة الهندية الشيشتية. لذلك فعلت الأميرة مثلما تقضي التقاليد، فقد حجتْ إلى أجمير في راجستان (وهي منطقة تقع بين لاهور ودلهي وأجرا) بعد شفائها من حروق كبيرة كما اعتاد جدها الكبير أكبر أن يحج إلى ذلك المكان عدة مرات. وتظل حتى الآن أجمير هي مركز الطريقة الشيشتية حيث يرقد قبر مؤسس الطريقة معين الدين شيشتي[١٢٩] هناك. وهناك مخطوطة فارسية في

---

١٢٨ مولا شاه بكداشي: متصوف معروف من عصر المغول في القرن السابع عشر يعرف أيضا باسم "مولا شاه" كان خليفة المتصوف الكبير ميان مير وينتمي للطريقة القادرية الجيلانية. كان المربي والمرشد الروحي لأمراء وأميرات المغول منهم الأمير دارا شيكو قادري (١٦١٥ ـ ١٦٥٩) وأخته الأميرة جاه نارا بيجوم.

١٢٩ معين الدين شيشتي: (١١٤١ ـ ١٢٣٠) يعرف أيضا بلقب "غريب نواز" أي "المحسن للفقراء"، من مشاهير الطريقة الشيشتية، أدخل الطريقة وأسسها في شبه القارة الهندية مع قطب الدين بختيار وفريد الدين جانشاكار السابق ذكره، كل منهما كان تلميذا لسابقه. منذ طفولته فضل العزلة والصلاة والتأمل. درس في كل من سمرقند وبخارى وزار كل مراكز العالم الإسلامي. أسست الطريقة الشيشتية على يد أبو أسحث السورى في شيشت وتبعد ٩٥ ميلا عن حيرات في غرب أفغانستان حاليا بينما رمى حجر أساس الطريقة في الهند في أجمر شمال الهند. لم يكتب معين الدين نفسه تعاليم الطريقة ولم يملها على أحد لكنها حية

المكتبة البريطانية خصصت إلى مرشدها الروحاني. وبعد وفاتها عام ١٦٨١ تم دفنها في حوش المقام الرائع لنظام الدين أوليا[١٣٠] المتوفى عام ١٣٢٥ في دلهي. لقد كانت جاه نارا ضليعة في الأدب الصوفي، فقامت بالترجمة والتعليق على الكثير من الأعمال الكلاسيكية. وكانت ابنة أخيها زيب النساء المتوفاة عام ١٦٨٩، ابنة أخيها الأرثوذوكسي المتشدد أورانج زيب الذي أعدمه دارا شيكو، كان ميالا للتصوف والشعر، أما عن بنات القيصر الأخريات فقمن بإرسال الهدايا إلى متصوفة دلهي مما جعل لهن شهرة واسعة. وهناك سيدات محترمات من غير الأميرات مثل زيب النساء أو أختها زينة النساء عُرفن بأنهن قائمات على المساجد ماديًا مثلما كان في أحمد اباد(جوتشارات) وفي دكان. حتى وإن لم يُسمح للنساء بالدخول واكتُفي بالوقوف في الشباك أو الوقوف للصلاة لإلقاء نظرة على قبر الولي فبإمكانهن المشاركة في تحية وصول رفات الأولياء مثل مقصورة(حضرة بال)[١٣١] أو تحية لشعر الرسول في جايبور إحدى المدن الهندية بالمدائح. وفي احتفالية أو ليلة الاحتفال بمعين الدين شيشتي في مقامه تحمل إحدى أتباعه من السيدات شمعةً فوق رؤوس الحاضرات من السيدات في ساحة المقام، بعد أن تُثبت تلك الشمعة فوق القبر، حينئذ

---

وسط المريدين حتى اليوم. فسر الدين بنزعة إنسانية بخدمة البشرية "إطعام الجائع، مساعدة المحتاج، تفقد المنبوذين" من ضمن مؤلفاته التي تنسب له "أنيس الأرواح"، "دليل العارفين".

١٣٠ سبق ذكره

١٣١ قرية من مدينة سريناجارفي كشمير، يحج إليها الآلاف لاعتقادهم باحتفاظها ببقايا من النبي محمد وبآله والمقصود بها "مقصورة" تعني بالكشميرية مكان وحظرة أي "حضرة" بالعربية التي تقال احترامًا للمكان لاحتوائه على متعلقات من النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

يُسمح للسيدات بالدخول إلى المقام. وكثير من هذه العادات انتشرت في العديد من المدن المقدسة، ولا ينبغي أن نغفل أن بعض الملوك (مثل فيروز شاه طغلق[١٣٢] الذي حكم بين ١٣٥١ و١٣٨٨ وسكندار لودي الذي حكم بين ١٤٨٩ و١٥١٧) حرّموا على النساء زيارة المقامات في أجمير وفي أماكن أخرى، وذلك لتجنب الممارسات "الغير دينية" أو الاشتباه في ممارسات تخالف التقاليد. حيث وُجدت في الكثير من المقامات القليل من الممارسات "الدينية"، فعُرف من خلال الكثير من المصادر أن الدعارة كانت موجودة، وبعض المدن قد وصمت بالشر المستطير بسبب هذه الممارسة. ولكن كان ثمة أماكن مخصصة للداعرات أثناء الحج حتى وإن كنّ يتلقين الإهانة خلالها.

وتحتاج أشكال التكريم الشعبي للسيدات الورعات والقديسات إلى مزيد من الدراسة والفحص، وغالبًا ما يعثر المرء على مقامات صغيرة لسيدات عُرفن بـ "خادمات الله المجهولات" التي أشير إليهنّ في الكثير من المصادر. حتى أن الناقد R. Burton لفت نظره في كتابه عن السند الصادر عام ١٨٥٣ أن السنديين يوقرون "الخدمة الدينية للجنس الضعيف"، ويرفعون فاطمة الهاجراني[١٣٣] إلى مرتبة عالية حتى بلغت مرتبة المرشد. ويطلق العامة أسماء رومانسية على مثل هذه المقامات،

---

١٣٢ فيروز شاه طغلق: (١٣٥١ ـ ١٣٨٨) سلطان دلهي من سلالة آل طغلق اشتهر بلقب محطم التماثيل، اشتهر بحبه للثقافة والعلم حيث ترجمت في عصره الأعمال الدينية الهندوسية من السنكريتية إلى الفارسية. وكان يحتفظ بمكتبة كبيرة من المخطوطات الفارسية والعربية ولغات أخرى.

١٣٣ متصوفة سندية من القرن ١٨.

ففي الأناضول نذكر مثلين "بسيلي سلطان" سميت بالسيدة ذات الهريرة، "وكارياجلي سلطان" لُقبت بـ"يا سيدة لقد تساقطت الثلوج".

وتواجدت في العديد من الأماكن مجموعات من السيدات عُرفن بـ "هفت عفيفة" أي "السبع عذارى" اللائي غبن في الأرض عندما اقترب منهن جنود الأعداء. ويُحكى عن بعض السيدات أن الأرض ابتلعتهن فأنقذتهن من خطر ما بفضل صلواتهن للحفاظ على شرفهن. وجُدلت الكثير من الحكاياً عن سيدات بسيطات، منها ما أورده ذو النون في قصصه، وعُرفن بإيمانهن القوي، ومن تلك القصص المؤثرة قصة سيدة من لالة ميمونة[١٣٤] وهي روح سيدة بسيطة من شمال أفريقيا لم تتمكن يومًا من حفظ كلمات الصلاة اللازمة التي أراد أن يعلمها لها قبطانُ السفينة، ولما رسى بالسفينة، مشت تلك السيدة على الماء حتى تتعلم الصلاةً أخيرًا. وبعض ما يُقال عن هذه السيدات يبدو أنه صحيح مثل ما قيل عن "نورهم الداخلي الذي ميّزهم"، فتُعد منهن فاطمة من أندربات في شمال الهند، التي حُكي عنها عام ١٢٠٠ أن "قبرها كان الموضع الذي يتوجه فيه المرء بطلباته أو حاجاته"، ومنهم قبر فاطمة الصغير تمييزًا له عن قليل من قبور السيدات المعروفات في دلهي، وهو ليس ببعيد عن ضريح نظام الدين أوليا ويتوجه إلى قبرها المسلمات والهندوسيات أيضًا.

وتُعد صورة السيدات الزاهدات المتصوفات في العالم الإسلامي صورة زاخرة التنوع، فمنهن سيدات شديدات الورع مِلن إلى التعلم،

---

١٣٤ قرية مغربية بإقليم القنيطرة شمال الرباط.

وأميرات حافظن على اهتمامهن بالأعمال الدينية رغم واجباتهن نحو حياة القصور. وهناك العديد من الفتيات البسيطات والعجائزعُرفن فقط بأسمائهن من خلال تجربتهن الصوفية. وهناك الآلاف من المتصوفات اللاتي عُرفن على مدار القرون التالية بسبب بركتهن وطاقتهن على التعزية، فيتوجه إليهن البناتُ والسيداتُ من الريف والمدينة حاملاتٍ إليهنَ همومهن آملاتٍ في عون ومدد روحي.

وأخيرًا تعد صورة السيدة القديسة صورة شديدة الخصوصية عند المسلمين حيث يجدن لديهن مداواة للقلوب الحية ولأقرانهنَ المتوفين منذ زمن.

## الفصل الثالث

# النساء في القرآن والسنة

يتناول القرآن عادة الحديث عن الورعات والمؤمنات "المسلمات أو المؤمنات" والتي تأتي في نفس السياق عند الحديث عن المسلمين والمؤمنين، وما لهن من الواجبات الدينية مثل ما للرجل تمامًا.

باستثناء صورة سلبية واحدة فقط للمرأة وردت في "سورة المسد" عن زوجة أبي لهب عدوة محمد اللدودة التي عُرفت بـ "حمالة الحطب" علامة على لعنتها بكفرها. ويُعد وضع المرأة في القرآن أفضل بكثير بما كانت عليه قبل الإسلام. وأصبحتْ تتمكن من نصيبها المكتسب بسبب الزواج أو الميراث ولها أن تتصرف فيه، كما مكّنها الإسلام من أن ترث، وهو ما كان غير ممكن من قبل. أما عن السماح بالزواج من أربع سيدات كما ورد في سورة النساء آية ٣ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ﴾ فأصبحت تُفسر فيما

بعد على أنها شهادة على الأربعة طبائع[135] المختلفة أو الأمزجة المختلفة، إلا أن تعدد الزوجات أمر غير منتشر كما يعتقد المرء. ودفع التعليم القرآني عن حسن معاملة النساء بالحداثيين إلى فرض مبدأ الالتزام بالزوجة الواحدة. بالرغم من عدالة التوزيع بين الزوجات في الأمور المادية، كيف لرجل مبادلة جميع زوجاته نفس المشاعر؟ أما عن السماح للزوج بمعاقبة الزوجة الدائمة العصيان، فيوجد ما يقابل هذا الفعل في قول الرسول اللين عن حسن معاملة النساء في "خيركم، خيركم لنسائكم".

ودومًا ما يتم تجاهل الرابطة الداخلية بين الزوجين أو تفسيرها خطأ في سورة البقرة آية ١٨٧ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ حيث تفسر لباس في التقاليد الدينية أي (السنة) على أنها "الأنا الأخرى" للإنسان، وهي ما تشير إلى مقابل أو معادل موضوعي لتلك الرابطة الوثيقة. تم الإشارة في القرآن إلى امرأة واحدة وهي "مريم" العذراء أم

---

135 أي الطبائع الأربعة التي خلق الله منها المخلوقات والتي تعيش على الأرض من إنسان وحيوان وطيور وأسماك. ابتدأ الله الكونيات بخلق الطبائع الأربعة التراب - الماء - النار - الهواء ومنها خلق أجساد كافة المخلوقات فكانت هي أوليات الخلق.

يسوع التي تحظى بمكانة عالية في الإسلام فهي أول من تدخل الجنة كما ورد في بعض الأثر. طرحت لها نخلة عجفاء بلحًا حلواً عندما اعترتها آلام المخاض، وشهد مولودها على براءتها سورة مريم آية ٢٤ ﴿فَنَادَاهَا من تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ و٣٠ ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ و٣٣ ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾. فهي الروح الصامتة الورعة التي تستحق ما خُصص لها من الدراسات. ووردت الإشارة في القرآن إلى عدد من السيدات اكتشفهن المفسرون المتأخرون، ووهب لهنّ التدين الشعبى أسماء، وزخرف قصصَهن بتفاصيل مبهجة. فهن مثالٌ يُحتذى به للسيدات كما أشار إلى ذلك كتابُ توجيهات التربية "زخرف الجنة" للكاتب ثاناوى، فكل سيدة وردت في القرآن تقف كنموذجٍ للقارئة الصغيرة بكل التعاليم التي وردت عنها. وطبعًا أولى السيدات هي حواء التي أشارت إليها الأساطير بأنها خُلقت من ضلع آدم ولقد أشار جوته[136] إلى ذلك الحديث في أحد أبياته: " عاملوا المرأة بصبر، فلقد خُلقت من ضلع أعوج، فالله لم يخلقها مستوية، هل تريد أن تثنيها وتكسرها؟ اتركها وشأنها ستكون أكثر اعوجاجًا يا آدم الطيب، أيهما أسوأ؟ أن تعاملها بصبر، فمن غير الجيد أن تكسر ضلعًا.. "

---

136 يوهان فولفجانج غوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) أشهر الأدباء الألمان ترك إرثا أدبيا غزيرا تنوع بين الشعر والرواية والمسرحية. ترجمت أعماله إلى لغات العالم كان متبحرا في العلوم واللغات فدرس الفارسية والعربية وتعمق في الفكر الإسلامي وقرأ ديوان حافظ الذي تأثر به في ديوانه الشرق ـ والغرب، من أشهر أعماله أيضا آلام فارتر التي كتبها بعد أن خزل في قصة من قصص الحب التي مر بها.

ولا تُوجد أي إشارة في القرآن على أن حواء مسئولة عن خطيئة الخروج من الجنة أو كونها المتسببة في ارتكاب أولى خطايا العالم، حيث إن الإسلام لا يعترف ولا توجد به الخطيئة الأولى، إلا أنه في قصص الأنبياء كما يرد على لسان خطباء العامة وقاصّي الحكايات المليئة بالفانتازيا نجدها دومًا مزينة بتفاصيل تحتل فيها حواء مكانًا هامًا. ووُصف جمال حواء وصفًا أخاذًا نذكر منه :

أنها كانت طويلة القامة وجميلة مثل آدم لديها ٧٠٠ من جدائل الشعر مخضبة بالحناء الخضراء ومعطرة بالمسك فكان ملمسها أنعم من ملمس آدم وأنصع لونًا منه وصوتها أجمل من صوت آدم. وكما ذكر الأثرُ أن الله خاطب آدم: "لقد جمعت رحماتي في أمتي حواء من أجلك، وما من رحمة يا آدم أفضل من المرأة الصالحة".

وذُكر في الأساطير فرح أول زوجين في العالم بكل تفاصيله التي جعلت منه فرحًا أرضيًا دنيويًا احتفاليًا حيث نثرت فيه الملائكةُ من عملات الجنة على العروسين. إلا أنه لما غُرر بحواء من قبل الحية التي أحضرها منقارُ الطاووس إلى الجنة وأكلا من الثمرة المحرمة (والتي تتمثل في هيئة القمح) سقطت عنهما ملابسهما. وفي هذا الموضع تتحمل حواءُ في القصص والتقاليد عواقبَ التصرفات الطائشة. وفي بعض التصورات الدراماتيكية نرى فيها حواء تسأل الله فيم أذنبت؟ وما هي عقوبتها؟ ويجيب الله: "لقد خلقتك ناقصةً عقلا ودينا وفي قدرتك على الشهادة والميراث". فمن التعاليم القرانية (امرأتان بدلا من رجل أثناء إدلاء الشهادة) سورة البقرة آية ٢٨٢ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى

أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ومیراث البنات أقل من الصبيان كما في سورة النساء آية ١١ ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ حتى أن العقوبة الإلهية التالية "ستظلين حبيسة طيلة عمرك" وبمرور الزمن تطور مفهوم الانغلاق وازداد عمقه. وطبقا للكسائي فإن المرأة تحذو حذو حواء " فلا يوجد في الدنيا أفضل من مشاركة الجمع في صلاة الجمعة" (بالرغم من عدم ورود هذا الفضل لا في القرآن ولا في الممارسات المبكرة) ولا ينبغي لها أن تُلقي التحية (بالرغم من عدم ورود عقوبة لذلك في القرآن) وعقوبتها تتضمن الطمث والحمل

"لم ولن توجد أية امرأة نبية أو حكيمة" مما يدل على كم التخيلات الغير قرآنية المنتشرة التي ترجعُ إلى خيال الشعوب وتفسيراتها الخاصة.

وأبدت حواء ندمها على ذلك التجاوز، وقد غُفر لها. إلا أنه بعد طرد آدم وحواء من الجنة قد انفصلا عن بعضهما البعض وكما تخبرنا الأساطير أنهما قد تلاقيا بعد زمن مرة أخرى قرب مكة حيث علّم جبريلُ آدمَ طقوسَ الحج، وبينما كان آدم على قمة جبل الصفا كانت حواء على قمة جبل المروة، الذي انشق اسمه طبقا للتفسيرات الخيالية من "المرأة" وتعرفا على بعضهما البعض عند سفح جبل عرفات. وأيضًا من السيدات اللاتي ارتبط ذكرهن بالحج هاجر، محظية إبراهيم، التي هرولت سبع مرات بين الصفا والمروة، بحثا عن ماء لوليدها إسماعيل حتى انفجر ينبوع زمزم، وهو ما أصبح فيما بعد نموذجًا للسعي سبع مرات بين الجبلين (والتي ربط فيما بينهما بيورتيكو) وفي الأساطير الشعبية يُروى عن ابنة الطاغية نمرود الذي ترك إبراهيم يحترق على العامود، وتزعم الأسطورة أنها آمنت بإيمان إبراهيم، وأُلقيت أيضًا معه في النار إلا أنه لم يمسّهما أذىً.

أما عن امرأة فرعون المؤمنة التي أنقذت موسى الطفل و سماها المفسرون بآسيا، فأضحت مثالاً للمرأة الصالحة، حيث أنها تلقفت النبي المستقبلي بالرغم من إجراءات الحرص الشديد الذي اتخذها زوجها، وبفضل تلقفها له ورعايتها أصبح لها نصيبًا في الجنة. وفي بعض الدوائر أصبحتْ تعرف بـ "المرأة الكاملة"، وتشارك مريم وخديجة وفاطمة في الجمال، وهنّ عذارى الجنة.

تظهر أيضًا شخصية نسائية أخرى في القرآن، وهي ملكة سبأ والتي عُرفت في التراث ببلقيس كما أخبرتنا سورةُ "النمل"، والتي اُكتُشفت من قبلَ الهدهد واتبعت دعوة النبي الملك سليمان، ودخلت في الإيمان القويم وقبلتْ أن تكون زوجه. كانت من قبلُ عابدة للشمس، اختبرت سليمان بثلاث أحجيات وقد حلها بالطبع بسهولة. ومن ثم أُذهلتْ ببريق الأرضية الزجاجية في قصره، حتى أنها رفعت ثوبها وحسرت عن ساقيها كما في سورة النمل آية ٤٣ ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، إلى أن اتضح لَها انها ابنة أحدَ أمراء الجن وامرأة بشريةَ، وأنها خُلقت طبيعيًا من ذلك الزواج بين أمير للجن وامرأة بشرية.

وأحضر سليمان عرشها بالسحر في قصره، وهو ما كان قطعة فنية رفيعة قد تعلق بها. وعادة ما تظهر بلقيس في النصوص الأدبية التالية كنموذج للمرأة الثرية والقائدة الذكية، لذلك من المستحب ورود ذكرها في شعر المديح. فمدح الشاعر الفارسي خاقاني[137] المتوفى عام ١١٩٩

137 هو أفضل الدين إبراهيم بن علي الشرواني: (١١٢١ ـ ١١٩٠)
شاعر فارسي من القرن الثاني عشر من شعراء القصائد الطويلة، أشهرهم مثنوي "تحفة العراقين" ويعني بالعراقين هنا ميسوبوتاميا والفارس أي العراق وفارس، ومن أعماله أيضا "إيوان مداين" حيث سطر انطباعاته لرؤية أطلال ساسان والقصر الساساني. بعد عودته من رحلة الحج انقطعت صلاته بالبلاط الملكي لشاه شيروان في تلك الفترة على اثرها أمر السلطان بحبسه وفي سجنه سطر قصائد "الحبسيات".

زوجته وأخت سيده من آل شيروان شاه[١٣٨] وشبهها ببلقيس (والتي لوحظ كثيراً أنه يشبهها بالسيدات الكبيرات في التاريخ فكانت مثل مريم أو مثل المتصوفة رابعة، أو الملكة زبيدة، ويبدو بجلاء أن السيدات اللاتي مدحهن أقوى وأفضل من الرجال).

ويتجلى التفسير الصوفي لشعر الحب في عمل "ترجمان الأشواق" للثيوصوفي الكبير ابن عربي (المتوفى عام ١٢٤٠)، فتظهر حضرة المحبين بشكل بديع، فيذكر "إن بلقيس نسيت عرشها" (رقم ٦٢ البيت الثالث من ترجمان الأشواق)[١٣٩] حيث صور فيه السيدات الجميلات بالتالي "طاووسات بنظرات قاتلة وقوة طاغية، فيحسب المرء أن كلاً منهنّ بلقيسَ على عرشها اللؤلؤي" (بيت ٢ رقم ٢ ترجمان الأشواق)[١٤٠]. وكما فسّر ابن عربي "فقد سمى الحكمة الإلهية ببلقيس، لأنها طفل "النظرية" الحساس، بينما "الممارسة" محملة بالماديات، وهكذا كانت بلقيس روحًا وامرأة فأبوها ينتمي للجن بينما أمها من عالم الإنس.

---

١٣٨ شيروان شاه: هو لقب حملة الملوك المسلمين في شيروان وهي أذربيجان حاليا من منتصف القرن التاسع الميلادي حتى القرن السادس عشر. وظل اللقب مستخدما من قبل عائلة واحدة هي الأبزدية وهي عائلة ذات أصول عربية تفرنست فيما بعد.

١٣٩ " لو أن بلقيس رأت زخرفها ما خطر العرش ولا الصرح ببال" يلاحظ أن النسخة التي عدت إليها ربما تختلف عن النسخة التي عادت إليها المؤلفة لذلك وجدت البيت الذي تقصده شمل في الجزء ٢٥ البيت الثالث.

١٤٠ ما رحلوا يوم بانوا البزل العيسا إلا وقد حملوا فيها الطواويس

من كل فاتكة الألحاظ مالكة تخالها فوق عرش الدر بلقيس "

وبالنسبة لجامي[141] المتوفى عام ١٤٩٢ هي القائدة الحكيمة التي يظهر حكمها الموزون على السيدات الطيبات والخبيثات، ويشهد عتابها الرقيق على أبيات الفردوسي المعادية للمرأة بحكمتها العميقة. (وعُبر بجلاء عن حكمتها الضاحكة في الأدب الأوروبى على خير وجه في الحكايات الساحرة ل Rudyard Kipling[142] في كتابه The butterfly that[143] stamped.

ويظهر عرش بلقيس والحيلة التي اشتهرت بها، كيف كانت قائدة قوية كما يلوح ذلك من آن إلى آخر في الشعر والمديح في العالم الإسلامي، وليس نادرًا ما نرى القائدة الذكية مصورة في المنمنمات إما جالسة على عرشها أو ممثلةً جالسة في اللحظة التي يُلقي إليها الهدهد

---

١٤١ سبق ذكره

١٤٢ كاتب وشاعر وقاص بريطاني (١٨٦٥ ـ ١٩٣٦) له رواية باسم (على سور المدينة) والتي يعود تاريخ كتابتها إلى أكثر من مئة عام، وبالتحديد عام ١٨٨٨ م، ومكان الحدث هو مدينة لاهور الباكستانية يتحدث فيها عن مشاهداته هناك وهذا مقطع منها " المواكب السيارة ـ وهي تناهز الاثنين والعشرين موكباً ـ كانت قد أصبحت جميعها الآن داخل أسوار المدينة القديمة، عادت الطبول تُقرع من جديد، والجموع ما انفكت تصرخ: يا حسين، يا حسين.. وهي تلطم بشدة على صدروها، الجوقة النحاسية تعزف بأصدح الأصوات المناحة، وعند كل زاوية حيثما يسمح المجال يسترسل الوعاظ المحمديون في سرد الحكاية المأساوية لموت الشهداء، ما كان ممكنا التحرك إلا مع الحشود ذلك أن الطرقات بالكاد تبلغ العشرين قدما عرضاً. ودقات الطبول وصيحات : يا حسين يا حسين لا تزال تتردد.. ". من أعماله " كتاب الأدغال "، " قصة كيم ".

١٤٣ هو جزء من سلسلة كتب عرفت باسم " فقط هكذا تكون القصص " وهي عبارة عن قصص كثيرة مجمعة تشرح كيف ينبغي أن تؤول الأمور. وتحكي عن قصة الملك سليمان وزوجته الحبيبة بلقيس وزوجاته ال٩٠٠ الأخريات وكيف ضج سليمان الحكيم بهن وبمشاكساتهن.

بخطاب سليمان في غمضة عين، إلا أنه من المدهش أن الحب بين سليمان صانع المعجزات ومحدث الطير والقائدة اليمنية لم يكن مثلما صورته الكثير من التقاليد الفارسية الأخرى في فارس، والتي جعلت منها ملحمة رومانسية. إلا أن القصص القرآني يُقدم أساسًا للأليجوري (أي التمثيل الأدبي) الرائع للقوة الروحية للقائد الملهم من الله والحب لامرأة غير مؤمنة تلمست الإيمان في كلماته. إلا أنه يبدو جليًا افتقار الشعراء إلى العنصر التراجيدي وهو مكون هام لسائر الملاحم الفارسية - التركية. وعلى حسب علمي يُعتبر الرومي وحده هو من تناول الموضوع بعمقه الكلي. فيحكي في المثنوي (الجزء الرابع، بيت ٤٦٥)[١٤٤] كيف أرسلت بلقيس إلى سليمان ذهبًا، وكيف أعاد إليها جيشها وكيف توجهت بالترحال فانسحبت به يوميًا عن العالم، وأصبحت عاشقةً بكل جوانحها:

"فلما سافرت بلقيس بقلبها وروحها ندمت على ما فاتها من أزمنة، وتخلت عن ثرائها ومملكتها كما ينسى العاشقون الشهرة والمجد. وبدت لها الصبايا النواعم والغلمان اللطفاء كبصل متعفن فاحت رائحته، وبدت لها الحدائق والقصور والمياه مثل أكوام رماد أمام أعين الحب. فالحب إذا ما غلب أحدا تراءت له ألطفُ الأشياء أقبحَها. فالزمرد يبدو

---

144 وردت قصة بلقيس وسليمان متناثرة في الكتاب الرابع يتخللها قصة ابراهيم بأدهم وقصص أخرى إلا إنها تنحسر فيما بين البيت ٥٦٣ حتى ١٠٤٤ في نسخة ترجمة د. إبراهيم الدسوقى شتا. وما يقصده مولانا الرومي أنه عند قبول الرسالة تبدو الحياة السابقة لا قيمة لها، ويرتبط العشق الإلهي بحرف "لا" أي نفي كل شئ في القلب سوى الله.

كحزمة الكرات، فغيرة الحب تعرف التالي أنه "لا إله إلا هو"، عندها يظهر لك القمر المكتمل كقدر أسود".

وفي هذا التحول تصبح بلقيس أشبه بزليخة، التي عُرفتْ في العهد القديم بامرأة الحكيم بوتيفار، وعُرفت في التقاليد الإسلامية بالمرأة المسوسة بالحب التي تفعل أي شيء من أجل الوصول إلى حبيبها يوسف راغبةً فيه ساعيةً لأن تكون نموذجًا للجمال وآلام العشق: "فالحب كالمحيط، ما السماء منه إلا زبدا، يهيج مثل زليخة في حبها ليوسف".

هكذا يتغنى الرومي، كأفضل من فسّر تلك القصة.

وتُسمى باسمه السورة "سورة يوسف" في القرآن وتُوصف "بأحسن القصص" فهي تخبرنا عن حياة يوسف وانفصاله عن أبيه يعقوب وخيانة إخوته له. وتحكي كيف أُلقي يوسف في الجب، وبيع إلى مصر، وكيف وقعت امرأة سيده في حبه، وكيف وُبخت بسبب ذلك العشق من الجميع، وكيف دعت صديقاتها ودخل عليهن يوسف، وحملقن فيه بجنون حتى قطعن أصابعهن دون الإحساس بالألم بدلا من قطع الفاكهة التي كانت أمامهن. ثم يتبع ذلك دور يوسف في السجن وتفسيره للأحلام ومقامه الرفيع الذي مكنه من بيع الحبوب إلى إخوانه في كنعان أثناء المجاعة. وأخيرًا يُشفى يعقوب من فقد بصره الذي أصابه بسبب حزنه وبكائه على ولده المفقود، بعد أنَ يُلقى إليه بقميص يوسف المحمل برائحته. وأخذت النصوص الأدبية المتأخرة بعض المشاهد من القصص القرآني وأضافت له، ومن ضمن الشخصيات القليلة الهامة أصبحت زليخة شخصية محورية. ومن الطبيعي أن يتناول المفسرون

الموضوع بصورة محببة، وخصوصًا الصوفية مثل عبد الله أنصاري من حيرات المتوفى ١٠٨٩ والذي ألهم بدوره الشاعر مي بودي[١٤٥] لتخصيص قصة طويلة ليوسف مع شرح مفصل لها. ويبدو أن موضوع القصة قد عرف بين الشعراء الإيرانيين منذ زمن مبكر حتى وإن نسبت ملحمة يوسف وزليخة إلى الفردوسي[١٤٦] المتوفى عام ١٠٢٠ والتي لا يمكن أن تكون من أعماله. وبذل علماء القرن التاسع عشر مجهودًا لإثبات أصالتها.

وقبل تحول القرن الأول كما لاحظ Ethé[١٤٧] أن أبا المؤيد البلخي[١٤٨] قد حرر ملحمة عن قصة الحب القرآنية الشهيرة. وفي القرون التالية حدث العديد من التغيرات الملحمية لنسيج القصة ولاسيما في الجزء

---

١٤٥ هو صاحب تفسير القرآن مي بودي أبو الفضل توفي عام ١١٠٠.

١٤٦ هو أبو القاسم الفردوسي: (٩٤١ - ١٠٢٠م) ولد في غزنة أفغانستان حاليا وتوفي في طوس، شاعر فارسي عظيم من أشهر شعراء الملاحم في العالم هو صاحب الملحمة الضخمة ذات ٦٠ ألف بيتا "الشاهنامه" أي "كتاب الملوك" وهي تسرد تارخ فارس الوطني، يعتبر واحدا من أربع شعراء ممن كتبوا باللغة الفارسية الحديثة التي نشأت في القرن العاشر في بلاط السامانية ويعتبره الإيرانيون "صاحب صحوة" الهوية الفارسية حاول تجنب اللغة العربية والمفردات العربية فيها قدر الإمكان.

١٤٧ د Ethé Herman : صاحب مقالة " الأدب الفارسي الحديث" ترد المقالة في مراجع الكتاب بالتفصيل.

١٤٨ هو أبو المؤيد البلخي من بلخ (أفغانستان حاليا) من أوئل الشعراء الفارسيين في العصر الساماني، فُقدت أعماله كلها تقريبا، لا نعرف شيئا عن حياته إلا أن بعض أعماله تشير إلى اهتمام كبير بتاريخ إيران ومعرفته باللغة البلهلوية والعقائد الزرادشتية والمزدكية، ما تبقى من أعماله هي الملاحم التي وصلتنا في شكل "شاهنامه" فضلا عن أبياته التي تخص قصة يوسف وزليخة.

الشرقي من العالم الإسلامي فكلٌ من شوكت بخاري[١٤٩]، أمعاق بخاري[١٥٠]، ناظمي هراوي[١٥١]، وركن الدين هواري[١٥٢] ورد ذكرهم في تعداد Ethe، واتخذ شعراء شبه القارة الهندية الموضوع بكثير من الحماس بعد أن صبغه جامي بالصبغة الكلاسيكية والتي سرعان ما ترجمها Vinzenz von Rosenzweig - Schwannau [١٥٣] إلى الألمانية في عام ١٨٢٤.

ويعد مير معصوم نامي المؤرخ والخطاط السندي الذي عمل في بلاط السلطان أكبر[١٥٤] واحدا من كثيرين ممن عالجوا الموضوع بأبيات فارسية وفي المحيط الهندي - الفارسي كُتبت أعمال نثرية عنه، ويُلاحظ في كل النسخ الخاتمة السعيدة بزواج يوسف وزليخة مصحوبةً بالتفاصيل، حتى أن هناك نسخة كشميرية من تلك الملحمة. وكتب محمد صغير[١٥٥] المتوفى

---

١٤٩ شاعر فارسي توفي في ١٦٩٥.

١٥٠ أمعاق بخاري (١٠٤٨ - ١٠٨٠) شاعر فارسي اشتهر في بلاط القرخندي في سمرقند وبخارى مسقط رأسه عكف على الفلسفة والعلوم والأعمال الأدبية المعاصرة، له قصائد رفيعة جدا يغلب على شعره سمة الحزن له ديوان من الرباعيات وينسب له قصيد يوسف وزليخة الذي كتبها في عرضين من عروض الشعر إلا أنها لم تصل الينا.

١٥١ ناظم هراوي شاعر فارسي توفي بعد ١٦٦٢.

١٥٢ هو شاعر فارسي من القرن ١٥.

١٥٣ فنزن روزنفايج من شاوناو: ( ١٧٩١ - ١٨٦٥) دبلوماسي ومستشرق نمساوي عمل كمترجم للاداب الشرقية. كرس عمله لترجمة أعمال عبد الرحمن جامي والشعر الفارسي حتى الآن لا تزال ترجمته لديوان حافظ جيدة ويعود الباحثون لها.

١٥٤ هو جلال الدين ابو الفتح محمد أكبر (١٥٥٦ - ١٦٠٥) أحد أكبر سلاطين المغول وصلت مملكته إلى البنغال عامل مواطنيه معاملة موحدة ولم يعاملهم كأهل ذمة، كان راعيا للعمارة والفنون والأدب.

١٥٥ شاعر بنغالي توفي عام ١٥٠١.

عام ١٥٠١ ملحمة يوسف وزليخة بالبنغالي في القرن الخامس عشر. وفي أدب منطقة دكان المكتوب بالأردية في المناطق الجنوبية الهندية ظهر في القرن ١٧ العديد من الأشكال الأدبية للقصة مثل شاعر القصر مالك خوش نود[156] في بلاط محمد عديل شاه[157] في بيشابور. وفي أواخر القرن السابع عشر نجد زليخة في شعر هاشم[158] تتكلم "الرختى"، وهي لهجة أو أسلوب النساء في الأردية وأيضًا الشاعر مير علي أمين[159] من جوتشارات الذي أسبل على زليخة زي المرأة المحتشمة كما أشار لذلك أحد النقاد. أما عن الروايات الشعرية التالية عن زليخة ويوسف في المنطقة الشرقية فتكاد لا تُذكر. ومن الطبيعي أن يحتل الموضوع مكانة في تركيا العثمانية فنرى حمدي[160] المتوفى عام ١٥٠٣ ابن المتصوف الرائد اق

---

156 مالك خوش نود هو شاعر أردي في بلاط بيجابور توفي عام ١٦٤٠.

157 محمد عديل شاه : (توفى عام ١٦٥٦)هو حاكم بيشابور (وهي حاليًا فيجيابورا في مقاطعة بياجابور في كارناتاكا، في الهند، تشتهر بالآثار والعمارة من حكم عديل شاه وتبعد حوالى ٥٥٠ كم من مومباي)، استمر حكمه مدة ثلاثين عاما اشتهر حكمه بطفرة كبيرة في العمارة. دفن في جول جومباز بالقرب من مقبرة معلمه الصوفي حظرة هاشم بير.

158 هو هاشم شاه (١٧٥٣ ـ ١٨٢٣) يعد الشاعر الصوفي الوحيد الذي لم يدع أو ينسب لنفسه قدسية لذلك لم يرد في سير الأولياء أو الفقراء كما يسمونهم هناك، إلا أن من ذكره هو بابا بود سند في تاريخ أدب البنجاب، حباه الله بهبة الكتابة منذ صغره ويبدو أن كبراء السيخ قد قدروه، منهم راعي الأدب في بلاط السيخ راجيت سنج الذي ارتبط به ارتباطا قويا درس الفارسية والعربية ولغات أخرى لا نعلم عن شخصه الكثير إلا أنه كان باحثا حقا عن الله مؤمنا بالعقائد الصوفية وإن لم يشر إليها صراحة في شعره الذي تميز بالرومانسية الدينية اعتاد أن يشير في شعره إلى "منصور" أي منصور الحلاج، و"شمس التبريزي".

159 مير علي أمين شاعر من جودجرات توفي عام ١٧٠٠

160 شاعر تركي توفي عام ١٥٠٣

شمس الدين المربي الديني للسلطان محمد الفاتح كتب أحد الأعمال المؤثرة التي وصف فيها "أنين زليخة" من الجمال الأخّاذ:

"يوم أن بُذرت آلام العشق، غاص الحب

دعني أنضج بماء آلام، فقد ارتوى الحب،

ولما اعتصرت الآلام أذنيّ، أرسل الحصادُ الحَب إلى الريح في غمضة عين، منذ أن عهد قلبي الشغف على الخليل فقد جعل الحب الأصدقاء المقربين يغربون عني، حتى أن الصحة جافت سلامها لي منذ أن استقبلني الحب باللوم مرحبا، فسناتُ النوم جافت عينيّ المملؤة بالدمع، فلا أعلم إلى أين يدفعني الحَب في نهاية المطاف".

ودومًا ما أشير إلى بعض الموضوعات من قصة يوسف وزليخة في الملاحم والشعر مع بعض التغير. وتُعتبر أولى الموضوعات التي لاقت اهتمامًا في القصة، هو المزاد الذي بيع فيه العبدُ الوسيم وتصارع عليه القوم لشرائه، إلا أنه ظهرت امرأة مسنة فقيرة حاولتْ أن تُعلي السعر من أجله، وهي جسّدت الاشتياق الوقور الممدوح حتى وإن لم يصل إلى هدفه.

ولكي تغوي زليخة يوسفَ جربت كل الحيل، فتركت القصر يُزين بصور حسية، فحيثما يقع نظر يوسف يرَ هو وزليخة مباهج الحب. وقد أشير إلى هذه التصورات المفصلة للمشهد كما هو متوقع في ملحمة جامي، إلا أن قبل جامي بأكثر من ٤٠٠ عام، قام السطان مسعود من

بيت غزنة[١٦١] ببناء قصر صيفي حيث عاش جامي في حيرات وزينه برسومات حسية، فربما تركت تلك الرسومات أثراً في وعي حيرات قد يكون استمر فيما بعد وتأثر به جامي. ومن البديهي أن يتاثر رسامو المنمنمات في القرن السادس عشر بتصورات جامي الشعرية: مثل القصر الضيق ذي السلالم الصاعدة صعبة المرور التي يحاول يوسف الوسيم الهرب من خلالها، فقد مُثلت أكثر مرة. وفي مثل هذه الصور تظهر زليخة كامرأة جذابة ذات رداء أحمر (والأحمر عمومًا هو رداء العروس في الفرح، وأيضًا يعبر كلون بشكل عام عن الحب المتوهج)[١٦٢]، بينما يُمثل يوسف في رداء أخضر معبّراً عن القديسين والأنبياء عمومًا، كما أن أهل الجنة كانوا يمثلون أيضًا بذلك اللون. إلا أنه من أكثر مشاهد الإغراء إثارة لزليخة، هو موقف زليخة من صورة إله وثني كان معلقًا في غرفتها وهو ما يدل على أنها كانت على دين خاطئ في تلك المرحلة، إلا أنها غطت تلك الصورة حتى لا يراها إلهها أثناء غواية يوسف، ولابد أن يكون هذا المشهد قديم جداً فلقد وصفه الكاتب المتصوف الحجويري[١٦٣] المتوفى عام ١٠٧١، فذكر في كتابه:

---

١٦١ للأسف لم تحدد المؤلفة أي مسعود تقصد حيث حمل ثلاثة سلاطين من بيت غزنة اسم السلطان مسعود لكنه أغلب الظن مسعود الأول: (٩٩٨ - ١٠٤١).

١٦٢ نعم يعد الرداء الأحمر هو فستان العرس في جنوب آسيا حتى الآن في كل من الهند وباكستان.

١٦٣ أبو الحسن علي بن عثمان بن أبو علي الجلابي الهجويري الغزنوي: ( ٩٩٠ - ١٠٧٧) كاتب فارسي متصوف، صاحب مؤلفات عديدة في التصوف الإسلامي أهمهم "كشف المحجوب" يعتبر أقدم كتاب تعليمي عن التصوف، "كتاب البيان لأهل العيان" و"الديوان". لعب دورا هاما في نشر الإسلام في جنوب آسيا وارتحل كثيرا ما بين العراق

"على كل فرد أن يتعلم من زليخة كيف يُحسن المرء التصرف، وكيف يتأمل المرءُ معبودَه موضعَ تضرعه. فلما اختلتْ بيوسف وتوسلت له أن يحقق لها أمانيها، غطت أولا صورة إلهها الوثني حتى لا يشاهد النقصان في حسن تصرفها" .

ووصف جامي نفس المشهد، وتكرر في ملحمة أخرى تُدعى "سبحات الأبرار" صفحة ٥٢٦ كيف أنها خجلت من إحدى الصور، كما أوضحت ذلك ليوسف فاستحى من الله المطلع على كل شيء وتركها سريعًا. وتناول جامي موضوع صورة الإله الوثني أيضًا في نهاية ملحمته الضخمة لما يأست زليخة العجوز أن يميل إليها يوسف، حطمتْ تمثال ذلك الإله لأنه لم يساعدها. وبعد أن تخلتْ عن الأوثان، عثرت بأعجوبة على ضالتها أخيرًا بعون الإله الحق، واتّحدت مع المحبوب.

هذا هو طريق الهدى، أن تعود إلى الإيمان القويم إلا أن متصوفًا مبكرًا يُدعى يوسف ابن حسين الرازي[١٦٤] المتوفى عام ٩١٦ رأى الموضوع بصورة أعمق:

" كلما ازدادتْ زليخة رغبةً في يوسف، كلما انحدرتْ، إلا أنها عندما تخلتْ عن رغبتها، أعاد الله لها الشباب والجمال. فعندما يقود

---

وسوريا وإيران. يقع مقامه في مقصورة حظيت داتا جندش بتش حتى الآن في لاهور باكستان.

١٦٤ هو أبو يعقوب يوسف بن حسين الرازي: من أعلام التصوف السني في القرن الثالث هجريا، كان كثير الترحال وتأثر بذى النون المصري، وأحمد بن أبي الحواري ورافق أبا سعيد الخراز. من أقواله "الصوفية خيار الناس، وشرارهم خيار شرار الناس فهم الأخيار على كل الأحوال".

العاشق، يتراجع المحبوب لكن عندما يكون العاشق مكتفيًا فقط بالحب، يقترب المحبوب". وبذلك تُصبح زليخة روح المرأة التي أمضت حياتَها تائبة وفي شوق دائم.

"فإن لم تكوني زليخة وإن لم تنسحقي في مطحنة الحب، فلا تتحدثي إذن في لغو عن يوسف الكنعاني"

وحذر الشاعر الصوفي الغزنوي سنائي المتوفى عام ١١٣١ أن مَن يعرف الآلام من أجل يوسف يكون له الحق في الكلام عن الحب. فيعلم الشعراء أن "حب زليخة مزّق عنها حجاب العفاف" كما أشار حافظ، وأصبحت رمزًا لكل من تعاني الشوق الغير متحقق، وأضحت بطلة مقدامة وراسخة تقبل بأي شيء من أجل رغبة محبوبها. "لا يرى الناس إلا رداء يوسف المقدود من دبر، ولا يرى أحدًا قلبَ زليخة المقدود المحطم؟"

ويتساءل آزاد بلجرامي[165] في منتصف القرن الثامن عشر في الهند عن تلك التي قضت عمرها العفي في الأسى، وجلست مبتسمة على قارعة

165 هو ميرغلام علي حسين واسطي: (١٧٠٤ - ١٧٨٦): كان دراسا للغة العربية والفارسية والأردية في الهند في القرن الثامن عشر. ويعرف بغلام علي آزاد بلجرامي، قد اكتسب شهرته من معارفه اللغوية والأدبية الكبيرة فضلا عن بلاغته التي اكتسبها من الدراسة على يد كبار العلماء في عصره. سافر من بلجرام محل ميلاده في الهند إلى مدينة دلهي وسافر إلى لاهور وملتان حاليا في باكستان ومكة والمدينة بعد رحلة الحج. وهب نفسه لدراسة صحاح الست للبخاري ومسلم النيسابوري وابن ماجه وأبو داود وأبو عيسى الترمذي وأبو عبد الرحمن النسائي. ابتعد عن ملذات الدنيا وآثر الفقر والبساطة كان صديقا لشاه نواز خان صاحب كتاب مصائر الأمة، بعد اغتياله قام ميرغلام بجمع كتبه وأعماله ونشرها. ألف ديوانين بالعربية والفارسية ومن أعماله ذات القيمة العالية قاموس الشعراء الذي ألفه

الطريق لتُلقي نظرةً على يوسف إلا أنه لم يُرد أن يعلم من أمرها شيئا، وأشار العطار بذلك في "مصيبة نامه" :

" فلما أراد يعقوب زيارة ولده من كنعان اتجه إلى مصر، وقد زينها المصريون كلها، من أولها إلى آخرها، ولما سمعت زليخة بهذه البشرى ألقت بنفسها هناك كلية إلا منها، فغطّت جلدها بحجاب، وتربعت باتضاع لأن يوسف يجب أن يمر من هنا. ورأى يوسف المرأة الحزينة المتألمة، وكان على جواده وفي يده الكرباج وضرب المرأة الممسوسة التي أعياها الحب، فأطلقت تنهيدة من أعماق قلبها أحرقت بجمرها الكرباج، ولما اشتدت النيران ترك يوسف كرباجه يسقط على الارض يائسًا. وهنا تكلمت زليخة "يا ذا الإيمان القويم، إن الحمل لا يناسبك ولا تقوى على حمله، فالنار تنطلق من قلبي وأنت لا تقوى على حملها في يدك؟ فالنار قد ملأت قلبي لسنوات وأنت لاتقوى على تحملها للحظة! فأنت أول المؤمنين وأنا امرأة! أيظهر هذا إخلاصك لي؟ "

وتُصاب زليخة بالعمى من كثرة البكاء مثل يعقوب، وتأمل في أنفاس يوسف الحاضرة كما أشار بذلك حوجويري[166] :

" ومن فرط حب زليخة الكبير ليوسف كانت متأهبة للموت، إلا أنها لم تغلق عينها قبل أن تجتمع أو تلتقي بيوسف "

---

باللغتين. أيضًا من أعماله "أنيس المحققين" الذي يتناول فيه سير أولياء أهل الهند، و"غزلان الهند" الذي يشرح فيه الأنوثة الهندية المتمكنة في الأدب الفارسي. احتفت به كل من الهند والجزيرة العربية ومصر لما قدم من أعمال رفيعة.

166 سبق ذكره

والأمر الوحيد الذي صبّرها وأعاشها هو تفكيرها في يوسف، فلا تتفكر إلا في اسمه كما تتفكر الروح دومًا في الإله المحبوب، وهو ما وصفه ابن عربي في الفتوحات المكية (الجزء الثاني صفحة ٣٧٥) قائلا:

"ويقال إن زليخة أصابها سهم ولما تساقطت نقاطُ دمها على الأرض تساقطت في مواضع عديدة لتكتب اسم يوسفَ..، حيث إنها كانت دائمة التكرار للاسم مثلما يجري الدم في عروقها"

ويُروى عن أحد الصوفية المبكرين أن دمه قد سال على الأرض كاتبًا اسم الله على التراب بعد أن تعرض لحادث ما. إلا أن ابن عربي وظّف قصة زليخة كحكاية عندما أراد أن يتحدث عن دم الصوفي الشهيد الحلاج الذي تساقط ليكّتب من توه اسم الله.

وبعدما تحملته زليخة من شوق وخيبة أمل إلا أنها كوفئت على إخلاصها الراسخ حتى أضحت مثلا "فمن تصبر مثل زليخة؟" كما علم السنائي قراءه أثناء تناوله لنفس الموضوع في أكثر من مرة، إلا أنه يعلم أن الاقتراب من المحبوب له قوة إعادة الشباب.

"فعندما تشيخ قوى جسدك وتصبح مبتئسًا من جراء اتباع آلام الروح المندفعة احذُ حذو زليخة تعد روحك شابةً من جراء الشوق للخليل"

وصوّر العطار في الجيل التالي من الشعراء الصوفيين عودة الشباب بصورة دراماتيكية في مشهد مؤثر في كتابه "إلهي نامه":

" يوم أن رأى يوسف الطاهر زليخة جالسةً هناك على قارعة طريق ترب، واغتمَ العالم في عينيها، فلقد كان غائمًا في عينيها الدنيوية، فلقد ضَربَها المرضُ والفقر، وتحمّلته نفسها بآلاف الحيل والطرق فكل تنهيدة كانت محملةً بالاضطراب، فقط كان يوسف وحده ما يهدئ فكرها وخاطرها. جالسةٌ هي على قارعة الطريق ممتلئة أملا وإيمانا في نفحة من تراب طريقه. أليس ممكنًا أن تصعد حفنةٌ من التراب من على قارعة الطريق لتستقر عليها؟ "يا إلهي" صاح يوسف لما رآها: "ماذا تريدين من رفات حقيرة؟ لماذا لا تنفضينها عنك فذلك يجلب العار لصاحبك في بلدك؟ وبسرعة اقترب جبريلُ بكلام الله "أنا لن آخذها من قارعة الطريق، فهي تحمل عالمًا مشبَعًا بالحب، لأجل من أحب، وهو قريب مني! فهي مستمرةُ في حبك وأنا أحب المسكينة لأجل خاطرك! ومن قال لك أن الورد له أن يموت؟ أو أن يفنى أصدقاء سريعًا؟ فلقد بثتُها اليأسَ لعشرات السنوات ولأجل خاطرك أعيدُها إليك شابة. فهي من وهبت روحها كليًا لك فكيف لي أن أمرضها؟ فسأهبُها لك! فلقد أحبتْ يوسفنَا حبًا جمًا، فمن ذاك الممتلئ بغضاء الذي يقدر على أن يميتها؟ وهي مَن فقدتْ نورُ عينيها من الشوق، وتشهد دموعُها على حبها، وبرهانُها يحملُه العاشقون معهم، فبهاءها يتجدد ويزيد يوميًا".

وهكذا أضحت زليخة العاشقة تجسيدًا للروح الإنسانية "النفس"، كما أشار بذلك القرآن في سورة يوسف أنها "الأمّارة بالسوء" إلا أنها بالجهاد الداخلي المستمر، والمعاناة تتطهّر وتصبحُ أخيرًا "النفس المطمئنة" التي تعود إلى بارئها. فرائحةُ قميصِ يوسف كانت تطمئنها

وتمكنها من رؤية الجمال، فالعطر بشارةُ المحبوب، ونَفَسُ الرحمن والقربُ من المحبوب يعيد الشباب للمرأة المسنة التي أعياها الأسى.
وصور الشاعر جامي وغيرُه ممن احتذوا حذوه فرحَ الزوجين بكل تفاصيله، فزليخة العروس العاجزة، أصبحت بتولاً مرة أخرى، والآن يقد يوسفُ المحب قميصَ العروس المحتجبة كما أرادت أن تقد قميصَه ذات مرة. إلا أن هذه التفاصيل لا علاقة لها بالبعد الصوفي لشخصيات القصة، التي عبرت بحنكة عن التكامل الأبدي بين الجمال والحب، كما عبّر بذلك جامي في المقدمةِ الشعرية لملحمته بروعة واقتدار.

## الفصل الرابع

# امرأة أم "رجل الله" عن تزكية النفس

تمثل زليخة في القرآن المرأة الغاوية، وبالنسبة لهؤلاء ممن يحيون في زهد وخوف من المرأة فلابد أن تلك القصة قد أسعدتهم، فسورة يوسف تشجب صور الإغراء، والمراد منها الحديث عن النفس التي وصفت "بالأمّارة بالسوء" سورة يوسف آية ٥٣ ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. ألم تكن كلمة "النفسَ" مؤنثةَ نحويًا لذلك أصبحت رمزًا للمرأة التي تقودها حسيتُها إلى المشاعر الدينية، والسعي الدائم أن تمنح الرجال العقلانيين؟ فلها نصيب أكبر من الصفات الحيوانية، وتحاول دومًا أن تغوي الرجل بأنشطتها الجنسية.

ولعل التقدير الكبير للصِّبْيان في كل الثقافات أمر معروف، فهناك طقوسٌ معلومة للإعلان عن ميلاد الصبي، بينما يأتي ميلاد الأنثى مصحوبًا بالإحباط، لذلك يعد من عجائب الأولياء المسلمين أن تُلف البنت الصغيرة في زي صبي...

إنه الخوف من السيدات فكما قال عنهنّ النبي "إنهن يغلبن العقلاء أو الأذكياء" قد انعكس بدوره في العديد من الملاحظات والحكايات في عصر الإسلام المبكر "*المرأة شرّ كلّها، وشرّ ما فيها: أنه لا بدّ منها*" كما قال ذلك علي ابن أبي طالب. إلا أن كونه زوج ابنة النبي فاطمة فكان ينبغي له أن يقول قولاً إيجابيًا. وفي حال صحت هذه المقولة التي نسبت إليه، فربما قيلت بعد موت فاطمة بثلاثين عامًا، والزواج عدة مرات بعدها. وعندما يشير القرآن إلى النفس أنها أمّارة بالسوء، يردُ نفسُ المصطلح في القرآن لكن بصفات أخرى فهي "النفس اللوامة" سورة ٧٥ آية ٢ ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ و"النفس المطمئنة" سورة الفجر آية ٢٧﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾. والتي تُوصف بـ "المطمئنة" والمطمئنة (فاعل ومفعول) أي تلك التي تعود إلى بارئها. وبصرف النظر عن الثلاث مواضع التي ذُكرتْ فيها النفس، إلا إنها تظل مفردةً حرةَ المعنى يُعنى بها "النفس" عموما.

تحتل المواضع الثلاثة للنفس الوارد ذكرها في القرآن مكانةً هامة في الوصايا والتعاليم الصوفية لمحاربة "النفس الأمّارة" وتزكيتها إلى أن تصل إلى أعلى المراتب المأمولة لها. ألم يقل النبي أن ألد أعداء الإنسان هي النفسُ وأن محاربتها هو "الجهاد الأكبر"؟

وترد النفس في معناها الرصين في الكتابات الدينية كـ "نفس أمّارة" للتعبير عن قُوى الإنسان الدنيئة، وهناك عدد لا يُحصى من قصص الأليجوري (الأمثلة الأدبية) التي تعالج "ترويض العنيدة" والتزكية القاسية للنفس. ولعل من أهم تصويرات النفس على الإطلاق هو

تصويرها في هيئة امرأة، فهي تمثل العنصر الأنثوي الذي عليه الخضوع "للعقل"، الذي يجب عليه تزكيتها وترويضها.

لذلك تظهر النفس في العديد من الكتابات وخصوصا في مثنوي الرومي كأم الإنسان والعقل كالأب. ويلاحظ في أبيات الرومي التصورات الواقعية الحية للنزاعات الزوجية بين الاثنين تجادل فيها الأم الطيبة الشجاعة مع الأب عن ابنها الغض، فهي لا تريده أن يذهب إلى المدرسة ولكن من الأفضل أن يظل بجانبها مدللاً بينما يريد الأب والمقصود به "عقل الانسان" أن يرسل ابنه إلى المدرسة لينال تربية جيدة فيرسله إلى مدرسة قاسية، حتى يتمكن من أن يتقدم في طريقه نحو الكمال (مثنوي الجزء السادس، ١٤٣٣)[١٦٧].

وتبدو النفس أيضًا كالأم المربية للإنسان التي تظهر دومًا من آن لآخر في طريقها لتعبر عن النفس اللوّامة، التي لا تكف عن اللوم والتوبيخ والشكوى التي تشكل صاحبَها مع مرور الزمن، وحبها لا يبدو واثقًا من نفسه. وفي القصة الأولى من المثنوي (مثنوي الجزء الأول ٣٦ حتى ٢٤٥)[١٦٨] يحدثنا الرومي عن الأمة التي أمرضها الحبُّ، ويمكن فهم دورها الأليجوري (التمثيل الأدبي) في فطام النفس الأمارة عن "الدنيا".

---

١٦٧ "أليست هذه الأم تقول صراحة للأب" أن طفلي قد أضحى من المكتب نحيلا جدا" ولو أنك قد أجبته مرة أخرى لكان جورك وقسوتك عليه أقل" "انتبه وفر من هذه الأم وإغوائها، إن صفعة الأب خير من عسلها، إن الأم هي النفس والأب هو العقل العظيم أوله ضيق وآخره مائة فتح".

١٦٨ وردت في ترجمة شتا تحت مسمى "طلب ذلك الولي خلوة من الملك من أجل إدراك مرض الجارية".

وتلعب الفتاة المريضة التي وقعتْ في حب الصائغ دور العالم المادي المغري (زخرف الحياة الدنيا)، بينما الطبيب الذي يعالجها يأخذ دورَ العقل الأول، وعلاجُها بأن يستل الطبيبُ منها الحبَّ غير المجدي حتى تتراجع، وتُوجه حبها إلى المقصد الحقيقي وهو الملك.

وغالبًا معظم البطلات في الحكايات الصوفية والملاحم هن تجسيد للنفس، وتفتح تلك المقاربةُ احتماليةَ ارتقاء وصعود المرأة روحيًا وأن كل مَن بدا على هذا النحو من الشخصيات الضائعة يتحول إلى "رجل الله" وهو ما يوازي "النفس المطمئنة" التي تصل إلى مبتغاها.

وعادة ما يُتغنى بنساء مثل زليخة وبلقيس في الأدب الكلاسيكي في العالم الإسلامي، لما لهنَ من دور موظف بقوة في قصص الحب في إسلام الهند. وبما أن كل امرأة تُعد تجسّيداً للنفّس لُذلك ينبذها "رجال الله" حتى أن الدنيا دومًا ما تتمثل بالمرأة، ولغويًا هي مؤنثٌ مثلها. وبالفعل عرف الكتاب المسيحيون في أوروبا إبان العصور الوسطى كالصوفيين تيمة "المرأة ـ الدنيا" كعجوز مشعوذة منبوذة، تسحر الرجال الأغبياء بجمالها الباهر، وتلتهمهم وتُظهرالدودَ الملتهم ظهورَهم، وتكشف عن سيقانهم المنفرة السوداء المزرقة اللون. وبعَد غوايتهم تكون قد تحققت مآربها. مثل هذه التصورات الرهيبة يجدها المرء بين طيات نصوص القرون الوسطى التي لا ترقى حتى إلى مستوى الكوميديا الفظة.

"من هذه الأنثى العجوز البائسة إذن؟ إنها سيئة الذوق، منافقة، طبقة فوق طبقة مثل البصلة الصغيرة المتعفنة أو مثل فص الثوم الصغير" (د. ٢٧٧٦)

هكذا وصفها الرومي وأشار إلى حيل هذا الوحش في مجلده السادس من المثنوي، فلكي تُخفي تجاعيدها مزّقت نسخةً من القرآن رائعةَ النقوش (وهو ما يُعتبر تدنيس خاص للمقدسات حيث يتمتع القرآن بتقديس عال ويجب أن يعامل باحترام فائق، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يُمَزّقَ) وقامت بلصق القطع الموشاة من القرآن على تجاعيدها لإخفائها لكي تبدو رائعة (مثنوي الجزء السادس ١٢٢٢ حتى ١٢٣٦، و١٢٦٨ حتى ١٢٨٢)[169]! فهناك شاعر صوفي بنجابي من القرن التاسع عشر وصف الدنيا المخيبة للآمال بـ "البنجلام" وتعني "ساحرة بنغالية كبيرة" تسحر الجميع بنايها وتُضلّ من يسمعها فيقوم بأعمال خرقاء.

إلا أنه في أغلب الأحيان ينجحُ الزاهدُ في أن يقود هذه المشعوذة بمساعدة قواه الروحية التي تخدمه، لأن من أطاع الله أطاعه كل شيء (من العالم المغلق). وعلى المرء أن يتفكر في المقولة الحكيمة ليحيى ابن معاذ[170] المتوفى عام ٨٧١:

169 وردت في ترجمة شنا تحت مسمى "قصة تلك العجوز التي كانت تخضب وجهها بالخضاب والأحمر ولم يكن ينفع فيه أو يكون مقبولا وما بعدها" وتقصد شمل هنا تلك البيت" ووقفت أمام المرآة تلك العجوز حتى تزين الوجه والوجنة، والقدم دهنتها ببضعة أصباغ بطرا، لكن الصفرة التي في وجهها لم تزدد خفاء فأخذت تقطع علامات الإعشار من المصحف وتلصقها على وجهها تلك الدنسة" والشعر يحتمل أكثر من تفسير مثل تيمة "المرأة الدنيا" التي أوردتها شمل أو يقصد به المدعين من المريدين الذين يتزينون بكلام المشايخ وهم أبعد ما تكون أنفسهم عنه.

170 يحيى بن معاذ الرازي: (توفى عام ٨٧١) متصوف فارسي، ارتحل إلى بلخ إلا أنه عاد إلى نيسابور وتوفي فيها. ترك العديد من المؤلفات والأقوال أكد فيها على "الرجاء" "الأمل في الجنة" والغفران من الله، لكن فُقد للأسف معظمها. كان تلميذا لابن كرام. ترك مدينة مولده "الرى" بالقرب من طهران حاليا وأقام في بلخ فترة.

"إنسان الدنيا يزين الدنيا كما لو كانت عروسًا، أما الزاهد فيُسودّ لها الوجهَ ويقطع لها شعرَها، أما عاشقُ الله فلا يقيم لها وزنًا".

وحتى إن حاربها المرء فذلك يعني اهتمامًا ما بها، وهو ما يُعتبر حيادًا عن الهدف الحقيقي للطريق الديني. وتوظف تيمة "الدنيا ـ المرأة" في إطار معين جدا: فالروح أشبه بالصقر الجسور الذي تسقطه سيدة عجوز خبيثة في يدها، وهو ما يعبر عن أسطورة سقوط الروح في عالم المادة أو في المنفى التي عبّر عنها الشعراءُ الفرس خصوصًا بتلك الصورة، وحتى اليوم تظل رياضةُ صيد الصقور محببةً في الشرق الأوسط. وتحفظ العجوزُ الصقرَ في قفص وتقرب عينيها منه وتلبسه قبعة فوق رأسه، وهكذا ينسى الطائر النبيل موطنه الأصلي الذي كان يحيا فيه بحرية، حيث كان محمولاً على يدي أميره. وقد عبّر عن هذا المغزى السهروردي سيد الشراق المتوفى عام ١١٩١ بأليجوري في قطعة نثرية (الغربة الغربية)، وعبر الرومي بنفس تيمة الطائر المحببة لديه، فرسم معاناة روح الصقر الأسير عند العجوز ففي فصل من المثنوي (مثنوي الجزء الرابع ٢٥٥٧)[١٧١] هي تُحاول أن تربيه على مبادئها وشاكلتها فتشجعه بالأجنحة والمخالب، وتطعمه بأشياء يمقتها أو أشياء لا يحصل عليها، ولما يرفض شرب شربة الشعرية الحلوة التي تقدمها له، فإنها ببساطة تصب شوربة المرق فوق رأسه:

---

١٧١ وردت في ترجمة شنا تحت مسمى "قصة بازي الملك والعجوز" فعندما تصب العجوز الحساء المغلي على رأسه يصاب البازي بالقرع ويسيل الدمع من عينيه وهذا جزاء العين التي لا ترى إلا الملكوت والعالم العلوي فتصاب باليأس من عيون الدنيا التي لا ترنو إلا إلى أسفل.

"يا أيتها العجوز القذرة هل فعلاً كنت تقصدين خيراً؟"

ومثلما يسخر الرومي كما تبين، كيف لتلك "المرأة ـ الدنيا" أن تعلم حاجات طائر الروح؟

ومثل هذه الصور السلبية عن الأنثى معروفة في كل التيارات الدينية الزاهدة، سواء أكانت في تعاليم بوذا أو اللاهوت المسيحي. ويُعد خوف الزهاد من "الشهوة" هو ما قادهم إلى ذلك التصور "إن مجتمع المرأة يجرف الحياة" مما ولد الميل إلى الحياة البتولية لدى الجيل الأول من الصوفية، ومن المؤكد أن هناك العديد من الزهاد كان من الأفضل لهم الحياة بدون زواج، ألم يكن الزواج من السنة الصحية التي سنها النبي؟. لذلك تكثر العديد من القصص عن هذا الزاهد وغيره ممن رأوا النبي في أحلامهم يعاتبهم على عدم اتباعه في سنة الزواج، حتى يكون عضواً فاعلاً في الأمة. والعديد نفذوا ذلك المطلب إلا أن الموقف العام للزهاد يبدو في أفضل حالاته متناقضاً، فنُسب إلى إبراهيم ابن أدهم[١٧٢] المتوفى عام ٧٧٧ التالي:

"عندما يتزوج المرء، فإنه يركب سفينة، وعندما يُولد له طفل فإنه يعاني من غرق السفينة"

---

١٧٢ هو إبراهيم ابن أدهم، أو أبو اسحاق ويقال له التميمي: (٧١٨ ـ ٧٨٢) من بواكير الزهاد والمتصوفة، تشبه قصة اعتناقه للإسلام قصة تحول الأمير بوذا الذي ترك مملكته وآثر الزهد. ونسب له العديد من النوادر والحكايا عن زهده التي تتناقض كليا مع بداية حياته كملك لبلخ، التي كانت قبل الإسلام مركزا هاما للبوذية. ذكر مولانا الرومي قصة إسلامه بتفاصيل مثيرة في المثنوي. وورد في سيرته أن أول مرشد روحي له كان راهبا مسيحيا يدعى سمعان سرد بعضاً من حواراتهما معا. وورد الكثيرعن سيرة حياته مزخرفة بتفاصيل غير تاريخية كتبت بالفارسية عند مولانا الرومي وبالأردية، وكذلك بلغة الملايو (أي الماليزية).

حتى إن صوفيًا كبيرًا في وزن مولانا الرومي الذي تمتع بزواج سعيد كتب قطعة نثرية من كتاب (فيه ما فيه الفصل ١٧)[173] محملاً بالإشارات السلبية عن الزواج. "فالنساء خُلقن لكي يربيهن المرء ويتحمل بصبر أفكارهن السخيفة، كما يزيل المرء الأوساخ عن قطعة محارم، فالصراع والهزيمة المستمرة التي يتطلبها الزواج لا يكون إلا للأقوياء، ومن لا يرى نفسه قادرًا فليتبع طريق عيسى يعني أن يختار حياة البتولية والمعاناة". ومثل الرومي تصويرًا دراماتيكيًا لإحدى الزيجات الصوفية (بالرغم من معرفتنا أن كثيرًا من هذه الزيجات تبدو ناجحةً فعلاً عندما يكون الزوجان على نفس القدر والاهتمام بالحياة الدينية واهتمام الزوجة ينصب في "أهل الله"). فيحكي مولانا في المثنوي (المثنوي الجزء السادس ٢٠٤٤)[174] كيف أن شابًا أراد زيارة الشيخ الخرقاني[175] المتوفى عام ١٠٣٤ إلا أنه علم من زوجة الشيخ كيف أنه أخرقُ عديمُ النفع، حتى أنه

173 في ترجمة عيسى الكاعوب أورد ذلك المعنى تحت الفصل العشرين تحت عنوان "شراع سفينة وجود الإنسان" لعل شمل استندت إلى مخطوطة تختلف في ترقيمها عن المخطوطة التي عاد إليها كاعوب.

174 وردت في ترجمة شتا تحت مسمى "حكاية مريد الشيخ أبي الحسن الخرقاني قدس الله سره" وما بعدها.

175 هو أبو الحسن الخرقاني: (٩٦٣ ـ ١٠٣٣) يعرف باسم الخرقاني أحد متصوفة الإسلام من فارس في خراسان، في قرية خرقان بالقرب من بسطام، كان تلميذ الشيخ أبو العباس القصاب الذي كان على صلة مع أبي يزيد البسطامي، أفرد فريد الدين العطار في تذكرة الأولياء جزءا كبيرا له. كان شيخا ومربيا لصوفية آخرين شهيرين مثل عبدالله أنصاري، ابن سينا. شاه محمود الغزنوي. أبو سعيد أبو الخير وغيرهم. كان أميا إلا أنه امتلك معرفة كبيرة عن القرآن والحديث اشتهرت أقواله وخطبه بسبب آرائه الفلسفية كان شافعي المذهب. من الأعمال التي تنسب له "نور العلوم" الذي أهداه له مريدوه بعد وفاته، نسخته الوحيدة في المتحف البريطاني.

يأس وخاب أمله وظل سائرًا في الغابة. وهناك قابل الخرقاني راكبًا على أسد، وفي يده أفعى يستخدمها ككرباج، فأوضح الخرقاني للضيف المندهش أن هذه هي مكافأة الله له جزاءَ صبره الطويل على زوجته الكريهة.

ويعد الزواج لبعض الصوفية بمثابة نذيرًا للجحيم أو بديلاً لعقوبة منتظرة: فلما أراد يونان أن يجرب نصيبه من عقوبة جهنم، عرض عليه ان يتزوج بامرأة معينة ف"عقوبتك هي الزواج من ابنة سوندسو فتزوجها". فما قصده مالك ابن دينار أن على المرء أن يترك زوجته حتى يتوجه إلى الله كلية فقال:

"إن يرِد اللهُ عبدًا له، يمت له زوجته ويجعله يتوجه إلى طاعة الله وحده"

إلا أنه يمكن للزوجة الشريرة من خلال معجزة من زوجها بطريقة أو بأخرى أن تُرد إلى سواء السبيل. وبالرغم من الكم الكبير من الملاحظات السلبية عن الزوجة، يسعد المرء بتلك الملاحظة السعيدة التي نقرأها عند المتصوف الهندي من دلهي مير دارد[176] (المتوفى عام ١٧٨٥) والذي يصدمنا بالتالي "أحب زوجتي وأبنائي بخصوصية فائقة، وأراني أسيرَ حبُّ المرأةِ والولد، فاللهُ يعلم إن كان هذا ناتجا عن قُوى (أو ميول)

176 هو خواجة مير دارد: (١٧١٢ ـ ١٧٨٥) أحد أشهر ثلاثة شعراء في مدرسة دلهي مع مير تقي مير وميرزا سودا وينظر لهم باعتبارهم مؤسسي الغزل في الأدب الأردي. يعتبر جل أعماله هي "علم الكتاب" ويشمل ما يقرب من ستمائة صفحة تضم بين طياتها أفكاره الإلهية وفلسفة الطريق المحمدي و"شهر رسالات" وهي مجموعة مما يزيد عن ألف مقولة صوفية من أقواله.

حيوانية أو بسبب الخلقة الإنسانية أم بسبب الحب الحسي الخالص، أم لأنهم مظهرٌ للقوة الإلَهية المتمثلة في رحمته".

إلى أي مدىً نحن بعيدون اليوم عن مشاعر الزهاد المتشددة ممن يتحملون الذنوب بسبب الميل إلى التربيت على طفل أو إلى تقبيل أولادهم، فذلك بالنسبة لهم حياد عن التركيز الكلي لحب الله وذلك ما أشار إليه الرومي قائلاً:

"إن موت ولده كان حلاوةً له"

(وهو موقف يراه المرء حاضراً بين القديسات المسيحيات مثل كاترينا من جنوا[177])، ونرى سهل التستري[178] في العصر الإسلامي المبكر يؤكد على أهمية الحب الزوجي أو بين الأزواج قائلاً:

"إن حبك لزوجتك باقٍ لما يتضمنه من خير وحنان، أما حب الله فلا ينقص أبداً!"

فكل لقمة يضعها الرجل بحب في فم زوجته يثابُ عليها في السماء، ومثل هذه الأفكار عولجت في عصورٍ متأخرة نسبياً بعد ابن عربي من قبل بعض المتصوفة مثل ما أظهرته كاملا ساشيكو موراتا[179] في رسالة لها.

---

١٧٧ كاترينا من جنوة: (١٤٤٧ ـ ١٥١٠) قديسة إيطالية كاثوليكية ومتصوفة، عُرفت بخدمتها للفقراء والمرضى، كُتب عنها العديد من الكتابات التي تخلد أعمالها الخيرية وتجاربها الصوفية. قضت جل حياتها في خدمة المرضى خاصة أثناء الوباء الذي اجتاح جنوة عام ١٤٩٧.

١٧٨ سبق ذكره

١٧٩ سبق ذكرها

إلا أنهم فقط المختارون هم المنوط بهم تحقيق أسرار الزواج، التي أقرّها الرسول، ويمكن اتباعها فيتحققُ بالاتّحاد الجسدي الغوصُ في الإلهي.

ويعد تصور المرأة كائنا غير مكتمل "ناقصات عقل ودين" (معروفًا وسائدًا أيضًا في لاهوت العصور المسيحية الوسطى) ويُعزى هذا النقص في التقاليد الإسلامية الشعبية إلى أن حواء لها دور في قصة الخروج من الجنة كما أشير في قصص الأنبياء، وهو تصورٌ غريب عن القرآن. ويضاف إلى ذلك أنه في أوقات الطمث لا ينبغي لها أن تلمس القرآن أو تقرأه، طبقا للأمر القرآني "لا يمسه إلا المطهرون" سورة الواقعة آية ٧٩ ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾. إلا أن الرومي رأى أن الله يتقبل صلوات الحائضات (مثنوي الجزء الثاني ١٧٩٨، ١٧٩٩)"[١٨٠].

ومثل هذه الأفكار التي تظهر فيها المرأة مطالبة بكل الواجبات الدينية في القرآن كما لو كانت أقل من الرجل يمكن أن تحمل وجهة نظر خطيرة، أدت بدورها إلى اعتبار كل من يتوجه في طريق الله "رجل". وهو ما اتضح جليًا في المقولة العربية التي طُبعت في القرن الثالث عشر في شمال الهند: "طالب المَوْلى ذكر" ومن يبحث عن الحياة الأخرى هو شريكٌ ذكريٌ سالب، أما من يبحث عن الدنيا فهو امرأة.

---

١٨٠ "فحتام تتحدث وعندما يكشف الغطاء "ترى" أن الأمر لم يكن مثلما تظنون ـ وقبول ذكرك هذا من قبيل الرحمة، إنه كصلاة الحائض، رخصة فهي مع صلاتها ملوثة بالدم، وذكرك ملوث بالتشبيه والكيفية، والدم نجس ويطهر بالماء، لكن للباطن نجاسات، وهي لا تقل من باطن رجل الأمر إلا بماء لطف الحق".

ونشر الصوفيون فكرة مثالية الرجل، فكان من الطبيعي وجود نصوص مثل العمل العربي للمغربي التادلي[١٨١] في القرن الثالث عشر تحت عنوان "التشوف في رجال التصوف". وهناك مصطلح أهم من رجل وهو مصطلح "فتى"، وهو ما يعبر عن البطل الشاب الذي يحمل كل الصفات الإيجابية. واستخدم القرآن لفظ فتى لوصف إبراهيم في سورة الأنبياء آية ٦٠ ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ وأيضًا بلفظ الجمع سبعَ مرات سورة الكَهف آية ١٠ ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، بينما يوصفَ علي ابن أبيَ طَالب بال "فتى"، وهو مَا يكتَب بنقوش على الأسلحة والقوارير "لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار". وفي التركية يطلق لفظ (ار) أو (ارين) وذلك لوصف رجال الله، ويكتظ الشعر الفارسي بمديح "مرد" أي الرجل الحق كما يفهمه الشاعر والفيلسوف الإسماعيلي ناصري خسرو[١٨٢] (المتوفى بعد عام ١٠٧٢) والذي توصل

---

١٨١ هو يوسف بن يحيى بن عبد الرحمن التادلي: (؟ - ١٢٣٠) عرف بابن الزيات، كان متصوفًا وقاضيا مالكيًا وكاتب لسيرالأولياء، ولد في بني ملال في المغرب، ونعد أشهر أعماله عن سير الأولياء "التشوف إلى رجال التصوف"، وسيرة "أبو العباس السبتي" باسم "أخبار أبي العباس السبتي"، "مناقب الشيخ أحمد السبتي دفين مراكش"، ونهاية المقامات في دراية المقامات وهو شرح لمقامات الحريري.

١٨٢ هو ناصر خسرو قبادياني: (١٠٠٤ - ١٠٨٨) شاعر وفيلسوف إسماعيلي ورحالة ولد في قرية قابادیان وهي حاليًا طاجكستان، في یامجان حاليا في أفغانستان، انغمس في دراسة العلوم الطبيعية والطب والماورائيات والفلك والتنجيم والفسفة اليونانية وعكف على دراسة كتابات الكندي والفارابي وابن سينا وكتب التفاسير. امتلك العديد من اللغات مثل العربية والتركية واليونانية والهندية والسندية وربما العبرية. عمل في المعاملات المالية لجابي الضرائب توغرول بك السلطان السلجوقي. رفض الحياة الدنيا وزخرفها واتجه إلى الحج أملا في العثور على

إلى أن النبي هو الرجل الحقيقي الوحيد، وكل ما عداه نساء. لذلك علم المتصوفة جيداً أن المرأة التي تتوجه إلى طريق الله ليست بأنثى ولكن بالأحرى "رجل" كما قيل من قبل على لسان رابعة، وكما هو مشار إليه في باكورة التقاليد الهندية للطريقة الشيشتية أن امرأة تُدعى فاطمة من أندربات[١٨٣]، عُرفت بالتدين الشديد والقدرات الروحية العالية، عُرفت بال "رجل" الذي مثل على الأرض في جسد أنثوي" وهو ما يعكس نفس التصور السائد. ومن هذه التقاليد التي مثلت من قبل نظام الدين أوليا[١٨٤] (المتوفى عام ١٣٢٥) ولدت نصيحته أن الدراويش طالبو شفاعة القديسين، "لابد لهم أولاً بالتوجه إلى السيدات القديسات لأنهن نادرات".

تكتمل الرجولة الحقيقية "عندما يتطهر الإنسان بنور العقل والإرشاد الروحي، بعد أن يترك ظلام الطبيعة والشهوات وراءه" كما أشار بذلك ابن عربي.

---

إجابات لظمإه الروحي. افتتن بالقاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية في تلك الفترة وبالأخص "أبو تميم معد المستنصر بالله" إمام الدعوة الإسماعيلية الشيعية. كان من أشد المعارضين للخلافة العباسية وفي القاهرة التقى ب الداعي الشيعي الإسماعيلي " المؤيد في الدين الشيرازي" اعتنق ناصر خسرو المذهب الشيعي الإسماعيلي في القاهرة بعد لقائه بالشخصيات السابق ذكرها، من أعماله " الديوان" ويحتوي على مديح للإمام علي بن أبي طال كرم الله وجه، وانتقادا حادا لحاكمي خراسان ودروس عن الحكمة وتحذيرات من ألاعيب الدنيا.

١٨٣ هي سيدة من الأولياء بالقرب من دلهي توفيت عام ١٣٠٠

١٨٤ سبق ذكره

إن الرجال الذين لم يبلغوا بعد الطريق إلى الله، يعتبرون أقل وأسوأ من المرأة. ومثل هذه التصورات اعتمدتها معظم التقاليد الصوفية سواء أكان ذلك في الهند أم إيران أم تركيا. فعبّر بذلك العطار في "مصيبة نامه":

"من لم يحمل بآلام الحب، فهو امرأة وليس رجلاً"

وهو ما يرد في أغلب الأحيان بلفظ "مرد" في القافية الفارسية ولفظ "درد" بمعنى آلام. وعندما تشتهر بعض كرامات الأولياء يقول بذلك المتدينون المخلصون: "الكرامة هي طمثُ الرجال" وهو ما يدل على فخر المتصوفة في الغوص إلى مستوى المرأة للوصول إلى مستوى معين من الكرامات، والتي تمنع السيدات بسبب نجاستهن من عدم الوصول إلى الاتحاد المنشود.

وللمؤمن الحق لا يوجد فرقٌ بين الرجل والمرأة في حب الله، فهناك بيت شعر فارسي يقول ما هو أشبه بالمثل:

" ليس كل امرأة امرأة، وليس كل رجل رجلا، فالله لم يجعل أصابع اليد مثل بعضها" .

ويعبر المتصوفة الأتراك عن ذلك بالمثل القائل

Erkek arslan da arslan disi arslan arslan degilmü

بمعنى ذَكَر الأسد هو أسد، أفلا تكون أنثى الأسد أسدا؟" وهذا القول كان شائعًا جداً في العام ١٣٠٠ بين متصوفة الهند: فيشير نظام

الدين أوليا عندما تكلم عن السيدات الورعات: "عندما يخرج أسد ضار من الأحراش إلى منطقة مأهولة بالسكان، لا يسألُ أحدٌ إن كان ذلك أنثىً أم ذكر؟ فكل نسل آدم الرجال كالنساء، كلاهما دُعيا إلى التقوى وعبادة الله".

كذلك كتب ابن عربي في فتوحاته المكية "إن كل ما نشير إليه تحت مسمى "رجال" هناك نساء تندرج تحته"، حيث يمكن للمرأة أن تكون معلمة أو مرشدة للطريق الصوفي. يظهر نفس المعنى بشكل مبهم قليلا عند قصة الرومي عن الحمص ( مثنوي الجزء الرابع ٤١٥٨) حيثما توجد ربة المنزل، فإنها تعلم الخضار سر "مت أو احيَ".

وكان جامي هو من أشار إلى رابعة كونها ذات، والذات تتغلب على فرق الجنس، ففي حصره لسير الأولياء "نفحات الأنس" أشار:

"لو كانت كل النساء مثل تلك التي أشرنا إليها، لكانت النساء أفضل من الرجال. فجنس النساء لا يضير الشمس ولا تخدم الرجولة شرف القمر".

واستخدم جامي نفس الصورة للتعبير عن المرأة التقية، التي انفصلت عن المال والمتاع والزواج، كما وصف ذلك في كتابه "سبحة الأبرار" أن "امرأة مسترجلة في الموصل مثل أنثى الأسد لا تغويها الثعالب".

إلا أن أجمل التصورات عن السيدات الورعات، التي تتجاوز اختلاف الجنس، وصفت في ملحمته "سلسلة الذهب" وردت عن زاهدة

أيقونة في مصر، أشير إليها بشكل سريع في سير الأولياء لليافعي[١٨٥] في الحواشي. ساكنة هي ومستغرقة في التأمل:

"تلك من وقفت في غرفتها ما يقرب من الثلاثين عاما ولم تحرك ساكنا، كالشجرة التي نام الطير مطمئنًا على رأسها، وكانت الأفعى منها بمثابة الخلخال في قدميها، فغسل شعرها المطر منسابًا، وسرّح لها نسيم الصباح شعرها يوميا، وأمام الشمس الحارقة أظلتها السحب النادرة. وأغلقت فمها عن الشراب والطعام و الفطار والعشاء مثل الملائكة، أحاطها الجراد والنمل والحيوانات الوحشية، ووقفت ثملة في وسطهم ومضطربة فهل هي في الوجود؟ أم أنها غابت في الفناء؟ وثُبّت عيناها على الجمال الأوحد، وغاصت روحها في ناي الحب، وعرجت بقلبها في سياحات روحية صامتة، واخترقت أذناها عمقَ الأسرار، فلا تدعوها "امرأة" فكل شعرة منها أفضل من مئات الرجال"!

وبذلك نرى أن مصطلحي "رجل" و"امرأة" مرتبطين بهيئة طينية (أي الجسد)، إلا أن الروح غير متعلقة بأي من هذه الأشكال. فعندما يصبح الرجل والمرأة في الله كليًا، فلا يوجد أثر لوجودهم كما استنتج

---

١٨٥ اليافعي: هو عبد الله بن أسعد بن علي سليمان أبو سعدة عفيف الدين: (١٢٩٨ ـ ١٣٧٦) درس علوم الدين والتصوف في عدن في اليمن وحج ثم عاد إلى اليمن ليبدأ رحلته مع الرهبنة، دخل الطريقة القادرية وأسس منها فرعها في اليمن والمعروفة باليافعية، حظي بشهرة واسعة في مكة وملك العلوم الظاهرية والباطنية في وقته. من أعماله الشهيرة "نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية" و "روض الرياحين في حكايات الصالحين" التي ربما قصدته المؤلفة في الإشارة التي أوردها اليافعي. وله عدد من الأعمال الصوفية التي أكد فيها على رؤيته النبي في الحلم واليقظة.

ذلك العطار[١٨٦] في تذكرة الأولياء. لذلك ختم جامي [١٨٧] بمديحه لتلك الزاهدة المصرية المجهولة بالصلاة، لعل الله أن يحميه من ذلك في عالم الوحدة، وألا يستشعر الفرق بين الرجل والمرأة بأي حال من الأحوال، وهي صلاة أو دعوة يصدق عليها كل متدينٍ حقٍ.

١٨٦ سبق ذكره

١٨٧ سبق ذكره

## الفصل الخامس

# العجوز

مثلما صورت تيمة (المرأة ـ الدنيا) المرأة بالخطيرة المنفرة، تم كذلك تصويرها بموضوع العجوز (وأحيانًا أيضًا الأرملة الضعيفة) ويحمل هذا بعداً آخر، ومعنىً إيجابيًا في التقاليد الإسلامية. فأدى الأمر القرآني لبر الوالدين والإحسان لليتامى والمساكين في سورة البقرة آية ٢١٥ ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ إلى التوقير التقليدي لكبار السن، وأن تحظى المرأة المسنة بمكان خاص. ولقد أشرنا في القصة الجميلة كيف أتت للرسول امرأة عجوز مجعدة وسألته إن كان للسيدات (التي تعاني من ماء على العين) مكانًا في الجنة؟، ولما أجاب النبي بالنفي تنهدت حزينةً فضحك الرسول منها وقال "لا، لايدخل الجنةَ النساء المسنات ذات الماء على العين ، فسيعودن كلهن أبكارًا حسانًا". وفي العصور التالية "أصبح إيمان المرأة المسنة في الجماعة ذا شأن حتى أن قبول الحقائق المتكشفة من خلال تلك الارواح البسيطة أصبح أمرًا لا جدال فيه، مما أدى إلى شجار حادٍ بين علماء

العقيدة والفلاسفة حول تلك المسألة، فمن الطبيعي خصوصًا في العصر الحديث أن يميز هذا الموقف الأوساط التقليدية التي تتمسك بالتقاليد البالية دون الانفتاح على العصر الحديث، تتسبب "قصص الزوجات المسنات" بعرقلة التطور الفعلي.[188]

إلا أن مثل هذه التصورات والأفكار نشأتْ في العصور اللاحقة. ففي قصص الأنبياء للكسائي نجد رواية عن عجوز أرادت شراء صورة لأحد الأوثان من إبراهيم إلا أن إبراهيم الذي كسر آلهة آبائه، ردها إلى الإيمان بالله الواحد، ولما أمر الطاغية نمرود بأن تُضرب يداها وقدماها، عولجت بشكل إعجازي بسبب إيمانها. إلا أنه في العصور السابقة لم تكن قد ظهرت بعدُ صورة "العجوز" أو الأرملة المسكينة في الأدب الصوفي. إلا أن المتصوف ذا النون المصري[189] (المتوفى عام ٨٥٩) قد جعل من شخصيات غير معروفة حاملة للحكمة الدينية، وخص بالذكر السيدات المسنات:

" لما سُئل مرةً من امرأة عجوز في الطريق من يكون فأجابها "أنا غريب أو مغترب" إلا أنها علقت على سؤالها قائلةً "وهل من غريب عندما يكون المرء عند الله؟".

---

١٨٨ ما نقصده شمل هنا هو قصص العجائز والخرافات التي تسبب عرقلة التطور في العالم الإسلامي، أو ما يعرف بالسيدة البركة نظرا لسنها الكبير.

١٨٩ سبق ذكره

ويخبرنا اليافعي (المتوفى عام ١٣٦٧) قصة مشابهة عن عبد الواحد ابن زيد[١٩٠] (المتوفى عام ٧٩٤)، وهو أحد أشهر المتصوفة المبكرين قاطبة، أنه أرشد من قبل امرأة في الطريق إلى القدس، وهي من علّمته "من يكون الغريب حقا؟ ومن يعرفه؟" ومن ثم أعقبت في عجالة "مسلكي هو مسلك العارف، فالزاهد هو السالك، أما العارف فهو الطائر".

والأجمل هي القصة الشهيرة لذي النون المصري عندما سأل امرأة مسنة:

"ما هي نهاية الحب؟ أجابت: "الحب لا نهاية له؟"، فسُئلت: "لماذا؟"، فأجابتْ: "أأحق أنت؟ فالمحبوب لا نهاية له".

وتبدو المرأة هنا أشبه بالعارفين بسر الحب، فالله هو ما لا نهاية له وهو الأبدي، فلا حدود ولا نهاية له، فهل للحب الذي يكنّه المرء له نهاية؟ وبذلك يكون قد جُمع شعرُ الحب كله في جملة واحدة في العصور المتأخرة. أما عن السيدات المسنات الكبيرات التي التقى بهنّ ابن عربي في صباه في مدينة سفيلا، يظهرن كتجسيد لتلك الشخصيات الأسطورية الحكيمة. أيضًا عُرف في الصوفية الجود القليل للأرملة.

---

١٩٠ عبد الواحد بن زيد أبو عبيدة البصرى: أحد بواكير شيوخ الصوفية في البصرة، خليفة الحسن البصري والثاني في سلسلة الطريقة الشيشتية ومرشد الفضيل بن عياض، من أتباعه رباح بن عمرو القيسي. نقل عنه في "فضائل الصداقات" كتبه مولانا زكريا بناء على نصيحة من راهب مسيحي وأخبرنا أنه تتلمذ على يد الإمام أبي حنيفة. لا يزال مقامه حتى الآن في البصرة.

فيُحكى أن مرشد الطريقة الصوفي الكبير أبو حفص عمر السهروردي (المتوفى عام ١٢٣٤) قد تلقى في طريق عودته من الحج هدايا ثمينة، إلا أن أثمنها بالنسبة له كانت قطعة عملة صغيرة قد دستها إليه أمٌ مسنة. ويذكر أيضًا في تلك الأساطير أن امرأة عجوزًا كان لها أن تمسك المال من الهواء دون مشقة، كما كان ذلك متيسرًا لرابعة. وتعرف السيدات المسنات في تلك القصص آلام الحب، وهو ما أوضحه العطار في إحدى ملاحظاته، أن امرأة عجوزًا ممن شاهدوا رجمَ الحلاج قد أظهرت شيئًا من الغبطة أثناء رجمه وقالت: "أصيبوه جيدا، واجعلوا هذا المنافق يعرف كم هو مؤلم البوح عن عشق الله".

وذكر العطار في كتابه "إلهي نامه" أن امرأة مسنة متوهجة وضعت قانونًا جميلاً في حب الله: "من يحترق كليًا بحب الله، لا يخاف من النار الظاهرية، التي تحول الديار إلى روث وتراب"

"في سوق بغداد حيث التراب والعفرة، اندلعت هناك نيران شريرة وتعالى صياحُ واستغاثات العامة وساد الهرج والمرج والتزاحم، وهنا ظهرت امرأة عجوز من هناك تتكئ على عصا في يدها تسير نحو النيران، وهنا صاح أحدهم "توقفي يا حمقاء! إن ألسنة النيران قد أتت على دارك"، فأجابته" الأحمق هو أنت، فلتكن ثابتًا فإن الله لم يرد أبدًا أن يحرق منزلي"، فالنار دمرت منازل ومتاجر، إلا أن منزل العجوز لم يُمس بالخسائر، فسألها الرجل "يا أيتها المرأة الطيبة! كيف لك أن تعرفي مثل هذا السر أثناء الحريق؟" فأجابته المرأة ذليلة متألمة أن "الله لهَ أن يحرق

القلب أو البيت، إلا أنه أحرق قلبي من الحب، لذلك لم يحرق البيت بالنيران".

وللمرأة العجوز أو الأرملة وظيفة هامة أخرى تتجلى في الملاحم الفارسية بشكل أساسي: فيخبرنا السنائي[191] في "حديقة الحقيقة" عن أرملة مسكينة اشتكت للسلطان المهيب محمود الغزنوي[192] (٩٩٩ حتى ١٠٣٠)، أن خمسة من عساكره الأتراك دمروا تكعيبة العنب الخاصة بها، وأمر السلطان محمود بإعدام الخمسة عساكر ممن ارتكبوا ذلك الفعل المشين، حتى يبرهن ما يكنّه في قلبه من عدالة وخوف على المساكين والمسنين.

فيقص النظامي[193](المتوفى عام ١٢٠٩) قصة مشابهة في "مخازن الأسرار"[194]، نقلها عن حاكم قريب منه في المكان والزمان هو السلطان

---

١٩١ سبق ذكره

١٩٢ سبق ذكره

١٩٣ هو نظام كنجوى: (١١٤١ ـ ١٢٠٩) هو شاعر فارسي، درس الرياضيات والفلك والطب والتشريع والشعر والفلسفة والموسيقى مما جعل تلامذته يصبغون عليه لقب "الحكيم"، له العديد من المؤلفات أهمها "مخزن الأسرار"، "خسرو وشيرين"، "ليلى ومجنون"، "إسكندر نامه".

١٩٤ مخزن الأسرار: شعر فلسفي أخلاقي، أهداه نظامي إلى فخر الدين البهرام شاه حاكم أرزنجان. يتناول فيه موضوعات باطنية مثل اللاهوت والفلسفة يحتوي على عشرين مناقشة، كل منهم بصور موضوعات أخلاقية ودينية. كتبت بأسلوب ملحمي كل فصل منه يسلم للآخر منها ما يناقش الروحاني والعملي فيما يخص العدالة والنفاق والتحذير المستمر من شر هذا العالم والتأهب للآخرة. الخط العام فيه دعوى يبرز فيه النظامي الأسلوب الأمثل للقارئ في الحياة والاقتراب من آخرها. وفي بعض فصوله يناقش واجبات الملك إلا أنه في مجملها يخاطب فيها البشرية.

السلجوقي سنجار(المتوفى عام ١١٥٧) ونقلها الشاعر جامي المتوفى عام ١٤٩٢ بنفس الأسلوب في "سلسلة الذهب"، حيث يُؤخذ حاكم من بسالة المرأة التي أتت إليه ممطية حصانًا معترضةً جنودَه الذين بعثروا لها العنب، وقد أخذوه منها عنوة بعد أن تعبت في جنيه فقالت :

"وهبها الذهب وتكعيبة العنب، التي يقتات منها أولادها"

والمشهد يظهر امرأة منحنية مهمومة في يدها ورقة شكوتها أمام فارس شامخ، كما تظهرعادةً في المنمنمات الفارسية. ودون ربطها بالنص يمكن أن يُفهم أنها زليخة العجوز المتضرعة صُورت بشموخ أمام بطلها يوسف.

وتظهر تيمة "المرأة ـ العجوز" مُعاتبة في سياق آخر. فيقصُّ علينا العطار مرة أخرى في "إلهي نامه" كيف ظهرت امرأة عجوز في الحلم للسلطان محمود الغزنوي بعد أن رآها متجاهلاً إياها عن عمد في أحد الأيام، عندما أرادت أن توصل إليه شكواها، وكيف أضحت فيما بعد المنقذة الحقيقية للبشرية. بالرغم من أن الشعر التالي يُظهر تمجيد أعمال الملك القوي، إلا أن تلك المرأة المقهورة تحتل مكانًا مركزيًا في السرد ويساهم دعاءها المتضرع قائلة :

"محاربُ المؤمنين السلطان محمود على الحصان العربي الأصيل، يقود صفوف عساكره، فرأى أرملة جالسة على قارعة الطريق ممسكة شكواها رافعتها على عصا تحاول أن تستغيث به من الظالمين، وتمنت العون فقط من المعين، رآها الأمير العظيم إلا أنه لم يعد إليها وتقدم في طريقه. ومن ثم

رأى محمود في كل ليلة حلمًا بأنه يقع في بركة ماء ذات فقاقيع، وتبدو أمامه تلك الأرملة العجوز مادة عصاها نحوه وتقول: "يا أمير! أمسكْ بالعصا واخرجْ من البركة ومن غياهب القبر!" وهنا أمسك الأمير العصا بخفة، وأُنقذ من المياه الهادرة. ولما جلس صباحًا في قاعة العرش، كان لا يزال قلبُه مثقلاً من حلم الأمس، وهنا رأى المرأة المتروكة قادمة إليه، لكي تحصل على العدالة منه اليوم. أتته بظهر محني وعصاتُها بيدها أشبه بالسحابة المتفردة الباكية، هنا قفز الأمير ونّاداها متوسلاً، وأجلسها على عرشه قائلا: "انظروا لولاها لكان التهمني التمساح (الموت) ليلة أمس! لكني تعلقت بعصاتها وأُنقذتُ من إعصار الماء وإذا ما رغبتم أن يوفقكم الله دومًا في الحرب بنصر من عنده، فلتقبضوا بيدكم على عصاتها جيداً، فتكن لكم دائمةَ العون"، وتسارع ناحيتها العسكر وتسمكوا بعصاتها، واستمر حجُّ الوفود عليها من كل فج، ليمسكوا العصا، وجالست المرأةُ الملك في تلك اللحظة ممسكة بعصاها متكئة عليها، وأتت إليها الأمة مهرولة. فلقد وهبتها العصا القوة والطاقة مثلما وهبت عصا موسى القوة والعزم، ومن ثم ساعدته عصاه في أعمال الإيمان، فتكلم الملك قائلا: "آه يا أيتها العجوز! كل هذا البشر من أجلك أنت أيتها الهشة! وهل منَ جدوى لتلك العصا في وهنك فعلا؟ فالعديد يأتي لسؤالك فكيف لكِ أن تتحملي مثل ذلك الثقل!".

"يا أمير"، هكذا أجابت المرأة "فمن التقط محمود من غياهب الهاوية، فله أن يلتقط آخرين من أعماق أكبر يا ملك! هذا القول لا يناسبك، فمن أنقذ فيلا، أفلا يقوى على إنقاذ كومة من القش!".

ويعتبر التدين والإيمان القوي للمرأة العجوز أشد بأسا من أي عوائق كبرى، وأقوى من جبابرة الأرض. وتظهر المرأة العجوز العاشقة في مشهد آخر، حيث تجسد مرة أخرى الروح المشتاقة. ويُحكى أنه أثناء بَيع يوسف في المزاد بمصر، قدّم كلُّ الحاضرين مبالغَ كبيرة لشراء العبد الوسيم المسجون. ومن ضمن هؤلاء المتسارعين لشرائه حضرت امرأة عجوز، مثل العطارُ ذلك المشهد في "منطق الطير" فيحكي:

"تدافعت امرأة عجوز في الصف كانت ترتدي أسمالاً من الصوف وصرختْ في وجه النخاس "يا هذا بع لي الشاب! إن شوقي ساقني للجنون، هاك عشر سرات نسجتُهم بيدي، خذهم وبعْه لي، هاك وديعتي! وضعْ يدي في يده برفق! فتبسّم النخاس قائلاً: "يا أيتها الروح البسيطة أنت لا تقتنين جوهرة الجواهر. فأنا أقدر أن أحصل على مائة ضعف من هذا، فأين أنت أيتها العجوز بأسمالك تلك؟ فتكلمت: "نَعم أعلم أن مثل هذا الشاب لا يمكن الحصول عليه في الدنيا، لكن يكفينى قول العدو والصديق "إنها غامرت في المزاد!".

ويمكن مقاربة العجوز في تلك القصة أيضًا بـ "الهمة" أي التطلع النبيل للعلو، حتى وإن علمت أنها لن يمكنها الوصول إلى هدفها، إلا أنها تحاول على الأقل الاقتراب قليلاً منه. فما يُحسب هو النية التي تُجازى عليها الأعمال. لذلك حاولت الشاعرة التركية "حبة"[١٩٥] عام ١٥٠٠ أن تُقارِن صلاة العاشق بصوف المرأة العجوز، كالتالي:

---

١٩٥ شاعرة تركية من القرن السادس عشر اشتهرت بشعر الغزل والتصوف.

"فهو ذلك الذي يعطي كل ما عثر عليه، حتى يكون من الزبائن. فأنت تشبه العجوز تمامًا، ماذا جلبت هي من أجل حسن يوسف الباهر؟ أتت مهرولة بخيطين، وأرادت من عمق قلبها شراء الجمال".

حتى وإن كان المرء لا يأمل في أن تُسمع أو تُرفع صلاته إلا أن عليه ألا يهجرها، فالأمل والثقة، هما ما يقودان الروح التي تسمى نحو هدف أسمى، ذلك هو السر الحقيقي في البحث. وعندما تتوجه روحٌ كليًا إلى الله، كما كانت روح العجوز في قصة يوسف، يمكن أن يحدث أن الكعبة هي من تطوف بها أثناء الحج وليس هي من تطلب الكعبة، كما أشار بذلك سهل التستري[١٩٦] (المتوفى عام ٨٩٦) الذي تعلّم من عجوز في مكة قول" كل من تُنتزع منه نفسُه من أجل رؤية جمال الله، فلابد للكعبة أن تطوف حوله".

---

١٩٦ سبق ذكره

## الفصل السادس

# الأمهــــات

يحض القرآن المؤمنين على بر الوالدين طالما امتد بهما العمر كما في سورة الإسراء آية ٢٣ ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾. وكذلك أقوال الرسول عن واجبات الإنسان تجاه الوالدين:

"عفوا عن نساء الناس تعفَّ نساؤكم، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم"

حتى إن جاء الأمر ببر الوالدين معًا، إلا أن الأم تحتل المكانة الأولى التي تحظى بها عند الأبناء "فالجنة تحت أقدام الأمهات"، ويُحكى أن شابًا أتى إلى الرسول وسأله:

"يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحبتي؟ قال: أمك، قال ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك"

ويخبرنا الرومي في المثنوي (الجزء السادس، ٣٢٥٧)[١٩٧]

"شكرُ الأم شئ بديهي، فهي ملهمة من رحمة الله"

فليس من الغريب أن يحتل دور الأم مكانة خاصة في سير العلماء والأولياء من الرجال، فحتى سن السبع سنوات يظل الطفل في جانب الحريم من المنزل تحت وصاية الأم والعمات، فيكون قد تربى متأثرا بتدين الأم. فكما يخبرنا ثنوي في كتابه "حلية الجنة" عن العديد من الأمهات والأخوات لكبار العلماء في العصر المبكر ممن دفعوا بكل ما يمتلكون من أجل تعليم أبنائهم، أدل مثال على ذلك العالم الكلاسيكي الكبير البخاري[١٩٨] (المتوفى عام ٨٧٠) مما دفع ذلك فيما بعد بتغيير تلك القناعات من أن تكون البنات مسئولة مسؤولية أخلاقية بالتضحية بنصيبها من أجل إخوتها، وهو ما يُعتبر انحرافًا أو حيدةً عن أصل فعل الخير برغبة حرة. وكم من متدين حمل أمه القعيدة إلى مكة، حتى تتمكن من أداء فريضة الحج! ومن ضمن ما قاموا به من كرامات كان حج الأمهات الكفيفات والعليلات، ومن جانب آخر احتل دعاء الأم مكانة مؤثرة فله أن يعيد لها ابنها المسجون أو المفقود.

---

١٩٧ "فترك شكره ترك لشكر الحق، وحقه بلاشك ملحق بحق الحق ـ فداوم على شكر الله تعالى في النعم، وأيضًا داوم على شكر السيد وذكره – ورحمة الأم وإن كانت من إلهه، إلا أن خدمتها أيضًا فريضة واجبة" والمقصود أن الأم وجب شكرها لأنها الوسيلة التي أرسل الله بها رحمته إلى البشر.

١٩٨ هو أبو محمد بن إسماعيل البخاري (٨١٠ ـ ٨٧٠) من كبار الفقهاء وعالم حديث، ينسب إليه الجامع الصحيح المشهور بصحيح البخاري حفظ حوالى ٦٠٠ ألف حديث وله مؤلفات أخرى توفي كمدا إثر خلاف سياسي مع أحد السلاطين إثر قضية "خلق القرآن".

وتخبرنا السير عن السيدات النشطات من بين الأمهات التقيات، مثل أم مجد الدين بغدادي[١٩٩] (المتوفى عام ١٢٠٩) التي كانت طبيبة ناجحة حاولت أن تخفف عن ابنها فترة مراهقته أو صباه الصعبة في إحدى الخانقاوات الصوفية لما علمت أن الصبي من واجباته تنظيف المراحيض، فأرسلت إليه اثني عشرعبدًا تركيًا، لكي يقوموا عنه بتلك الوظيفة. إلا أن شيخ أو مرشد الخانقاه أعادهم إليها مع ملحوظة كتبها "أنت طبيبة، وإذا أتى أحدهم إليك يشكو من ألم في الحنجرة، فعليه أن يأخذ دواءه أم تهبيه عبدًا تركيًا؟" ويبدو أن كان هناك عدد لا بأس به من الطبيبات الناجحات في ذلك الوقت، كانت السيدات منوطًا بهن صناعة الأدوية وزيوت العيون وغيرها من تلك الأشياء. وأحيانًا ما كان الأولاد يسمون بأسماء أمهاتهم الشهيرات مثل ابن بيبي[٢٠٠]، كاتب القرن ١٣ الشهير في الأناضول، والتي كانت أمه بيبي المنجمة أو الفلكية. هناك سيدات أخريات أصبحن مثالاً لأبنائهم في حياتهن الزاهدة، مثل أم الزاهد

---

١٩٩ هو مجد الدين أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر ابن رشيد البغدادي: شاعر وفقيه شافعي، صاحب القصائد الوترية في مدح خير البرية، وقد نظم ٢٩ قصيدة على عدد حروف المعجم حيث اعتبر "لا" حرفا قائما بذاته وهو من أطلق عليها اسم "القصائد الوترية" وكان يعرف أيضا ب" الإمام الوتري". وله من المدائح النبوية ما سماها " الوتريات في مدح أفضل الكائنات" توفي ببغداد ودفن في جامع القبلانية.

٢٠٠ ابن بيبي: هو المؤلف للعمل التاريخي الكبير "سلطان سلاجقة الروم" إبان القرن الثالث عشر كان رئيس مستشارين السلطان في قونيا ودون الأحداث الهامة لتلك الفترة. عمل أبوه في بلاط السلطان جمال الدين خوارزم شاه وأمه اشتهرت بالتنجيم. ثم تهجير تلك العائلة من فارس إلى تركيا أثناء تهجير المثقفين من إيران بعد حكم المغول لها.

الشيرازي الشهير ابن خفيف[٢٠١] (المتوفى عام ٩٨٢) والذي نشأ في طفولته وصباه على قواعد زهد صارمة فوق بشرية، فقد تمنّى في ليلة القدر بآخر رمضان، التي تجلى فيها أول نزول للقرآن أن يعاين النور الإلهي، فالعالم يضيء في مثل تلك الليلة المقدسة. إلا أنه لم ير نور السماء ولكن أمه الورعة هي من رأته.

وتلعب الأمهات دورًا مركزيًا في سير أولياء الطريقة الشيشتية في شمال الهند، فمن يزور مقام قطب الدين بختيار كاكي[٢٠٢] (المتوفى عام ١٢٣٥) في مهراولي بالقرب من دلهي عليه أن يضع باقة من الزهور عند

---

٢٠١ هو محمد بن خفيف بن اشفكشاذ الضبي الشيرازي: (٢٧٦ ـ ٣٧١ هجرية) أخذ علم الكلام عن الأشعري بعد أن ارتحل إليه، ولقد سرد السلمي تلك الرحلة في قصيدة مسجوعة، وأخذ الفقه عن ابن سريج، والتصوف عن رويم والجريري وأبو العباس ابن عطاء. أخبرنا السلمي أنه من سلالة الأمراء إلا أنه فضل الزهد. أخبر أحد تلامذته ويدعى ابن مكتوم" اشغل نفسك بطلب العلم ولا تغفلك كلام الصوفية فلقد اعتدت أن أخبيء محبرتي وقلمي في ثنايا ثيابي وأذهب سرا لزيارة العلماء، ولوعلم الصوفية لحاربوني وقالوا لن تنجح أما الآن فهم يحتاجون لي"، لذلك قال عنه السلمي "كَانَ شيخ الْمَشَايِخ في وقته، وكَانَ عَالماً بعلوم الظَّاهر وعلوم الحقَائق، أوحد الْمَشَايِخ في وقته حَالاً وعلْماً وَخلقاً"، ووصفه الذهبي بأنه: "الشيخ الإمام العارف الفقيه القدوة ذو الفنون"

٢٠٢ هو قطب الأقطاب حظرت خواجة سيد محمد قطب الدين بختيار كاكي: (١١٧٣ ـ ١٢٣٥) من كبار شيوخ التصوف في الهند ومن كبار شيوخ الطريقة الشيشتية في دلهي، كان شيخه معين الدين شيشتي السابق ذكره، لعب دورا هاما في إرساء قواعد الطريقة في الهند، بعد أن كانت متمركزة في أجمر وناجوار، ترك أثرا هائلا على تصوف أهل الهند فمن أفكاره الرئيسية الأخوية الإنسانية العالمية وفعل الخير الذي تميزت به الطريقة الشيشتية، مما جعل الكثير من الهندوس يعتنقون الإسلام في القرن الثالث عشر والرابع عشر، يحج إلى مزاره كل أسبوع زوار من مختلف الأديان من المسيحين والهندوس والسيخ. عمل على تطوير "السماع" على أن تكون برتم معين على غرار موسيقى الهندوس، ويحكى أنه في إحدى جلسات السماع سقط مغشيا عليه بعد سماع الأبيات التالية " من ذبحوا بالخنجر يتلقون في كل آن حياة جديدة" ظل على إثرها أربعة أيام في حال من الوجد حتى توفي.

قبر والدته وقريباته من السيدات، كما يفعل الزائر عند زيارة قبر أم برهان الدين غريب[٢٠٣](المتوفى عام ١٣٣٨) في خُلد آباد في دكان أو في مقام أم مولانا الرومي في كرمان بالأناضول.

ونشأ فريد الدين جاندشي شكر "كنز السكر" في كنف أم مؤمنة غيور، أُعتبرت من كبار الأولياء. ويُنسب إلى أمه كل ما حققه من نجاح. ومن ضمن ما أتت به، عندما تسلل إليها سارق أصابته بالعمى، وبعد أن أعلن توبته، شفته مرةً أخرى، وبذلك يكون قد عاد إلى الإسلام. أما عن الابن الأكبر لفريد وهو نظام الدين أوليا في دلهي (المتوفى عام ١٣٢٥) فقد قضى أيامه في حضرة أمه التقية التي شدت من أزره أثناء رياضاته الروحية. ويُحكى أنه عندما ظهر قمر الشهر الجديد وضع نظامُ الدين رأسه عند قدم أمه حتى يضمن منها البركات في مقتبل الشهر، "ألم تكن هي السيدة التي وصلت إلى الله، ورابعة زمانها، وفخر نساء العالمين".

وعن أم أحد متصوفة شمال الهند تُحكى الكرامة التالية، أنه أثناء أداء صلاة الاستسقاء، قد أخرج قطعة قماش للخارج ورآها قد ابتلت بالمطر فور ما أخرجها. ولما سُئل عن سر قطعة القماش تلك أجاب: "إنها رداءُ أمي!"، ويتذكر المرء أيضًا ما يقال عن صلاة الاستسقاء لعمة

---

٢٠٣ برهان الدين غريب: تتلمذ على يد نظام الدين أوليا، "سلطان مشايخ دلهي"، يخبرنا عنه سيد محمود في "سير الاولياء" أن برهان الدين ارتدى المعطف والطيلسان وهما من رموز الخلافة، كونه خليفة سلطان المشايخ. سار على نهج شيخه في إثراء الموسيقى والرقص الديني في الخانقاه التي أقامها. له مقام كبير بفناء واسع محاطا بالأبنية في جميع الجهات الجزء الغربي منها مخصصا للمدرسة، وباب يفضي إلى قبور عديدة وعلى مدخل قبره مقصورة صغيرة مخصصة "لشعيرات وجزء من لحية النبي صلى الله عليه وسلم".

صاحب الطريقة الصوفية الكبير عبد القادر الجيلاني[٢٠٤](المتوفى عام ١١٦٦) التي كنست الأرض ونادتها " يارب يا سيدي لقد كنستُ الأرض، والآن أهطلْ الماء عليها" ثم بدأ المطر بالهطول.

وعن ابن عربي، بجانب أمه الحقيقية كانت له "أم روحية" وهي فاطمة بنت المثنى التي تعلم منها ووقرها، حسبما ورد في سيرة الأندلسي الكبير. ولعله من الغث تجميع القصص التي يشكر فيها العلماء المسلمون عبر القرون أمهاتهم ويفصحون فيها عن حبهم لهن مثل أبيات أبو فراس[٢٠٥] التي ألقاها في السجن، ووجهها إلى أمه الحبيبة، أو ما يقابله شعر إقبال المؤثر في رثاء أمه: " مَن سيكون في انتظاري في المنزل ويصلي من أجلي؟ ومَن سيقلق عندما تتأخر الخطابات؟ سأرخي سؤالي في قبرك، من سيذكرني في صلاة الليل الآن؟ ".

---

٢٠٤ هو عبد القادر الجيلاني أو الكيلاني: (١٠٧٧ ـ ١١٦٦) لقب "تاج العرفين"، "قطب بغداد"، "باز الله الأشهب"، هناك خلاف على محل ميلاده بين العراق وإيران، إلا أنه درس واشتهر وعاش فب بغداد، درس على يد شيوخ الحنابلة ومن بينهم أبو سعيد المخرمي، فتخصص فيه وتبحر قرأ الأدب ودرس الحديث وعلوم الشريعة ما يقرب من ثلاثين عاما، ودرس وتتلمذ على يده الكثير في بغداد، ورد الكثيرين من أهل الضلال إلى الحق، توفي عن عمر يناهز ٩٠ عاما ودفن في الرصافة ببغداد، له العديد من المؤلفات في الأصول والفروع والتصوف منها " أوراد الجيلاني" التي يقرأها مريدو الطريقة الجيلانية، "الرسالة الغوثية"، "بهجة الأسرار" وكيمياء السعادة على غرار كيمياء السعادة للغزالي الذي تأثر به في مؤلفاته خصوصًا "إحياء علوم الدين" في كتابه "الغنية".

٢٠٥ هو أبو فراس الحمداني: (٩٣٢ ـ ٩٦٨) شاعر وفارس سوري من الأسرة الحمدانية التي حكمت العراق وشمال سوريا، كان فارسا وشاعرا، وقع أسيرا مرة في إحدى المعارك مع الروم إلا أنه افتدي وحُرر فيما بعد. جمعت أشعاره بعد موته من معاصريه.

أو حتى الأبيات البسيطة التي سطرها الكاتب الفارسي اردش مرازا[٢٠٦] (المتوفى عام ١٩٢٦) عن أمه قائلا :

"يقولون إنه لما وُلدتُ أرضعتني أمي برفق، وظلتْ جالسةً كل ليلة عند مهدي، وظلتْ يقظةً تعلمني النوم، ووضعت فمها ضاحكةً علىَ فمي، وعلّمتْ البراعمَ كيف تتفتح، وأخذت بيدي ووضعتْ ساقًا أمام الأخرى حتى تعلمني فن المشي، ووضعت في فمي الكلمات بنغمة ونغمتين، لكي تعلمني الكلام لذلك وجودي هو جزء من وجـودها، وما دمتُ حيًا تظل لي ودودةً وعزيزةً"

ودومًا ما تتأثر الزائرات عند دخولهن البيوت الباكستانية والتركية والعربية أو الفارسية كيف أن الأم حتى وإن كانت أميةً تمسك بزمام المنزل وكيف يعاملها الأبناء بإجلال سواء أكانوا وزراء أم أساتذة جامعة. ويجب الأخذ في الاعتبار أنه في مجال الحياة العملية المحضة حظيت أمهات الأمراء بقدر من السلطة أكبر من سلطة الحاكم نفسه مثلما كان في الحرملك، وخصوصًا أم ولي العهد مثل والدة السلطان في البيت العثماني أو الإقطاعيات الكبار في مملكة المغول الهندية، وكان أمرًا مفهومًا أن يرى ختمها الخاص في البلاط الملكي وما حوله.

---

٢٠٦ هو أيرج ميرزا: (١٨٧٤ ـ ١٩٢٦) هو شاعر إيراني كبيرعرف ب"جلال الممالك" يعتبر من شعراء الحداثة الذين ينتقدون التقاليد، وكان من أشد المدافعين عن قضية تحرير المرأة. أجاد العربية والفرنسية بجانب اللغة الأم الفارسية، درس في "دار الفنون " في طهران، جذبت موهبته الشعرية ولي العهد في تلك الفترة وأسبغ عليه لقب "صدر الشعراء" وعمره كان ١٤ عاما. كما برع في فن الخط. عمل فترة في البلاط الملكي إلا أنه تركه وعمل في الحكومة في غرب أذربيجان.

وما يجب إبراز أهميته أيضًا في التاريخ الإسلامي هو دور المرضعات، فالمرضعات في البيوت الملكية كنّ أكثر من مجرد مربيات، وقد كانت إحدى مرضعات بيت أمراء بني زيري[٢٠٧] في تونس منوطًا بها نَسْخُ نُسَخٍ فاخرة من القرآن، وهي ما تُعرف باسم "مصحف الهدينة". ويذكرُ المرء بعضَ السيدات من الضيع الإسلامية الهندية في لاهور، وماندو وغيرها من الأماكن ففي ماندو مثلا موقع جميل من القرن ال١٥، عُرف بـ "مكان أخوات المرضعة الصغيرات".

كما تم إبراز دور الأمهات التقيات في مجمل الأدب الصوفي، فاستخدم المتصوفةُ رموزاً مستوحاة من المحيط الأمومي. ألم يقل اللهُ خارج القرآن (كما أخبرنا الغزالي): " عندما يمرض عبدي، أعتني به مثل الأم الحنون التي تعتني بابنها".

وسرعان ما يتبادر إلى الذهن أن مفردة "رحمة" هي الأصل الذي بُني منه اسم الله المكرر دومًا "الرحمن" و"الرحيم" هي ذات الأصل لكلمة "رحم" أي "رحم المرأة"، وطالما كان الله ملجأ للبشر كما الأم ملجأ للطفل كما يشير الرومي ( ال مثنوي الجزء الرابع ٢٩٢٣)[٢٠٨]. نعم

٢٠٧ الزيريون: هم من سلالة صنهاجية أمازيغية من وسط المغرب، حكمت شمال أفريقيا والجزائر وتونس وأجزاء من ليبيا والمغرب ما بين (٩٧١ ـ ١١٥٢). مؤسسها هو المعز بن باديس (١٠١٦ ـ ١٠٦٢) بالانفصال عن الخلافة الفاطمية في القاهرة والتنصل من المذهب الشيعي والعودة للمذهب المالكي.

٢٠٨ "وإن قامت أمه بصفعه، فهو يهرع إليها ويتمسك بها ولا يطلب عونا من أحد إلا منها، فهي كل خيره وكل شره" وردت الأبيات تحت قصة "وحي الحق لموسى عليه السلام: يا موسى أنا الخالق أحبك" ويقصد مولانا الرومي أن المتوكل كالطفل لا يعرف شيئا سوى أمه وأن يكون المتوكل حاله مع الله كحاله مع أمه التي لا يفزع إلا لها.

فعندما يتغنى الشاعر الصوفي الكبير بالموت الروحي في الحياة يقول: " إنه مثل الطفل الذي يموت في رحم أمه، كذلك أنا أموت في رحم الرحمة" (د ١٦٣٩).

ودومًا ما كانت وفاة الأطفال الصغيرة أمرًا شائعاً في العصور الوسطى، وحاول المرء دومًا بالكتابات التقليدية مواساة المرأة. إن الأطفال المتوفين يشعرون بالعزلة لذلك يرحل إليهم والداهم عندما يتوفاهم الله. إلا أن الأمهات اللاتي تُتوفى في فترة النفاس تكون في الجنة أعلى منزلة من عذارى الجنة، وتُعد من مصاف الشهداء، كما تواسينا "قصص الأنبياء".

والرحمة يمكن أن تُرى في هيئة الأم والمرضعة ( المثنوي الجزء الأول ٥٥٥)[٢٠٩] كما عُبّر عن مفهوم الحب في أعمال الرومي برمزية الأم. فالحب هو "مريم الأبدية" تلك الأم الحانية على طفلها، ومن لا يحب أن يرضع من الرحمة؟، كما أكد الرومي على ذلك مرارا، وليس فقط المفاهيم المجردة مثل الحب والرحمة هي ما يمكن الإحساس بهما كالأم الرؤوم، فالأنبياء يقلقون من أجل تطور الطفل، بمعنى الأرواح الموكلة إليهم، ووثقت فيهم كما قال الرومي في ديوانه: "إن غضب الأنبياء مثل

---

٢٠٩ وردت القصة تحت مسمى "قيام الوزير بمكر آخر في إضلال القوم" فورد البيت التالي "إننا كالأطفال وأنت بمثابة الحاضنة لنا، فابسط علينا ظل عنايتك، لقد تعودنا على كلامك الحلو ورضعنا من عصارة حكمتك" ويقصد بها هنا ما تكسبه القيادات الدينية والسياسية من هالة لنفسها حتى أن الجماهير أو المريدين أضحوا في شوق متقد إليه حال انعزاله أو اختفائه لأي سبب كان.

غضب الأمهات، فهي غضبة مملوءة بالرحمة للطفل الجميل". (ديوان الرومي ٢٢٣٧)

فالأم لا توبخ ولدها من أجل الترفيه ولكن من أجل أن تساعده مرة أخرى، هل ستترك ابنها رخواً، إن لم تكن تعلم أن الألم القصيرعلاج للطفل؟ (ديوان الرومي ٤٠٥)

ولا يظهر الأنبياء فقط كـ "أمهات" ولكنّ مرشد الطريق الصوفي أيضًا تم تصويره في هيئة الأم مثلما هو الحال مع حضرة الإمام أجاخان[٢١٠] الذي يُعتبر "الأب والأم" للإسماعيليين المؤمنين، وتعتبر قراراته "محملة ببركات الأبوة والأمومة"، ويُعتبر التقارب الروحي بين المرشد والمريد من خلال ما يمر به المريد في طريقه من كشف للأسرار، أشبه بـ "الرضاعة" (المثنوي الجزء الأول ٢٣٧٨)[٢١١] فالمرّشد الروحي يُغذي مريده من صدره كما يقول كولالي إلى مريده بهاء الدين نقشبند[٢١٢] (المتوفى ١٣٨٩) فإنه يعطيه بطريقة ما "لبن الحكمة" والخبر ليشربه.

---

٢١٠ الأجاخان: هو لقب يحمله إمام الشيعة الإسماعيلية النزارية، يعتبر بمثابة الأم والأب للطائفة الإسماعيلية وليس مجرد زعيم روحي، حتى الآن الزعيم لتلك الطائفة هو الأجاخان الرابع السيد شاه كريم الحسيني، وله مؤسسة ضخمة تحمل اسمه تعني بالتنمية والثقافة والفنون في شتى أنحاء العالم الإسلامي، ندين لها بالفضل في ترميم جزء كبير من مساجد جامع شارع المعز في القاهرة الفاطمية.

٢١١ وردت تلك الأبيات تحت مسمى قصة "بيان أن حركة كل مرئ من حيث يكون كل إنسان ينظر من كوة وجوده.." وهي الأبيات التالية: "وهذا الكلام بمثابة اللبن في ثدي الروح وبلا جاذب حلو لا يجري عذبا زلالا" ويقصد به أن اللبن لا يفيض من ثدي الأم إلا إذا كان هناك جاذب له.

٢١٢ هو بهاء الدين نقشبند بخارى: (١٣١٨ ـ ١٣٨٩) هو مؤسس إحدى أكبر الطرق الصوفية، وأكثرها انتشارا على مستوى العالم وهي الطريقة التي تنسب إليه الطريقة النقشبندية. هو

لذلك تظهر في مثنوي الرومي (الجزء الثاني ٢٩٦٩)[٢١٣] أمُّ موسى كرمز للإنسان الكامل وطفلُها كمريدها. فالإنسان كما يشعر به الرومي يشبه المرأة الحامل التي تحمل بين ثناياها السرَّ الذي ينمو وينمو مع كل خطوة. ومثل هؤلاء البشر هم بحق "رجال الله" كما يقول القرآن في سورة النور آية ٣٧ ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ ممن لا يلهيهم شيء عن صلاتهم، فهي تحمل في طيّاتها أسماء الله.

ويمكن رؤية التطور الروحي النفسي في صور أخرى مشابهة، ففي بداية الكتاب الثاني من المثنوي والذى كتبه الرومي بعد استراحته من الكتاب الأول بأربعة أعوام استهله قائلا:

---

من أمر مريديه بألا يدونوا أي شيء عن سيرته، لذلك نجهل الكثير عن أصله ونشأته أو حتى أقواله الا من الأعمال التي كتبت عنه بعد وفاته مثل "أنيس الطالبين" الذي كتبه صلاح الدين محمد بخاري... ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره، صحب الشيخ الأمير (كلال) الذي اعتنى به ورباه أفضل تربية. وخلال صحبته للأمير كلال غلبت عليه جذبة؛ إذ سمع هاتفا يناديه: أما آن لك أن تُعرض عن الكل وتتوجه إلى حضرتنا. فترك ـ رضي الله عنه ـ الكل. وكان يقول: "هناك طريقان في الذكر: سر وجهر. فاخترت السرّ لأنه أقوى وأولى".... فأصبح هذا النوع من الذكر أهم ما يميزالطريقة النقشبندية. وأنه روح الذكر الخفي من أجل دوام المذكور في القلب ونقشه في الباطن. وقيل في معنى نقشبند أو نقش بند أنها ربط النقش، والمقصود بالنقش انطباع القلب بالذكر، وربطه أي بقاؤه من غير محو، حيث تقوم هذه الطريقة في التصوف على الذكر أساسا.

٢١٣ "لقد تأخر هذا المثنوي فترة من الزمان، فالمهلة واجبة من أجل أن يتحول الدم إلى لبن (سائغ) وما لم يلد مولودا جديدا، فإن الدم لا يتحول إلى لبن حلو، فأحسن الاستماع". ويقصد مولانا هنا أنه قد توقف عن نظم مثنوي الجزء الأول فترة بسبب صعوبته على الناس. فاحتاج التوقف فترة ما بين عامين إلى خمسة لإعادة النظر في الأسلوب.

"يستغرق وقتًا طويلاً حتى يصبح الدمُ لبنًا" (مثنوي الجزء الثاني، البيتُ الأول)

ويشير الرومي ها هنا إلى الآلام التي عاناها إلى أن أدمت قلبه بعد اختفاء صديقه شمس الدين[٢١٤]، تحولت تدريجيًا لبنًا روحيًا شافيًا ومغذيًا لأرواح مريديه. بل الأمر أكبر من ذلك، فالحمل والولادة يُفسران بالتطور الروحي للإنسان. فأبيات العطار تقول "من لم يحمل بآلام الحب، يكون امرأة وليس رجلاً".

فالألم هو شرط التطهر الروحي، ومن دونه لا يتحقق الوصول إلى رتبة "رجل الله". فالتأكيد على أهمية الألم نقطة محورية في كل سير وقصص الكثير من المتصوفة وهنا تظهر العلاقة بأرواح السيدات الحساسة قوية، فآلام الولادة التي أوضحها Eduard Sprang في كتابه عن "سيكولوجية الجنسين" أكد أن تجربة الولادة هي تجربة المرأة المحورية. وربما قد يبدو ذلك الأمر بعيدًا عن الفهم، إلا أنه بنظرة على أدب التصوف الإسلامي يتضح أنه ربما من الاشياء اللاشعورية ربطُ هوية الروح بالمرأة، التي كما رأينا تناسب موضوع النفس تمامًا. وفي هذا

٢١٤ هو شمس الدين محمد التبريزي (١١٨٥ ـ ١٢٤٨) متصوف فارسي كبير له الفضل الكبير في الوهج الروحي الذي أصاب مولانا جلال الدين الرومي بعد لقائهما وكتب بعد اختفائه فجأة من حياته، ربما يكون قد قتل "ديوان شمس" من أعماله "المقالات" التي تضم التفسير الصوفي لرسالة الإسلام علاوة على قواعد العشق الأربعين التي يجب الخلط بينها وبين رواية الكاتبة التركية إليف شافاق وإن كانت تتناول موضوع اللقاء بين شمس التبريزي ومولانا جلال الدين الرومي.

الإطار تعتبر مقاربة الرومي لميلاد المسيح بالروح قد سبقت [٢١٥] في مقاربته بما يقرب من نصف قرن متأثرا بها قائلا Meister Eckhart

"فالجسد هو مريم، ولدى كل واحد منا المسيح، لكن قبل أن يتجلى الألم فينا، لن يولد فينا المسيح، وعندما لا يأتي الألم يرجع يسوع إلى منبعه على نفس الطريق السري، كما أتى من قبل، ونظل نحن محرومين ونعود منه خاليي الوفاض".

فالألم ضروري من أجل التطور، فلما أتت مريم آلام المخاض، كوفئت بزخات من البلح الحلو، هو ما يدل على صورة أعمق، وهي رؤية المحبوب التي تُنسي جميع آلام الروح، يدخل في نفس الإطار القصة القرآنية عن السيدات اللائي قطّعن أيديهنّ عند دخول يوسف دون أن يشعرن. وعندما تحيا الروح كأنثى، يتشابه دخولها مع الله بالتقاء الرجل والمرأة المنبع الأصلي الكبير، أو يمكن تفسيرها على ضوء آخر هو "أن يحمل الجسد من خلال اتصاله بالروح مولد أعمال خيرة"، و يعتبر

---

٢١٥ هو مستر إيكهارت: (١٢٦٠ ـ ١٣٢٨) فيلسوف وعالم لاهوت مسيحي، في أواخر العصور الوسطى. بدأ حياته راهبًا دومينكانيًا ترك أثرا واضحا على معاصريه، ساهم في تطوير مصطلحات الفلسفة في اللغة الألمانية، أثارت أفكاره وفلسفته الدينية حفيظة الكنيسة لذلك وصمته بالهرطقة. قد كان متصوفا بالدرجة الأولى وكتب أفكاره عن "سبب الروح" والتثليث في المسيحية بشكل ما يجنح للغنوصية المسيحية التي انتشرت إبان القرن الثالث والرابع الميلادي، وشنت الكنيسة حربا ضارية لدحض أفكارها واندحارها تدريجيًا. لعل أشهر كتاباتها هي مخطوطات نجع حمادي التي اكتشفت في مصر عام ١٩٤٢ وكتبت باللغة القبطية وتضم أفكارا فسلفية ودينية وتيارات كانت موجودة بالفعل في مصر. توفي إيكهارت أثناء مرافعته الطويلة أمام محاكم التفتيش التي أقيمت له في كولن، واعتبر البابا يوحنا ال٢٣ بعض أقواله تجديفا وحرّم تداولها. من أعماله " كلام الفرقان"، "بعض المواعظ"، "كتاب العزاء الإلهي" وغيرها، يعد من أهم مفكري الإصلاح الديني حتى مارتن لوثر.

بشكل عام كل مخلوق هو أمًا، من المعادن حتى الإنسان، وكلٌ يأتي بأفضل الأشياء عند التقائه بقوة أعلى، فمن الحديد والحجر يولد النار، وكل عمل إنساني يحتوي على ٱلتقاء عنصر سالب وعنصر موجب، هذا الاتحاد يمكن اعتباره تزاوجًا، وكلٌ من التزاوج والولادة يمران بجميع الطبقات حتى يصلا إلى تفاعل القلم الأزلي مع اللوح الأبدي. لذلك يجد القارئ في المحيط الثقافي التركي روحا متصوفة قد ارتجلتْ شعرا "مولدا" من خلال الإلهام المفاجيء مثل الشعر الذي يعرَف بـ "دوجوس" بمعنى "الولادة أو المولود"، فكما قال الرومي:

"كل ما في الدنيا هو أم، إلا أن واحدة لا تعرف عن ألم الأخرى شيئا" (المثنوي الجزء الثالث ٣٥٢٦)[٢١٦].

---

٢١٦ وردت تحت مسمى "تشبيه الدنيا واتساعها الظاهر وضيقها الحقيقي وتشبيه النوم بأنه خلاص من هذا الضيق" تحت بيت " ومن ثم فإن أم طبعي تشق طريقا خف موتها حتى تحصل الحمل من رحم الشاه - حتى يرعى ذلك الحمل في صحراء خضراء هيا فشق الرحم فقد صار ذلك الحمل متضخما - فالحامل باكية في المخاض قائلة "أين المناص؟ والجنين ضاحك إذا اقترب الخلاص وكل من تحت هذا الفلك أمهات سواء من الجماد أو من الحيوان أو من النبات وكل واحدة منهن غافلة عن ألم الأخرى، اللهم إلا من اتصفت بالكمال والذكاء" ويقصد مولانا هنا أنه عندما يتم للروح كمالها يترك تعلقه بالرحم أي الدنيا الضيق وشبه خروج المؤمن من الدنيا بخروج الصبي من ذلك العالم المغمور والظلمة إلى روح الدنيا.

## الفصل السابع

# المرأة كتجلٍ إلهي

لقد عبّر النبي عن حبه للنساء بوضوح كبير كما أشرنا بالتفصيل في فصل النبي والنساء، واحتشد الأدب العربي الكلاسيكي، وكذلك الأدب الفارسي المبكر بالعديد من شعر الحب، حيث وصف المحب العطروسحره. إلا أنه يجب الحذر عند قراءة هذا النوع من الأدب التركي - الفارسي فمن الصعب تحديد إن كانت ذات المحبوب رجلاً أم امرأة، حيث لا يوجد في قواعد اللغة الفارسية والتركية ما يدل على الجنس، إلا أن بعض الإشارات الهامة ممكن أن تحل تلك المعضلة، مثل الإشارة الدائمة إلى اللحية النابتة للمحبوب (والمقصود به يكون صبيًا ذا أربعة عشر عاما جميلاً كالقمر).

وتصبح هذه الخاصية عند الكثيرين وخصوصا عند الفرس رمزًا بحتًا لإخفاء جنس المحبوب الحقيقي، وتبدو الملحوظة التي أشار Hammer purgstall[٢١٧] إليها في مقدمة ترجمته لديوان حافظ عام ١٨١٢ و ١٨١٣ مناسبة في هذا السياق:

---

٢١٧ (١٧٧٤ - ١٨٥٦) دبلوماسي ومستشرق نمساوي، عرف بترجماته للآداب الشرقية ويعتبر مؤسس علم "الدراسات العثمانية" ومن أحد كبار المستشرقين النمساويين. عمل عام

"يجد المترجم في مواضع كثيرة نفسه عاجزاً عن معرفة أو إيضاح الجمال الأنثوي، وغير مسموح له أن يجري أي تغيير، فماذا له أن يفعل، إن لم يقع في تناقضات عندما يمدح الشاعر مثلا فتيات بلحيات مخضبة بالصبغة الخضراء.. ".

ويعتبر حب السلطان المهيب محمود الغزنوي لعبده التركي إياز أمرا معروفا منذ القرن ١١، وشكّل موضوعًا متعدد الجوانب، منها الملاحم الجديرة بالذكر، التي كُرست له فيما بين القرن ١٤ وال١٦. ولكن عندما تعتبر "النفس" كأنثى، فإن ذلك يتيح مساحة لتفسير الأبيات العديدة الموجهة للمحبوب "الذكري" وفهمها بشكل ما على ذلك النحو.

وفيما يخص المحبوب الأنثوي المثالي، عدّدها جوته في ديوانه الشرقي الغربي قائلاً:

"اسمع واحفظ عن الستة أزواج من العاشقين"

وهو ما يقصد بهم رستام وردابة[٢١٨](وربما يقصد هنا والد رستام كزوج ردابة)، يوسف وزليخة، فرحات وشيرين[٢١٩]، ليلى والمجنون،

---

١٧٩٩ كمترجم وسكيرتير للأدميرال البريطاني سيدني سميث في إسطانبول، وارتحل في حملته إلى مصر. ترجم العديد من الآداب الشرقية إلى الألمانية مثل ديوان حافظ (١٨١٢) الذي استوحى منه الشاعر الألماني الكبير جوته ديوانه الشرقي - غرب. وحكايات ألف ليلة وليلة، وغيرها من كتب التاريخ عن الدولة العثمانية.

٢١٨ وهي من قصص الحب والمغامرات التي وردت في الشه نامه للفردوسي. وردابة هي ابنة الحاكم ميرهاب أمير كابول وأصبحت هي أميرة كابول، وتزوجت بزال وأصبحت أم الأمير القوي رستم أمير زابولستان وهي من أشهر الأساطير الفارسية.

والشاعر العربي جميل وبثينة، وسليمان وبلقيس "السمراء" ويقصد بها بلقيس اليمنية. ويضيف لهم زوجاً آخر من العشاق معروفاً في التقاليد الفارسية، وهما واميق وعزرا[٢٢٠]. ومن بين هؤلاء تتصدر ليلى والمجنون المرتبة الأولى في الآداب المتأخرة. وتعود قصة المجنون لقيس الذي فقد عقله بسبب حبه الذي لم يكلل بالاكتمال إلى التقاليد العربية المبكرة، فهو العاشق الذي ترك مدينة العقل وعاش في الصحراء. ومن ثم أصبحتْ الوحوش صحبته وعششت الطيور في شعره، واعتاد تقبيل خطوات أقدامها على التراب في الشوارع التي كانت تجوبها ليلى. وبالنسبة للعديد من الشعراء أصبح "المجنون" رمزا يُعبِّر عن حالتهم الخاصة (أو على الأقل كما يدعون)، حتى إنه من شدة حبه المضطرب لليلى لم يعد راغبًا في رؤيتها، لأنه يحيا فيها كليًا، وبذلك أضحت القصة للمتصوف مثالا للاستغراق التام في المحبوب الإلهي.

---

٢١٩ هي من قصص الحب التي وردت في ديوان النسائي، بالرغم من كون الأميرة الآرمينية شيرين حبيبة شاه خسرو إلا أنه أحبها فرحات المهندس والمصور، وكان هو من وضع خدماته لدى تصرفها قبل أن يلتقي بها، وعندما التقت به أحبته ووقعت في غرامه مما أثار غيرة الأمير خسرو وأمر بإحضاره وعرض عليه الزواج من شيرين شريطة أن يحفر شارعا صغيرا في قلب الجبل، وبالفعل رضخ فرحات لذلك الشرط ورسم صورة ليصطحبها معه للعمل، وفي إحدى المرات زارت شيرين فرحات في الجبل ومن حبه لهنا وشدة سروره سقط من الجبل صريعا، وأمرت شيرين ببناء ضريح له بقبة زرقاء.

٢٢٠ من قصص الحب الفارسية التي أوردها جامي في سبحة الأبرار، حيث تمثل واميق الكمال الصوفي المتحقق بالحب في معناه الخالص" والذي لا يمكن تحقيقه إلا "من خلال تجربة كشف بطيئة وخبرة طويلة من التوحيد" فما ترجوه هو الهروب وحيدة مع عزرا حيث البحث عن وطن أصلي، حيث الوحدة تقيم خيمتها على ضفاف ينبوع ماء بعيدة عن الحبيب والعدو، حيث تكون الروح والجسد في سلام وأمان بعيدا عن البشر".

وكما ظهرتْ ليلى، ظهرتْ أخريات في الأدب العربي الكلاسيكي كسيدات معشوقات مثل هند وسلمى في الأدب الصوفي عند العرب كرمز أو شفرة للوجود الإلهي المعاين، وتزخر أبيات ابن الفارض[٢٢١] (المتوفى عام ١٢٣٥) وابن عربي عن صور لهند وسلمى ولبنى وأخريات. كما يزخر أدب السرد بالاضطراب الذي يغشى الإنسان عند تعرضه لصدمة في حبه الكبير. ولعل أبرز الأمثلة هي قصة الشيخ صنعان[٢٢٢] الذي ترك

---

٢٢١ هو أبو حفص شرف الدين عمر بن علي بن مرشدي الحموي: (١١٨١ ـ ١٢٣٥) أحد أكبر شعراء التصوف حتى لقب "سلطان العاشقين" يعد شعره قمة الشعر العربي في الحب الإلهي. إلا أنه غير معروف تمامًا في الغرب، لعل أشهر قصائده "الخمرية" و"التائية" التي يتناول فيها الخمر الإلهي الذي يعكس تجربة روحية عميقة لعلها الأطول في الشعر الصوفي الذي يتناول الحب الإلهي، مكث في مكة بعد رحلة الحج ما يقرب من خمسة عشر عاما نظم خلالها قصائده، وقام الأب الكامبوني الإيطالي جوزيف سكاتولين بنشر وتحقيق تحفته ديوان ابن الفارض. حتى الآن لا يزال يقام مولده في ٣ جمادى الأولى من كل عام ويستمر ليلتين وثلاثة أيام تحييهم الموسيقا والذكر وطقس إدخال السيخ في الخد وهو طقس غير معروف أصله، ولا يزال مقامه الآن في المقطم بالقرب من مقام ابن عطاء الله السكندري.

٢٢٢ هي إحدى القصص التي أوردها العطار في منطق الطير، إلا أن الأبحاث الأخيرة أظهرت أن القصة أقدم من العطار بكثير وتدل على التعايش بين الأديان المختلفة، والقصة تتلخص في حكاية الشيخ صنعان الذي كان يقطن مكة مع أربعمائة من مريديه، رأى في منامه أنه رحل إلى بلاد الروم وسجد للصنم. فأسرع بالذهاب إلى بلاد الروم مع مريديه، وهناك أغرم بفتاة مسيحية غراماً شديداً، ولما أدركت الفتاة حبه لها ومقدار شغفه بها عرضت عليه شروطها وهي: السجود أمام الصنم، وإحراق القرآن، وشرب الخمر، والبعد عن الإيمان. فقبل في بداية الأمر شرب الخمر دون غيرها، وبعد أن تمكنت منه الخمر وسيطر عليه العشق، قبل أن يكون مسيحيا ثم عرض على الفتاة الاقتران به، فاشترطت أن يكون صداقها خدمة الخنازير عاما كاملا، فقبل الشيخ. وكان للشيخ صنعان صديق يقطن الكعبة حين علم هذا الصديق بما حدث للشيخ صنعان اغتم وحزن حزنا شديدا. فأسرع بالسفر إلى بلاد الروم مع المريدين للحاق بالشيخ، وواصلوا التضرع والتشفع أربعين ليلة فاستجاب الله لتضرعهم، وذات ليلة رأى أحد المريدين الرسول فطلب منه الشفاعة للشيخ عند الله، فتشفع له الرسول الكريم، فتخلى الشيخ عما فعله، وعاد الجميع إلى مكة مرة ثانية.وبعد رحيله رأت الفتاة في

طريق زهده فجأة بسبب حبه الشديد إلى سيدة مسيحية، ولكي يصل إلى محبوبته شرب من أجلها النبيذ، وأضحى راعيًا لخنازيرها، وتنتهي القصة بهداية الغاوية إلى طريق الصواب، وتعود إليه ويعود الشيخ إلى مريديه. انتشرت تلك القصة بشكل موسع في شرق العالم الإسلامي بعد أن أوردها العطار في "منطق الطير" بشكلها الكلاسيكي. ويجدها المرء في كلٍ من الأدب الكشميري والماليزي، وعن نفسي مستني تجربتي الشخصية حين قادتنا مرشدة سياحية في بخارى بسبتمبر ١٩٩٤ وقصت علينا القصة بتفاعلٍ من داخلها حسب الرواية التركية الجاغطية [٢٢٣] المنسوبة لشيخها مِير علي شير نوائي [٢٢٤] (المتوفى عام ١٥٠١). حيث إن قوة الحب المهزوم من طرف الشيخ صنعان لتلك المرأة قد وثق بشكل أخّاذ، ولابد للقارئ أن يأخذ في اعتباره أن تلك القصة تحدث في مجتمع يصعب على الرجل رؤية امرأة غير مستورة خارج إطار العائلة، حتى إن

---

نومها أن الشمس قد سقطت بجانبها وطلبت منها الإسراع صوب شيخها، فأسرعت خلف الشيخ حتى وصلت إليه بالحجاز، فاضطرب الشيخ حين علم بقدومها ولكنها طلبت منه أن يعرض عليها الإسلام، وما إن أسلمت حتى أسلمت روحها.

٢٢٣ الجاغطاي خانت: هي سلالة ملكية حكمت في منطقة طاجكستان (١٢٢٥ ـ ١٦٧٠) أسسها جاغطاي خان، وهي سلالة مغولية حكمت تقريبا كل وسط آسيا وهي حاليا اوزبكستان وقرغيزستان حتى شرق الصين وجزء من شمال أفغانستان.

٢٢٤ هو نظام الدين علي شير: (١٤٤١ ـ ١٥٠١) وعرف بالنوائي ويعني "النائح أو البكاء" بالفارسية، شاعر من أواسط آسيا التركية، ومتصوف في بلاط التيموريين في هيرات. يعتبر من أهم شعراء اللغة الطاجيكية وهي أحد فروع اللغة التركية. يعتبر النوائي بطلا قوميا في نظر كل من الشعب الأوزبكي والطاجيكي، ليس فقط بسبب شعره ولكن لكونه راعيا للفنون والعمارة، تعادل شهرته الشعرية في اللغة التركية شهرة يونس إمرة. اشتغل بالرسم والموسيقى والشعر وكان مريدا في الطريقة النقشبندية وتلميذا لعبد الرحمن جامي، من أعماله "خمسة متحيرين، محاكمة اللغتين، ميزان الأوزان".

رؤية لحظة خاطفة للجمال الأنثوي (ولو كانت مجرد صورة) تتركُ في الملاحظ اضّطرابا عميقا، كما أخبرني أصدقائي المسلمون من الأسر المحافظة.

وقد تلعب المرأة رمزية سامية للأماني والأهداف، وهنا يجب تفسيرها في إطار رمزية الكعبة، ومن أدل الأمثلة على ذلك رواية جامي لقصة ليلى والمجنون، عندما اقترب المجنون أثناء الحج من الكعبة المتشحة بالسواد ووقف أمامها، أصبح لا يعرف إن كانت هي ليلى أم تلك المحبوبة السماوية:

"آه يا من تجلسين في أغاني العرس متغنجة، يا من تزيحين الستائر عن السر، قد جلست في صحبة العرب، وأفنيت تجارة الفرس، وأدار العرب والفرس وجوههم لك، وأثملهم الشوق إليك".

ولعل مقاربة المحبوبة بالكعبة معروفة منذ ما قبل جامي بزمن، فالشعراء وكتاب العصور الوسطى تحدثوا عن تجربة الحج، وقارنوا البقعة المقدسة في الإسلام بالعروس المحتجبة، أو بالعذراء المرغوبة، حتى يتحمل الرجل مخاطر الرحلة الطويلة الخطرة في الصحراء آملا في لمستها، ويملي عينيه بجمالها، ويقبل حجرها الأسود. وكان الشاعر الفارسي خاقاني (المتوفى عام ١١٩٩) من أوائل من استخدموا تلك الرمزية في تعبيره عن شعر الحج. ألم يقل التدين الشعبي بقدوم الكعبة في آخر الزمان كعروس إلى قبة الصخرة في القدس؟ وحتى الآن لا تزال تلك الرمزيةُ حيةً. كما أظهرتْ دراسة إثنولوجية أمريكية أنه عندما يركز الشخص على عنصر ما، يتيح له هذا عددا لانهائيا من المقارنات بين

رحلة الحج والرحلة للمحبوبة، وبين العروس المستورة والكعبة المتشحة بالسواد كما يظهر في الشعر. ومن التيمات الأخرى غير العروس المحبوبة التي وظفت في تلك الرمزية نجد استخدام مفردة "العذراء" للتعبير عن "معنى" لكتاب أو لشعر، فالعذراء التي لم تمس، هي تعبير عن المعنى الحقيقي، عن الشيء الذي لم يكشفه بشرٌ قبل الكاتب، وفي أغاني العرس يصبح خطاب "الرجال" عبارة عن حروف يُفضي بها إلى المرأة، وتُعتبر أمنية المتصوف الفارسي أحمد الغزالي مثله مثل آخرين كثيرين كالشاعر الهندي الفارسي أبو الفرج الروني[٢٢٥] (المتوفى ١٠٩١) يبحث عن "عريس جذاب المظهر" للعذراء أي "الكلمة"، ولم يحاول حافظ وحده فقط تهذيب الخصلات المتناثرة ل"عروس الكلمات الحلوة".

ويقصد الشاعر الأردي سودا[٢٢٦] (المتوفى ١٧٨١) بقوله عن لسانه الحاد كالسكين لكي يقص للعروس أي "المعنى" الرداء المناسب. ودومًا ما نجد عند ابن عربي التفسيرات العميقة الصادمة للمرأة التي تلعب عنده دورًا هامًا. فليست فقط "النفس" التي يراها أنثى لكن أيضًا يرى "الذات" الجوهر الإلهي كأنثى، وهكذا هي المرأة بالنسبة له هي الشكل الذي يُعرف فيه الرب.

---

٢٢٥ هو أبو الفرج روني: من مواليد لاهور كان شاعرا في البلاط الفارسي كتب مثنوي خاصا به، ترجع جذوره لخراسان وتوفي ما بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر.

٢٢٦ هو مرزا محمد رفيع سودا: (١٧١٣ - ١٧٨١) أشهر شعراء اللغة الأردية في دلهي عرف بغزالي اللغة الأردية والقصائد الأردية. كانت معظم قصائده من أدبيات الغزل إلا أن السبب الأساسي في بقاء ذكراه حية حتى اليوم هو الشعر الساخر.

وتظهر الرمزية جليةً عند ابن عربي خصوصاً في ديوانه الشعري الصغير الذي سطّره بعد لقائه بالفارسية الجميلة المتعلمة في مكة "النظام". وهو شعر يبدو مثل شعر الحب الجاهلي إلا أنه وجد أن تفسيراً لمحتواه الفلسفي الصوفي أمرٌ مُلِح. وهكذا يجد القارئ مقاربات مستمرة تشير إلى الإلهي الأنثوي في شعره، وما "السيدات اللطيفات" التي قابلهم عند طوافه بالكعبة إلا "الملائكة" التي تطوف حول العرش (كما تصورسورة الزمر آية ٧٥) ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، حتى وإن كانت تلك المقاربة قد كُرست في بعض أعمال الحج الأخرى، إلا أن ابن عربي هو أول من عرّف "البنات اللطيفات" (في شعره ١٩)[٢٢٧] كـ "صور للحكمة الإلهية، التي يدركها (يماينُها) قلب العارف".

وتعبّر "النساء الجميلات" عن "أسماء الله المعينة" (رقم CLIV2, 26, 1)

بينما تشير "السيدات الجريئات" في شعره (٣٩، ١)[٢٢٨] إلى "الأفكار الإلهية"، فالمحبوبة سلمى ما هي إلا إشارة إلى "الموضع

---

٢٢٧ "يا طللا عند الأثيل دارسا* لاعبتُ فيه خردا أوانسا بالأمس كان مؤنسا وضاحكا* واليوم أضحى موحشا وعابسا" وبقية القسم ال١٩

٢٢٨ "نفسي الفداء لبيض خرد عرب * لعبن بي عند لثم الركن والحجر
ما تستدل إذا ما تهت خلفهم * إلا بريحهم من أطيب الأثر" بقية القسم ٣٩ نشرة نيكلسون.

السليماني" (شعر رقم ٤، ٢)[٢٢٩]، ويقول الأندلسي الكبير كلامًا مزدوجَ المعنى مما يصعب على المترجم تفسيره:

"ما قصدت من خلاله (أي الوجه) هو أنت فقط (يعني حرف الهاء، كضمير مؤنث)"، فلا رابط لي إلا هي، فرابطتي بعالم الظاهر ما هي إلا لأجل خاطرها، لأنها تجلت هناك" (شعر ١٠، ١٣).

وتعبر تلك الجملة عن موقف ابن عربي بجلاء، فهو يكتب عن فهمه للإلهي كالتالي:

"فالله لايمكن فصله عن المادي المرئي، ويصبح أكثر كمالاً في المادس الإنسانس، كما لم يُرَ من قبل، وأكثر اكتمالاً في المرأة عن الرجل، فهو يُرى إما في فكرة الفاعل أوالمفعول، أو في كليهما معا، لذلك عندما يلاحظ الرجلُ اللهَ في شخصه، وأن المرأة خلقت منه، يعاين الرجلُ اللهَ تحت فكرة الفاعل، وإن لم ينتبه لذلك، ويلاحظ أن المرأة خُلقت من الرجل، فيرى اللهَ في صورة المفعول، حيث إنه كمخلوق من الله، يكون في علاقته مع الله مفعولا مطلقا، ولكن إذا عاين الله في المرأة فإنه يعاينه كفاعل وكمفعول، فالله يتجلى في شكل المرأة، يكون فاعلاً بفضل حقيقة ما له من سلطان على روح الرجل، والرجل مجبول على أن يتوجه إليه ويطيعه كليا ويسجد له، فهو أيضًا المفعول فعندما يظهر في شكل المرأة، يكون تحت تصرف الرجل، وممتثلاً لأوامره. لذلك تعني بالنسبة له معاينة

٢٢٩ "سلام على سلمى ومن حل بالحمى * وحق لمثلي رقة أن يسلما
وماذا عليها لو ترد تحية * علينا ولكن لا احتكام على الدمى"

الله في المرأة رؤية كل من الصورتين، ومثل هذه المعاينة أو الرؤية تكون أكمل من كل صور الرؤية الأخرى، التي يتجلى فيها".

وتنعكس دوما وأبدا مثل هذه الأفكار في أعمال الرومي، كما في كل قصة (مثنوي الجزء الأول، ٢٤٣٦)"[٢٣٠] حيث يُقسم الشاعر متغنيًا بصورة مغايرة تماما عن تقديره للمرأة تقديرا نقديا لاذعا بسبب كلام النبي (حديث النبي):

"فهي قبس من نور الله، ليست "بقميص أو جلبة خارجية"، فهي خلاقة، أقرب ما تكون إلى الغير مخلوق"

لذلك يتحدث قبل ذلك بقليل عن وجْد النبي ولاحظ:

"في ليلة الوجد، أمكن لروح محمد المقدسة أن تقبل يد العروس" (مثنوي الجزء الأول، ١٩٩١)"[٢٣١]

---

٢٣٠ وردت في "بيان الخبر القائل: إنهن سيغلبن العاقل" تحت أبيات " قال النبي عليه السلام: إن النساء يغلبن العاقلين تمامًا وأصحاب القلوب ثم إن الجهال يغلبون النساء، ذلك أنهم شديدو الحدة ويسيرون على العشواء وقليلا ما يكون عندهم لطف أو رقة أو وداج، ذلك أن الحيوانية غالبة على أصولهم، فالحنان والرقة من صفات الإنسان، والغضب والشهوة من صفات الحيوان إنه(ا) شعاع الحق وليس المعشوق في ذاته، إنه(ا) تجل لخالق وليس المقصود المخلوقة".

٢٣١ وردت تحت مسمى "في بيان حديث إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها" وهي الأبيات التالية: " لقد صار المصطفى غائبا عن الوعي من ذلك الصوت العذب، ففاته الصلاة في ليلة العرس ـ ولم يرفع رأسه المبارك من ذلك النوم حتى صلى الصبح عند الضحى. وفي ليلة التعريس وجدت روحه الطاهرة "رتبة" تقبيل اليد من العروس ـ العشق والروح كلاهما مختف، فإن سميتُ كلا منهما عروسا، لا تعب علي" . . هنا التباس شديد في ترجمة شتا أو كفافي حيث هو من ترجم الكتاب الأول، ففي النص الألماني الذي ترجمته شمل مباشرة من الفارسية تقصد "الله" كمحتجب وهو العروس. ربما بسبب اختلاف

ويضيف بحرص التالي:

"لا توبخني، إذا سميت الله "العروس" !

ويعرف المرء مثل تلك التصورات في رسالته عن "الحال" و"المقام"، فيسميه:

"الحال هو ستر العروس الجميل، أما المقام هو انفراد الملك بالعروس".

وهو ما يعني أن الحال عند المتصوف هو معاينة خاطفة للمحبوب الإلهي، أما المقام فيمكن أن يستديم الكشف ويأمل باتحاد روحي (المثنوي، الجزء الأول، ١٤٣٥)[٢٣٢]

ومثل هذه الأفكار نجدها مبعثرة في أعمال الرومي كما هو الغالب عنده، تُذكر هنا وهناك بشكل غير نظامي، أما ابن عربي فيجد المرء هذا الربط بين الذكري والأنثوي في كل أعماله، وهو ما يذكرنا بأصل الأسطورة القديمة عن الإله الخالق الجامع بين عناصر الذكورة والأنوثة، كما ينص مبدأ "اليانج" و"الين" التي نلاحظها في كل مكان، ليس فقط عند ابن عربي ولكن بالأحرى عند عدد لا يُحصى من المسلمين ممن

---

مخطوطات المثنوي حيث ورد البيت الذي أشارت إليه شمل في نسخة ترجمة شتا تحت رقم ٣٠٠٣ بينما أوردته هي تحت رقم ١٠٩٩.

٢٣٢ وردت تحت مسمى "رؤية رسول الروم لعمر رضي الله عنه نائما تحت الشجرة" في الأبيات "فالحال كأنه الجلوة لتلك العروس الحسناء والمقام هو الاختلاء بها - والجلوة يشهدها العريس وغير العريس وفي وقت الخلوة لا يوجد إلا العريس العزيز - فالعروس جملوها في الجلوة ليراها الخواص والعوام، وفي الخلوة ينبغي أن يكون العريس فحسب مع العروسة وهناك كثيرون من أهل الحال في الصوفية وندر من بينهم من يكون من أهل المقام".

لديهم مبدأ " المثنوية"، "المثنى"، التي تظهر من اتحاد المطلق أي الإله المخفي أو الإله المحتجب Deus absconditus وتُرى تحت صور" الجمال" و"الجلال" أو"اللطف" أو"القهر"، وهي كلمات مثل Mysterium tremendum[٢٣٣] وعكسها

Mysterium fascinans التي شرح الفرق بينهما [٢٣٤] Rudolf Otto.

ألم تفسر كلمة الخلق العربية المكونة من حرفي "كن" إلى التجلي الثنائي للواحد؟

---

٢٣٣ تمني باليونانية : "السر، اندلاع الخوف والرعدة" أي "الإلهي" كعلة أولى تستجلب الجلال والرهبة. وهو مصطلح طوره عالم اللاهوت الإنجيلي وعالم العقائد Rudolf Otto في عمله الكبير "المقدس" لكي يشرح لحظةً عميقة في تجربته الدينية. وهذا المصطلح يشكل مع مصطلح Mysterium frascinsum وتمني شرح مشاعر التجربة الدينية. وكلا المصطلحين يشيران إلى "الإلهي": الانجذاب والرهبة، التقييد والتهديد. وكلاهما يلعب دورا مؤثرا في اللاهوت الإنجيلي والفلسفة الدينية، لما يعكسانه من تجربة دينية غير عقلانية إلا أنهما يستخدمان للتعبير عن التجربة الدينية بشكل ديني عقلاني ويشكلان معا مصطلحا آخرا وهو "Numen"، وتمني "الإله الذي لا شكل له".

٢٣٤ هو Karl Louis Rudolph Otto (١٨٦٩ - ١٩٣٧) : كان عالم عقائد ألمانيًا ولاهوتيا إنجيليا. سافر إلى الهند وسريلانكا، والصين واليابان والشرق الأوسط وأفريقيا جمع خلالهم ملاحظته عن الأديان والعقائد، إلا أنه أولى اهتمامًا خاصا بالهندوسية. في عمله الكبير "المقدس" يشرح به تجربته الدينية التي تبعد كل البعد عن العقلانية واستخدم للتعبير عن المشاعر المكثفة في تلك اللحظة تعبيرات عقلانية. من أعماله " كتابات تاريخية نقدية عن حياة وآثار يسوع في ست مجلدات"، "أديان الرحمة: الهندوسية والمسيحية"، "الشعور بالفوق دنيوي"، بالإضافة إلى بعض الترجمات من كتب الهندوسية إلى الألمانية والتعليق عليها.

أفلا تشير ضربات القلب والنفس، الشمس والمطر، الصحة والمرض إلى ذلك السر، ومن دونه لأصبحت الحياة بالنسبة لنا لا يمكن تصورها؟ ويندرج اتصال الليل والنهار ببعضهما بشكل ما في ذلك الإطار، فالمثل التركي ـ الفارسي يقول: "الليالي حُبلى (حوامل)"، وهو ما يذكرنا بأسطورة بداية الخلق من كل ليلة.

وفسر ابن عربي حديث الرسول عن حبه للسيدات لكي يعبر عن دور المرأة الرئيسي كعنصر في الخلق الإلهي، إلا أنه أفصح بوضوح عن أفكاره للحب الجسدي. ومن خلال تلك الرؤية وعبر تلك التصورات المحكمة طوّر الكُتّاب المتصوفة المتأخرون أفكارهم، ووصفوا من خلالها العلاقة الجسدية بين الرجل والمرأة.

وأدل الأمثلة على ذلك هو العمل التحليلي الذي قام Sachiko Murata به لكتيبات المتصوف الكشميري يعقوب صرفي[٢٣٥] (المتوفى عام ١٥٩٤) الذي أوضح من خلال "التجربة الدينية" للحب الجسدي ضرورة الانتباه لفعل الحب، ففي أقصى لحظات تلك النشوة التي يتخيلها الإنسان ويخوضها، تكون الروح مشغولة جدا بالتجلي الإلهي، حتى إنها لَتفقد اتصالها بالجسد، ومن خلال الاغتسال فيما بعدُ يعود الجسدي إلى ما هو جسدي، أي إلى الحياة الطبيعية. ويُعرّف الصرفي (وغيره من أتباع مدرسة ابن عربي ممن يتفقون معه في ذلك)، أن هذا النوع من الاتحاد

---

٢٣٥ Cote : ١٩٩٤ .s/v - ٤٠ - ٩ هو شيخ يعقوب الصرفي (١٥٢١ ـ ١٥٩٥) شاعر وفيلسوف صوفي من القرن السادس عشر عرف عالميا بسبب تلامذته ومنهم أحمد سير هندى، وكتب شعره بالفارسية ويعد من أعلام الأدب الكشميري.

الروحاني لا يدركه إلا المختارون، ولا يدركه عامة الناس. ولعل تصوره يذكر القارئ بالطقوس التانترية[236]، فربما قد وجدت بعض الأفكار الشيفانية[237] والتنترية المنتشرة في كشمير طريقها إلى أعماله. وعند أحد متصوفة فرغانة الكساني[238] المتوفى عام ١٥٤٣ نجد مثل هذه الأفكار عن "سر الزواج"، ألم تُخلق حواء حتى "يسكن إليها آدم" كما يقول القرآن في سورة الاعراف آية ١٨٩ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إليها فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ به فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾؟ فَلَقد كانت هي الهدية الإلهية كَي تواسيه فِي وحدته، فَهي التجلِّي لكل محيط إلهي، كان قد تركه من أجل عظمتها. فالإلهي كما يحسه ابن عربي يتجلى في المرأة في أبهى صوره.

---

٢٣٦. التانترية هي المصطلح الذي أطلقه عدد من الدارسين على نوع من التأمل الذي نشأ في الهند قرب القرن الخامس إبان العصر الذهبي للهندوسية تتعدد مذاهبها إلا أن عقيدتها ترتكز على ممارسات تأملية خصصت للمتوجين وليس للرهبان، تتجه نحو معانقة العالم وليس رفضه.

٢٣٧ من أحد اتجاهات الهندوس حيث يحتل شيفا الإله الرئيسي وهي تعتبر دين المعبود مختف وحاضر تقوم على الحب بين الخالق والبشر.

٢٣٨ هو أحمد الكساني (١٤٦١ ـ ١٥٤٣) صوفي فارسي من فرغانة صاحب ما يقرب من ثلاثين رسالة في التصوف وناشط سياسي وأحد مؤسسي أهم سلسلتين في النقشبندية، عمل في الفلاحة وفي طشقند التحق بالنقشبندية، وفي تلك الفترة كانت همزة صلة بين البدو والحرفيين في المدن، رعاه أدبيا ودينيا حاكم الأوزبك في كارمينا الذي وهبه ذهبا لبناء خانقاه في بخارى.

## الفصل الثامن

# عرائس الله

تعد المرأة في عالم ابن عربي الفكري هي مرادف لشوق الرجل في أعلى درجاته، وهي تجسيد لما هو إلهي بكل ما تحمله من عناصر موجبة وسالبة، أنثوية وذكورية. لكن ألم يؤد ذلك الموقف الصوفياني[٢٣٩] تجاه الأنثوي في أيدي وأرواح قلة من القادة الرجال إلى إخضاع المرأة، طالما أنه لم يدرِك أو لم يُدرَك بعدُ المكون الروحي؟

إلا أنه توجد طريقة أخرى لإعادة كرامة المرأة إليها، وهب تشكيلها لكي تكون "رجل الله" هو المثاليّ، أفلم تكن الروح هي الباحث والفاعل المتشوق، الذي يُشكل عبر التجوال الدائم لتجتاز طريقها إلى المحبوب الإلهي، رغم الألم والعذاب؟

---

٢٣٩ : نسبة إلى صوفيا السماوية وهو مبدأ في التصوف اليهودي المسيحي، يقول بأن الصوفيا واللوجوس تجليان بجانب العهد الجديد، حيث أن اللوجوس وسيط بين المخلوقات كالحروف المتحركة بين السواكن، بينما الصوفيا هي ابنة الله المسؤولة عن بذر حب المعرفة والعلم.

"يعتبر الاشتياق هو الجانب الأنثوي من الحب، أو الكوب المنتظر أن يُملأ" كما وصفه Lleewelly Vaughan Lee[240]، وينطوي هذا الوصف كما يبدو لي على موضوع رئيسي لمركب "المرأة والتصوف". ويبدو أنه من اللائق هنا الحديث فقط عن دور المرأة الفعلي في التصوف، وسرد أسماء المتصوفات الكبيرات اللاتي شهدهن العالم الإسلامي بامتداد القرون، أو الحديث عن تبجيل الأم والمرأة العجوز، وغيرها من الموضوعات التي تعاود الظهور من آن إلى آخر في الأدب. "ألم تكن المرأة هي القادرة على اختبار الحب، فكل طاعة خالصة تحترق بها دون أمل في الامتلاء؟" هكذا يتساءل في إحدى دراساته عن التصوف (في المحيط الهندوسي)Edward Dimock[241]، فمن التصورات العتيقة أن حواء قد خُلقت من ضلع آدم، وبذلك هي جزء منه، لذا تشتاق دوما إلى الكل غير المقتطع، وربما هو شوق الجزء إلى الكل الذي يكون أكبر من شوق الكل إلى الجزء المقتطع.

ولنا أن نربط بين ذلك التصور والتصور الغنوصي عن الانفصال بين المبدأ الرئيسي الذكري السماوي والجزء الأرضي الأنثوي، فالأرواح الأنثوية ستضل طريقها في ظلمة العالم، فهي الغاوية المولّدة للأفكار

---

٢٤٠ هو طبيب نفسي إنجليزي اعتنق الإسلام على يد الطريقة النقشبندية وله العديد من المؤلفات في التصوف، وأصبح فيما بعد شيخا للطريقة النقشبندية في أمريكا.

٢٤١ أحد أهم دارسي الآداب الهندية والبنجالية) في إحدى دراساته عن التصوف (وبالأخص الهندوسية) في البنغال.

الدنيئة، كما أوضحتها نصوص نجع حمادي[٢٤٢] الغنوصية، فهي تسعى بالفعل إلى سيدها الحقيقي لتعيش معه ما أضاعته يومًا، وتحيا سعادة الاتحاد معه. فليس عبثًا أن تتناول الغنوصية الكلام عن السر الإلهي لأغاني العرس، ففي القرون التالية تغنّى الرومي بخدر الحب حيث تتحد الروح مع محبوبها، فلا أحد يملك الدخول إلى ذلك الخدر إلا المخصي "المهموم" (د ١٤٠٥)، عندما تحيا الروح التزاوج مع الروح الإلهية (د١٩٥).

فكيف لتلك "الروح ـ الأنثى" أن تحيا في قيد الجسد؟ أن تتحمل العيش فيه إذا ما ناداها المحبوب؟

"الروح – الأنثى التي جلست حبيسة في قيد الجسد نزعت عنها حجابَها وانطلقت من أجل الحب" (د ١١٩٨).

ولقد أعاد الرومي في شعره الحياة إلى أسطورة Hieros gamos[٢٤٣]

---

٢٤٢ المقصود بها مكتبة مخطوطات نجع حمادي التي عثر عليها فلاح مصري في ١٩٤٥ بالقرب من نجع حمادي في صعيد مصر وتضم بين طياتها "الغنوصية" أي نصوص العرفان التي كانت منتشرة في مصر إبان القرن الأول حتى الرابع ميلاديا تقريبا، كتبت جميعها باللغة القبطية ويعد أشهرها "إنجيل توما" و"إنجيل يهوذا" اللذان اكتسبا شهرة عالمية بسبب روايتهم المختلفة عن العقائد المسيحية، من الجدير بالذكر أن الكنيسة المصرية قد خاضت حرب شعواء على الحركات الغنوصية، كتب للكنيسة الانتصار في النهاية وانحسرت الغنوصية بجميع تياراتها الفلسفية والروحانية، بيد أن تلك النصوص أخفاها أحدهم بعناية في بلاليص دفنها في الرمال، تضم ما يقرب من ٥٣ نصا فيما يقرب من ١٣ كودكس والكودكس هو أقرب لشكل الكتاب بمفهومنا المعاصر، صدرت منها العديد من الترجمات إلى الفرنسية والإنجليزية والألمانية إلا أنه للأسف لم يترجم شيئا منها حتى الآن إلى العربية.

٢٤٣ (وهو طقس جنسي يعني به زاوج الألهة بين الإله الذكر والإلهة الأنثى)

"أنت السماء، وأنا الأرض المتعجبة، ماذا تركت من جديد في القلب لينبت دومًا؟ ماذا تعرف الأرض عما بذرته في القلب؟ أنت تعلم أنها قد حملت منك! " (د ٣٠٤٨).

ويقول فيما بعد في موضع آخر بعد مرور سنوات كثيرة:

"السماء ذكر، والأرض أنثى، وكل ما يُلقيه فيها ينتج ثمارًا".

ففي المثنوي يتحدث الرومي (مثنوي الجزء الثالث، ٤٤٠١ ـ ٤٤٠٤)[٢٤٤] عن ذلك مشيرًا إلى أن كل أتباعه يبحثون مثل الحديد والمغناطيس، مثل الكهرمان والقشة، مثل السماء والأرض، ومثل هذه الاتحادات تنتج أشياء علوية. ويرمز عنده اتحاد الروح مع الله من خلال اتحاد الحب الإنساني، حيث تقف عند الرومي فكرة الروح الأنثوية كنقطة ارتكاز، على خلاف ابن عربي الذي لا يعتمد بشكل كبيرعلى دور المرأة في كونها الهدف الأسمى للحب. كما عبّر عن ذلك والد الرومي بهاء ولد الذي تأثر بفكره ومشاعره الصوفي الكبير قائلا:

"مثل العروس بين يدي عريسها أو العريس بين يدي عروسه، حيث يرى كل منهما ما هو مستتر من الآخر وعورته، ويستمتع كلٌّ

---

٢٤٤ وردت تحت مسمى "لقاء ذلك العاشق مع صدر جاهان" في الأبيات "وكل جزء من العالم طالب لزوجه، تماما كما يجذب الكهرمان قطع القش ـ وتقول السماء للأرض: مرحبًا، إنني معك " كما يكون "حجر المغناطيس وبرادة الحديد ـ فالسماء هي الرجل وهي المرأة في نظر العقل، وكل ما تلقيه السماء تربيه الأرض ـ وعندما لا تبقى فيها حرارة ترسلها إليها وعندما لا يبقى فيها رطوبة أو ماء تعطيها إياها" ويقصد به ترابط قلوب أهل الباطن مثل امتزاج نور المصابيح هكذا حب الله لعبده، هكذا قرن مفهوم الآية الكريمة يحبهم ويحبونه.

منهما بالآخر بجرأة ودون خوف، لذلك إذا رأى سترك وعورتك فألقِ بنفسك أمام الله دون خجل".

أفلا تشبه هذه السطور تلك التي سطرها ولده فيما بعد:

"أحب إليّ أن أكون معك عاريًا، وأتجرد من رداء الجسد، وأن يكون رحم رحمتك لي كإزار لروحي" ديوان ٥٥١.

ومثل هذه الصور انتشرت بقوة لدى الصوفية، فبعد خمسة قرون من الرومي كتب محمد ناصر عندليب[٢٤٥] (المتوفى عام ١٧٥٨) في دلهي في روايته الصوفية "نلاثى عندليب" أي "أنين العندليب" وتحكي أن عروسا

---

٢٤٥ هو محمد ناصر عندليب: (١٦٩٧ - ١٧٥٨) تنتمي عائلته من السادة أي من آل البيت في تركستان، كان على صلة قوية بالبلاط الملكي في عصر المغول، كان شيخه محمد ناصر بير سبحات المتوفى عام ١٧٢٨ مريدا في الطريقة النقشبندية، اكتسب شهرته من كونه شاعرا أكثر منه متصوفا، لعب دورا محوريا في تطور الأدب الأردي في دلهي الهند، ورث حب الموسيقى من شيخيه ناصر عندليب ومير دارد، رغم الموقف السلبي من الموسيقى في الطريقة النقشبندية. كان شيخه الصوفي الثاني هو محمد زبير، آخر تربة "القيوم" في عائلة أحمد سير هندي، المصلح النقشبنى الكبير في الهند والمدافع عن ظاهرة "وحدة الشهود". وترجع أصول مذهب "القيومية" إلى أحمد سير هندي وباكوراتها في فكر مير دار عن موقعه المميز في رتبة المؤمنين. عند وفاة شيخه بير زبير نظم ناصر عندليب عملا فارسيا ضخما يُدعى "نالى عندليب" أي " نحيب طائر المندليب" وهي مجموعة مدمجة من القصص الصوفي واللاهوتي والفلسفي والتشريعي، كما يضم الكتاب بعض الإشارات المهمة عن العادات الهندية، أسلوب حياة المغول، وأفراد فصول طويلة لرياضات اليوجا واليوجي والموسيقى، التي مارسها ناظم عندليب بنفسه، كما يتخلله بعض الآيات من كتب الهندوس، وبعض طرق الذكر من الطريقة النقشبندية، والتي عادة ما تفسر بقصص آسرة. يعتبر مير دارد هذا العمل أبلغ آيات الحكمة الصوفية، وكان له ولتلامذته الكتاب الثاني الأهم بعد القرآن، وحل محل الفتوحات المكية وفصوص الحكم لابن عربي أو أعمال عمر السهروردي، اعتد أن يقرأ على الأطفال والعائلات من النسخة الأصلية، التي فقدت للأسف أثناء ثورة ١٨٥٧، وهو الكتاب الذي استوحي منه فيما بعد " الطريق المحمدي".

قد انتهك جسدَها زوجُها في غمضة عين لتعاين بذلك الرب القوي وجلاله المهيب، في حين أن ما أدركته من قبلُ كان حنانه. إلا أنه يوضح لها أن عنفه الظاهر ليس إلا علامة على حبه المفارق، الذي يظهره في ذلك " الاتحاد العاري ".

ألا تذكرنا كلمات العندليب بتمثال النشوة للفنان برنيني للقديسة تريزا[٢٤٦] التي يخترقها السهم، وما يحمله من أعلى مباهج النشوة؟ (فمنصر السهم تقريبًا ملازم في كل مكان للحب، سواء كان عند كيوبيد[٢٤٧] أو الكاما[٢٤٨] الشهوة أو الرغبة الجنسية) في الهندوسية حيث

---

٢٤٦ هو تمثال "نشوة القديسة تريزا": نحت ما بين (١٦٥١ - ١٦٤٧) للنحات الإيطالي جان لورينزو برنيني، موضوعه أن الراهبة تريزا قد رأت ملاكا جميلا يقف بجانبها ومعه سهم ذهبي في طرفه لهب مشتعل، غرس السهم في قلبها ولما انتزعه شعرت كما لو أن احشاءها تنتزع منها، كان ألما رهيبا مصحوبا بلذة عظيمة وهي "النشوة" الإلهية، والتمثال يخلد تلك اللحظة الخاصة جدا في مشهد ملحمي من الرخام الأملس، ومثل برنيني النشوة من خلال خيوط الذهب المتساقطة على تعابير الوجه وارتعاش اليدين والقدمين. بعض مؤرخي الفن والأطباء الشرعيين رأوا في التمثال انعكاس لتجربة جنسية ما، وهو يجمع بين الإيروتيك، اللااشتياق والألم والنشوة في خليط فريد يسعى إلى تجربة ما وراء طبيعية. ويقع التمثال حتى الآن في كنيسة سانتا ماريا ديلا فيتوريا في روما.

٢٤٧ كيوبيد أو آمور: تجسد الحب في الأساطير الرومانية ويجسدها صبي عار يغلب عليه الطابع العبثي، الذي يعبث بالقوس والسهم فيصيب البشر بالحب. ومكافأة اليوناني هو "الإيروس" ويعادل كيوبيد ابن الإلهة فينوس ومارس. لعل أشهرالقصص الأسطورية عن كيوبيد هي قصة "أبوللو" في روايته "ميتامورفوسن" وتحكي عن علاقة كيوبيد (الحب) بال(النفس).

٢٤٨ وهي أحد أهداف الحب الأربعة في الهندوسية بعد "الارتا" وهي الأريحية والنجاح، "دارما" وتعني الحياة وفق القوانين الاجتماعية والكونية، وأخيرا "الموكشا: وهي الخلاص. هي كلمة سنكرستية : تعني "الملذات الدنيوية" وترتبط بال"شهو" "المتطلبات الجنسية" في الهندوسية،

تتوج التجربة الروحية والجسدية دومًا بما يعرف بـ "الألم المبهج".
وبالأخص في شبه القارة الهندية نشأت صوفية العروس، التي تتحد فيها الروح مع المحبوب الإلهي منذ بدء العقد أو العهد في سورة الأعراف آية ١٧٢ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾، وتنتظر الروح ذلك العرس الذي تتغنى به الأغاني الشعبية، وتصف كل تفاصيل الفرح، مثل بسط الفراش، والأطعمة الفاخرة، وماء الورد المسكوب.

وليس فقط اتحاد الروح مع الله هو ما يصور بالاتحاد الجسدي، لكن أيضًا الرابطة الداخلية بين المرشد والمريد، التي تُعرف في التصوف الفارسي بـ "العرس الروحي" "ازدواج روحانت".

أفلا يُعرف أيضًا أصدقاء الرب بـ "عرائس الله"، واللاتي لا يلمحهن أحد إلا من الأقارب المقربين جدا؟ كما يؤكد بذلك المتصوف الكبير من شمال إيران أبو اليزيد البسطامي[٢٤٩] (المتوفى عام ٨٧٤). وفي فكر ابن عربي تعتبر هذه العرائس نوعًا خاصًا جدا من القديسات، فهن "الأفراد" التي أخفاهن الله تحت حجاب التوبيخ، حتى لا نميزهم بأى وسيلة عن البشر العاديين، حتى وإن بدوا كأعداء ظاهريين.

وبالفعل تعد فكرة الروح ـ العروس التي يقتصر عشقها على الله فقط، وترى الموت "كعرس" أي عرس روحاني تتحد فيه الروح مرة

---

٢٤٩ سبق ذكره

أخرى مع الكل غير المقتطع، وتقاد فيه إلى المحبوب الأزلي. فيتغنى الرومي قائلاً: "لا تنتحبوا الفراق، آه من الفراق!، حين تحملوني إلى القبر، ينتظرني خلف الستار قدوم مباركٌ".

فكل ما انفصل عن الله، أي عن الوحدة الأزلية من خلال فعل الخلق، وأُلقي في الزمان والمكان يشتاق إلى الكلي، ففي الشعر الإسماعيلي الهندو باكستاني تصبح "فيراهيني" المرأة المشتاقة رمزا للخلق المنفصل عن الله.

ولفهم هذه الفكرة التي فحواها الشوق الأنثوي والقبول أو التلقي، بشكل أعمق، يجب علينا الاقتراب أكثر من الرمز، وكيف استخدمه الشعراء والمتصوفة لإيضاح العلاقة مع ذات المحبوب.

"حيثما ترَ المحبوب، اجلسْ أمامه كالمرآة" هكذا يقول الرومي. ولعبت المرآة دورا هامًا في تاريخ الأديان، ففي الدين الياباني هي رمز لإلهة الشمس أماتيراسو[٢٥٠] المرتبطة بعنصر إلهي أنثوي. وبذلك أصبحت أداة رمزية أنثوية تقليدية، وظيفتها الوحيدة هي استقبال صورة المحبوب دون أن تعكس شيئًا من خواصها. وفي مصر القديمة كانت المرآة جزئًا من المتاع الجنائزي في المقبرة حتى تُسجن وتحفظ من خلالها أشعة الشمس أثناء مرورها في رحلة العالم السفلي، وفي بعض الكنائس (مثل

٢٥٠ وتعني الإلهة المضيئة في السماء، تعتبر أهم الآلهة في دسانة الشنتو، وتجسد الشمس والنور وتعتبر مؤسسة إمبراطورية اليابان، ولدت من العين اليسرى للإله ابزاناجي على إحدى الجزر اليابانية وطهرتها من الأدران. وتشكل مع أخيها سوسانو نو ميكوتو حكم السماء.

الرحلة المقدسة في آخن[٢٥١]، إحدى المدن الألمانية) يعتني الفرد بالرفات المقدسة في مرآة صغيرة أو بمعنى أصح "يسجنها" ويصحبها معه. وهكذا قلب ابن آدم تضببه أفكار الدنيا وأفعالها، ويجليه الفكر الإلهي الدائم من الصدأ ومن الزنجار (وهو صدأ النحاس والبرونز) الذي تحدثه العلاقات الدنيوية (حيث أن مرآة العصور الوسطى كانت من المعدن)، لكي تجمع نور الله، فالشعراء وخصوصًا الرومي يسردون إحدى الحكايات التي يظهر بها ضيفٌ حل على النبي الوسيم يوسف صاحب تجلي الجمال الإلهي، ولم يقدر على أن يجلب له من الهدايا إلا المرآة حتى يتعجب هو نفسه من جماله الخاص، وهكذا دور القلوب المتشوقة المستعدة للاستقبال.

ولعل فكرة انعكاس أشعة النور الإلهي خلال العالم الذي تنبعث منه بدوره انعكاسات إلى الأعالي، تنتمي إلى تيار الفكر الأفلاطوني الحديث[٢٥٢] والتي تتضح به تلك الفكرة، لذلك قارن الصوفية وخصوصا

---

٢٥١ وهي رحلة حج تقام كل سبع سنوات إلى الأربعة أضرحة الشهيرة وهم "رداء مريم"، "قماط يسوع"، "قماش يسوع الذث ستر عورته وقت الصلب"، "وقماش يوحنا المعمدان الذي ارتداه ساعة قطع رأسه" في آخر عصر ملوك الهوشتافون، تمتعت تلك الرحلة بقيمة كبيرة إبان العصور الوسطى في محيط الثقافة الألمانية، وترجع جذورها إلى عصر "كار الكبير"، وانحسرت قيمتها تدريجيًا في القرن السابع عشر على إثر الفكر الإصلاحي أو التنويري إلى أن حرمت فيما بعد. إلا إنها لا زالت تجذب العديد من الحجاج حتى اليوم ففي عام ٢٠١٤ زارها ما يقرب من ١٢٥ ألف حاج.

٢٥٢ نشأت في القرن الثالث قبل الميلاد من "الأفلاطونية الوسيطة"، أسسها أفلوطين المتوفى عام ٢٧٠ في روما ومهدت سياسيا للإمبراطورية الرومانية، وهي آخر مراحل تطور الفكر الأفلاطوني وأحد أهم التيارات في الفكر اليوناني، شكلت صراعا مريرا مع المسيحية بعد أن أصبحت الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية، حاول الأفلاطونيون المحدثون إيجاد

اللاحقين على ابن عربي هذا العالم المخلوق بالمرآة، فالعدم النسبي والعنصر الأنثوي يصبحان المرآة التي تعكس بصر الخلق من خلال اسم الله المنبثق (الإله المخفي وهو مبدأ مسيحي يقول بعدم معرفة الإله) Deus absconditus، فقط من خلال إشراق هذه الأسماء يحصل العدم النسبي على وجود محدد يختفي بدوره إذا انتزع منه نور هذه الأسماء، بمعنى محاولة المرآة أن تعكس وجودها الخاص دون إشراق إلهي، فهي الجزء المتوجه للإلهي من الخلق فيدرك المرء من خلالها نزرا يسيرا من "جلال الخالق"، ويُدرك من خلال المرآة، على الأقل عند البعض ممن لهم "عيون لترى".

وقد عالج متصوفة العصور الوسطى تلك الصورة فغالبا ما نجد على خلفية المرايات الفضة القديمة زخارف غنية (غالبا بعناصر فلكية أو موضوعات دنيوية) وبذلك يمكن للمرء مقارنة المهتم بالعالم الأحمق، أي من يسعد بزخارف الخلفية، دون أن يدرك المعنى الحقيقي منها، وهو إدراك انعكاس الجمال الإلهي أو فقط العلم به. ويتناول مولانا الرومي إحدى أساطير الخلق الشهيرة الغير قرآنية التي شكلت نقطة محورية بدورها في منظومة فكر ابن عربي، والتي يكلم الله فيها داوود قائلاً: "كنت كنزاً مخفياً، وأردت أن أُعرف، فخلقتُ العالم"!

---

تفسيرات جديدة لأفكار أفلاطون تسعى إلى التفسير الميتافيزيقي لتعاليمه. وتجحت في أن تبني نسقا معقدا من القيم الروحية والحسية وفيما بينها انبثقت تيارات مختلفة. من أهم القضايا التي تناولتها الأنطولوجيا، والكون، الإله الواحد، النوس(العقل)، روح العالم، الزمان. المادة وجدلية العالم. المنطق، الأخلاق، الخلاص، والفلسفة السياسية.

ويتغنى الرومي في إحدى رباعياته: "لقد صنعت مرآة جلية من أجلك: وجهها: هو القلب، وظهرها هو الدنيا، أفلا تعرف الوجه يا صديقي أم أن الظهر يعجبك أكثر؟".

لذلك يكون قلب العاشق المثالي مضيئًا كالمرآة المجلوة، يقبع المحبوب بداخله، الذي يكون أقرب إليه من نفسه.

ويقول مير دارد[٢٥٣] في رباعياته الفارسية: "بطول العمر سمعت به من الأقاصي، وفي الحلم ضممته إلى صدري، والآن أمثل بين يديه كالمرآة، فكان هو من رأى نفسه، ولست أنا من رآه"

أفلا يعد قلب العاشق كالماء النقي، ذلك العنصر الأنثوي المرتبط بالمرآة؟ فليس عبثا ما عبر عنه متصوفة الأديان جميعًا بمساواتهم القمر الذي ينعكس في كل ماء سواء أكان محيطا أم بركة، فضياءه يتجلى في أي روح، حتى وإن كانت ضعيفة ومشوهة، فيتغنى الرومي قائلا: "قلبي كالماء غير شائب وصاف وما حامل مرآة القمر إلا ماء في الأساس".

وقدم أحمد الغزالي في "سوانح" التي تعد بمثابة "شروحات قصيرة عن الحب" شرحا عن سر الانعكاس، وفي ثنايا شعره الصوفي هذا تُعتبر المرآة وكل أداة موسيقية مؤنثة هي تصوير محبب لاتحاد العاشق مع المعشوق، وهو ما يقصد به أن اللاشعور عند ذات المحبوب يَعمل الإحساس لديه في كثير من الحالات بشكل لا واعٍ كامل مثل الأنثى، أي روح عروس عاشقة أنثوية مستقبِلة.

---

٢٥٣ سبق ذكره

إن المرآة ليست هي الرمز الوحيد المعبرعن استعداد الاستقبال للأرواح ـ السيدات، فغيرها من الصور تأتي في نفس الإطار مثل الآلات الموسيقية، وخصوصا التي تصحب شعر الرومي الغنائي. فليس عبثا أن يبدأ المثنوي "بأغنية الناي"، فالناي قد عُرف عند عقيدة الفريجين[٢٥٤] في طقس الألوهية[٢٥٥]، فهي من أجمل الرموز التي عبر بها Epiklese عن الروح التي انفصلت عن علتها الأولى، و تتغنى دومًا بالشوق إلى وطنها الأصلي:

"أبحث عن قلب قد مزقته أغاني الفراق، لكي أبثه آلام شوقي"

وعرف الرومي أنه المعادل الموضوعي للناي الذي لا يتغنى إلا إذا مسه نفخ المحبوب، فقط كل تركي وتركية "ينفخ به" فيتحدث ويتغنى عن آلامه وشوقه إلى الوطن. وغيرها من الآلات الموسيقية التي لا تنطق فصاحة إلا إذا مستها يد المحبوب، وإن كانت رمزيتهم غير واضحة تماما كما هي عند الناي والقصب البري المقتطع منه. إلا أن الرمز ينطبق على صورة الهارب والعود والرباب، كأرواح مشتاقة. فهل يقوون على العزف إذا لم تمسهم أصابع المحبوب، أو تمسدهم أو تضربهم؟ يتوسل الرومي المحبوب ألا تُعامل الطبول الصغيرة بعنف وألا يسيء استخدامها بقبضات يديه. ويمكننا القول بأن عالم الصور بأكمله حيث "الإنسان كأداة موسيقية" (والذي تم شرحه تفصيلا في كثير من الأحيان حتى تم مطابقة الأعصاب والعروق بالأوتار) يندرج تحت الفضاء الأنثوي.

---

٢٥٤ وهم شعب هندو أوروبي أسس إمبراطورية كبيرة في القرن الثامن في الأناضول.

٢٥٥ وهو طقس يعني استدعاء إله أو عدد من الآلهة، وكان جزءا أساسيًا في الصلوات.

ويمكننا استدعاء صورة محببة أخرى لدى الصوفية، مكونة من اللهيب والفراشة وهو تشبيه معروف لنا من جوته في "الشوق - الروحي"، إلا أنه تشبيه يعود في الأصل إلى أحد فصول كتاب الطواسين لشهيد المتصوفة الحلاج (المقتول عام ٩٢٢).

ألم تكن الفراشة في الزمن القديم رمزا للروح، والنفس التي تنطلق محلقة أثناء الموت؟ ففي مقاربة الحلاج نجده يقترب برمز الفراشة أكثر إلى قلب اللهب، وهو الجمال الإلهي حتى يحترق تمامًا بناره فيفنى فيه.

بالفعل كل هذه الصور والرموز التي وصلتنا هي من التصورات القديمة الأولى الأسطورية، إلا أن قراءتها بتمعن تساعدنا في فهم المعاني العميقة للمتصوفة بشكل أفضل. فالمتصوف العاشق سواء أكان يدرك ذلك عقلانيا أم لا هو كيان "أنثوي" وإن لم يُعرف ذلك عند أحد أفضل من الرومي وهو ما يبدو غريبًا لدى القراء ومن المؤكد أن الكثيرين يرونه كأمر سخيف.

بالطبع استخدم الرومي في الأبيات الشعرية اللاهوتية والنظرية مصطلحات ابن عربي التي نالت في عصره أهمية متنامية، إلا أنه في حياته الخاصة كان يمتلك سر "الاستقبال" والإلهام كما لم يختبره أحد مثله، Hieros gamos، فالعرس الإلهي يحدث بين المحبوب السماء ونفسه كأرض منتظرة الخصوبة.

ووردت قصة المرآة المجلوة كهدية ليوسف ثلاث مرات في أعماله. ولقد عبر الرومي بعنصر يوسف وزليخة بشكل رئيسي ليصف نفسه

وحبه. ففي مستهل المثنوي يسأله أحد مريديه وهو حسام الدين عن "من وجد رائحة القميص" (وهو ما سمعه من محبوب الرومي الأول شمس الدين) وحذر الرومي المريد المحبوب ألا يسأل كثيرًا عن هذا "اليوسف" أو المحبوب الأول ويعزى ذلك إلى "عسى ألا يجد أحد صاحبَ السر، فاستمع إلى فحوى القصص، فقد قالوا في الأساطير في الأيام الخالية، اترك صاحب السر فهو خير من يعبر عنه"

وبالفعل في أكثر ما يربو عن ٢٥ ألف بيت من الشعر التعليمي لا يظهر اسم شمس الدين بها. إلا أنه قبل نهاية المثنوي بقليل وقبل وفاة مولانا، يتناول الشاعر مرة أخرى قصة يوسف وزليخة، بالرغم من أن باكورات شعره وكذلك المثنوي تحتوي على عدد لا نهائي من الإشارات إلى صاحبنا هذا، الذي ضاهى حسنه حسن يوسف بمراحل كبيرة. إلا أنه عند اقتراب نهاية آخر كتاب من أعمال الرومي الكبيرة يتجه الرومي إلى زليخة ، ويصف كينونتها بأبيات لا مثيل لها، فكل ما تقوله، يشير إلى يوسف:

"يا زليخة انظري اسم يوسف، فكل الأشياء من الماس حتى الصبار تنطق باسمه

ففي اسمه تختفي كل الأسماء، الذي لا يُعلن عنه إلا للخواص

فلما قالت: "إن الشمع قد أبلاه النار"، كانت تقصد: "أن الصاحب كان ودودا لي"

ولما قالت: "انظروا! كيف يهلّ القمر"

ولما قالت: "ستخضر غصون الصفصاف"

ولما قالت: "كيف ترتعد أوراق الشجر!"

ولما قالت: "ما أحلى الاحتراق بالندم!"

ولما قالت: "البلبل تكلم بالورود!"

ولما قالت: "الأمير أفشى السر"

ولما قالت: "ما أجمل ضياء السعادة!"

ولما قالت: "انفض لي سجادتي!"

ولما قالت: "لقد جلب الساقي الماء"

ولما قالت: "انظروا! فالشمس تشرق!"

ولما قالت: "لقد طبخوا أمس طعامًا"

ولما قالت: "لقد نفد الخضار!"

ولما قالت: "ينقص الخبز الملح!"

ولما قالت: "السماء تسير معوجّة!"

ولما قالت: "أصاب رأسي الآن الصداع!"

ولما قالت: "لقد ذهب عني الصداع!"

ولما مدحت، يعني "احتضانها"، ولما وبخت يعني "انفصالها"

ولما تكومت مئات الآلاف من الأسماء، فإنها تقصد يوسف، فقط يوسف.

لقد كانت جوعى ولفظت أسماءه وشبعت، بعد أن ثملت من كأسه.

لقد كان لي معطف فرو في البرد، وهذا ما يفعله اسم الصاحب في الحب!"

وهذا هو تفكيك الأبيات التي كُتبت من قبل بسبعة عشر عامًا:

"فورد في مأثورات وأساطير الأولين أن خير من يعبرعن السرهو صاحبه".

فكل ما قاله وسرده في آلاف الأبيات المنصرمة، ما هو إلا إعادة كتابة عن حبه للمحبوب الحق الأول، إلى شمس الذي تجلت من خلاله عظمة الله (وهو ما يشبه حسام الدين على المستوى الدنيوي "لضياء الشمس" إلا أنه يبقى انبعاثا من "الشمس"). فلقد اطّلع الرومي على سر زليخة، العاشقة المحترقة لروح الأنثى، وهو اسم المحبوب الأول، الذي عزاه وكان زاده كما كان اسم يوسف من زليخة يدفئها ويقويها، وهو السر المشار إليه عند العطار بسر إعادة الشباب لزليخة، وهو ما سبق الإشارة إليه في ختام فصل "النساء في القرآن والسنة"، وهو ما تبثه أبيات الرومي مرة أخرى:

"أسفي عليه جعلني كهلة، سنوات خلت من الفرح وسكنتها الحسرة إلا أنك عندما تذكر اسم شمس الدين، يعود إلي شبابي".

الفصل التاسع

# تيمة الأرواح السيدات في شعر الهند وباكستان

يا الله! كيفما كان اسمك كبيراً فإن ثقتي في رحمتك كبيرة!

يا خالق! أما من نهاية أو حد لصبرك الأبدي!

فاسمك يا الله قد أسكنته قلبي.

يا الله! كم هو حلو اسمك وكم كبير هو أملي، فما من باب مساوٍ لبابك، فكم من أبواب مفتوحة رأيتها.

فلا تحل ياحبيبي عهدك مع هذا المسكين!

فما من نجاة سواك ترحم المساكين!

فما لي إلا التشبث باسمك الحلو في كل حين!

هكذا تتغنى إحدى بطلات أعمال شاه عبد اللطيف السندي في (ريسالو)، ويتناول على لسانها إلى حد ما كلام زليخة، حيث تمتلىء باسم المحبوب كليًا ونهائيًا. ولما أضحت زليخة في الآداب التركية والفارسية بوعي أو بدون وعي نموذجًا لكل أرواح السيدات المتشوقات، أصبحت كذلك موضوعا رئيسيا في شعر المتصوفة بشبه القارة الهندية.

ولنا أن نرى أن التصورات الهندوسية عن الإله كرشنا[٢٥٦] وألاعيبه مع (جوبي) وهن رعاة إناث البقر من السيدات، قد لعبت دوراً في تبلور هذه الفكرة، فرعاة البقر الإناث يختلسن النظر إلى الإله الرائع المختبيء منهنّ المتجلي لهنّ في أحد الأشكال التي يتوقون لها.[٢٥٧] وتعد (الرادها) تلك الروح المختارة التي تتمتع أخيرًا بعد فترات من الشوق والوحدة بالاتحاد المنشود مع المحبوب، وهنا يأتي دور تيمة الروح العروس (فيراهيني) التي تنتمي إلى الأدب الشعبي الهندي Virahini Barahmasa.

أما عن القصائد المصورة غالبًا فتصف مشاعر العذراء أو العروس، التي تبحث مشتاقة عن حبيبها أو زوجها.

هذا العالم المصور أدى إلى تطور مذهل في الشعر الصوفي في شبه القارة الهندية لما له من قدرة عالية على الربط بين الدور التقليدي للمرأة ورمزية النفس. وبالرغم من استقرار المغنيين الصوفيين في وادي السند والبنجاب منذ القرن الرابع عشر في جنوب القارة الهندية في دكان إلا أن تيمة الأرواح السيدات اتخذت أشكالا متعددة. ففي دكان وخصوصا منطقة بيجابور[٢٥٨] عاصمة أسرة عديل شاه[٢٥٩] منذ القرن الرابع عشر

---

٢٥٦ تعني لغويا "الأسود" وهو شكل هندوسي يجسد الألوهية العليا ويمثل عادة بثمانية تجليات.

٢٥٧ (فمن إحدى أساطير الطفولة للإله كرشنا، أنها قد سرقت ملابس رعاة البقر من السيدات (الجوبي) أثناء استحمامهن في النهر، وعلقتها على إحدى الأشجار ولكي يستعدن ملابسهن تظهر عورات كل منهن أمام الإله)

٢٥٨ (إحدى المدن الهندية في ولاية كارنتاكا)

٢٥٩ (وهي أسرة حكمت بيجابور وغرب دكان من ١٤٩٠ حتى ١٦٨٦، وسميت نسبة لمؤسسها يوسف عديل شاه).

حيث استقر المرشدون الأوائل لأهم الطرق الصوفية الهندية وهما الشيشتية والقادرية.

ومنذ القرن الخامس العشر عُرف في الأدب الله باسم "السيد" "الأب" وكذلك المحب والمحبوب، وفى أحد أعمال Mirandschi[٢٦٠] المعروف بـ "شمس العشاق"، وكتبها بأردية دكان المحلية واتخذ من الروح ـ المرأة موضوعا لها، حيث يحكي أبطالها وهم خوش وخوش نجز عن قصة فتاة ورعة تخلت عن العالم وكرست نفسها للحياة الروحية، وكان جارها برهان الدين جاه نام[٢٦١] (المتوفى عام ١٥٧٩) قد صور في عمله "سوق سهيلة" موضوع الأرواح العرائس لأول مرة بالتفصيل في ملحمته الشعرية. وغير مؤكد إذا ما كانت قد نسبت أبيات مماثلة لها نفس المعنى لولي دكان الكبير المتوفى عام ١٤٢٢ جزودراز من جولبارجا.[٢٦٢]

---

٢٦٠ هو ميراجي المعروف بشمس العشاق أحد صوفية بيجابور المتوفى عام ١٤٩٦.

٢٦١ كاتب صوفي من بيجابور توفي عام ١٥٧٩.

٢٦٢ هو خواجه بنده نواز كيسودارز: (١٣٢١ ـ ١٤٢٢) من كبار متصوفة الهند من الطريقة الشيشتية، ممن دعى إلى التفاهم والتسامح والانسجام بين الجماعات الدينية. كان مريدا عند شيخ حظرت نصير الدين شيراج دهلوي، بعد مماته ارتدى الخرقة ليصبح خليفة له وهو من حمل الطريقة الشيشتية إلى جنوب الهند، واستقر هناك في "جولبرجا" بناء على دعوة السلطان تاج الدين فيروز شاه. ينتمي لسبط سيدنا علي كرم الله وجهه. له الفضل في نشر الإسلام في أفغانستان وبلوشستان (أي المنطقة الحدودية بين أفغانستان وباكستان اليوم) عاش ما يقرب من أربعين عاما في دلهي وتوجه إلى جولبرجا عن عمر يناهز ٧٦ عاما بعد أن وجه له الدعوة ملك دكان. في تلك الفترة قضى حياته في الجدل الديني والمواعظ وتدريب الناس روحيًا. ترك ما يقرب من ١٩٥ عملا بالأردية والعربية والفارسية إلا أن أشهر أعماله "تفسير ملتقات" وكتاب "معراج العاشقين" الذي يتناول فيه سيرة رسول الإسلام، كان أول صوفي يستخدم اللغة العامية في تعاليمه وهو تقليد اتبعه فيه كثير من متصوفي الهند فيما بعد. كما ترك تعليقات ورسائل على أعمال ابن عربي والسهروردي مما يسر على دارسي الهند الوصول إلى أعمال كبار المتصوفة أمثالهم.

وبجانب العديد من الأعمال الأدبية العالية القيمة والشافية تطور نوع آخر من الشعر التقليدي بهدف إيصال تعاليم التصوف إلى العامة، وهو ما يُعرف بالحب الصوفي، ومثل تلك الأبيات كانت تتغنى بها سيدات القرى التي يتم مقاربتهن بالأرواح المجدة الباحثة عن إطفاء نار عشقها.

ونسوق مثالين على أنواع هذا الشعر وهم: تشاكي ناما وتشاركي ناما.

والتشاكي هو حجر الرحى الذي تستخدمه السيدات في عمل الدقيق لوجبة الغذاء اليومية، والتي تتطلب فرد "التشاباتيس"[٢٦٣]، وهنا يمكن مقاربة عصا الرحى العمودية بحرف الألف، أول حروف اللغة العربية عمودي الشكل. إلا أن الألف تشير إلى رقم واحد أيضًا رمز الإله الواحد الأحد. ومسك المرأة لذلك الحجر العمودي أثناء الطحن ما هو إلا ذكر إلهي دائم. والمحور الذي يدور حوله الحجر ما هو إلا رمز للنبي محمد الذي حمل الرسالة وبلغها.

وتختلف وتتنوع هذه المقاربات أو الصور طبقًا لموهبة كل شاعر، ولا تقتصر هنا الصور الشعرية على تفاسير عملية الطحن فقط ولكن تتعداها إلى عملية الخبيز أيضًا. فالمرأة يجب أن تكون كما لو كانت تحضر ال"بوري"[٢٦٤] أو شوال العجين المملوء بالدقيق الطازج:

---

٢٦٣ هو خبز باكستاني يشبه العيش البلدي المصري في الشكل.

٢٦٤ هو خبز معروف في شبه القارة الهندية يؤكل عادة في الفطار ويستخدم في الطقوس الهندوسية مع الأكل النباتي.

فما قبضة حجر الرحى التي تشبه الألف إلا الله
والمحور التي تتشبث به إلا محمدا
هكذا يراها الباحث عن الله
فبسم الله، هو ، هو، الله!
نضع القمح على حجر الرحى،
وهذا ما تشهده أيادينا
ولا تتحرك المطحنة في وجهتها الصحيحة
إلا إذا اتبعت الشريعة
باسم الله . .
فاسم الله وُلد من الألف
و يقودنا مرشدو الروح إلى الطريق المستقيم
فيا هذا اطحن القمح وانخله
باسم الله . .
اطحن الدقيق واصنع بوريا محشوا ! املئه بفاكهة السماء والسكر
واملء الجسد بخواص الله السبع
كما تملأ المكونات السبع البوري، يا أخوات!
باسم الله . . .

ومثلما سبقت هذه الصور البسيطة من حياة السيدات، نرى أيضًا صورة أخرى وهي الغزل. يعتبر فعل الغزل متخللا بالنميمة أو الغناء رياضةً روحانية في كل الثقافات. وإن ظهرت أغاني الغزل في جنوب الهند إلا أنها احتلت أهمية أكبر في السند والبنجاب، حيث يزرع القطن

من قديم الزمن في تلك المناطق. لذلك يرتبط الغزل وحلج القطن في اللاشعور عند المتصوفة بالحلاج المتصوف الكبير صاحب الحب اللانهائي (وذو النشاط السياسي) الذي كلفه حياته عام ٩٢٢ . والحلاج اسمه يشير إلى مهنته وهي حلج القطن، وأحيانا ما يتحدث المتصوفة عن خيط الحلاج، وإن كانت لا تظهر كثيرًا في أغاني الغزل. إلا أن بوله شاه [٢٦٥] أشار إليها في أن القطن المحصود حديثًا أبيضَ اللون ولا يتأتى له أن يتشكل ويتغير لونه إلا من خلال الغزل والصبغ والنسيج، هكذا الله "أحادي اللون" وتخضع له كل الألوان.

وهناك متصوفة آخرون مثل المتصوف السندي النقشبندي محمد زمان لوناري [٢٦٦] ممن رأوا العالم كالخيط الذي انبثق من القطن وهو "الله".

٢٦٥ هو سيد عبد الله شاه قادري الشهير ببوله شاه: (١٦٨٠ - ١٧٥٧) صوفي بنجابي وشاعر إنساني وفيلسوف، عاصر نفس فترة الشاعر السندي شاه عبد اللطيف السابق ذكره، ارتبطت حياته الشعرية بشاعر آخر هو وراث شاه. سار على نهج سابقيه في نظم الشعر الصوفي البنجابي. استخدم في شعره "الكافي" وهو أسلوب شعري في كل من إقليم البنجاب والسند والسرايكي. لم يوجه نقدا مباشرا للممارسات الدينية الأرثوذوكسية عن طريق الاستعارة، وكثيرًا ما يعكس شعره الإحباط والسخط من عقلية رجال الدين المتصلبة. كان يميل إلى الأنسنة في فكره للحصول على إجابات للتحديات الاجتماعية في عصره، خصوصًا أثناء الاضطرابات السياسية التي عاشها إقليم البنجاب. وتعكس أشعاره الرحلة الدينية الصوفية من خلال أربع مراحل الشريعة (الطريق)، الطريقة (المراقبة)، الحقيقة، والمعرفة (الاتحاد). تغنى بأشعاره بسطاء المغنين وكبارهم مثل نصرت فتح علي خان.

٢٦٦ هو خوجة محمد زمان لواري وارو: (١٧١٣ - ١٧٧٥) كان من كبار متصوفة السند وشاعرا صوفيا، ابن الشيخ عبد اللطيف الصديقي من نسل الخليفة أبي بكر الصديق، انتقل أجداده إلى السند إبان الخلافة العباسية. كان كأبيه مريدا في الطريقة النقشبندية حيث درس القرآن

إلا أن الأهم هو ذلك الربط بين الغزل والذكر، الذي حث عليه القرآن المؤمنين "اذكروا الله كثيرا" سورة الأحزاب آية ٤١ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ وغيرها من المواضع في القرآن. فالتمتمة الخافتة باسم الله أو هذا الشكل التعبدي يشبه طرقات الغزل المنتظمة، ومثلما يترقق الخيط من خلال الغزل المستمر يتطهر أيضًا قلب الإنسان بذكر الله الدائم إلى أن "يشتريه الله بثمن جيد" وهو إشارة إلى سورة التوبة آية ١١٢ ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهو ما يترتب عليه شراء الله لتلك الروح المتطهرة. والفتاة التي تنشغل بغير الغزل من المغريات الظاهرية تصبح خالية المهر يوم العرس، والمقصود به يوم الموت وتقف عارية خجلى أمام الله ومن ثم مهملة (وتحدث الشاعر البنجابي "مادو اللال حسين"[٢٦٧] عن "ألوان"

---

والتصوف، درس على يد الشيخ أبو المساكين في تاهتا الذي كان بدوره مريدًا لأولياء سيرهاندي وهو من أنعم عليه بلقب "سلطان الأولياء" وعينه خليفة له وذهب إلى الحج. ثم عاد إلى قريته لواري حيث ذاع صيته وزاره الشيخ شاه عبد اللطيف السابق ذكره وأراد أن يكون مريدا لديه فنصحه محمد زمان بالابتعاد عن الموسيقى والآلات الموسيقية إلا أنه أخبره " لقد أمضيت عمري عازفا تلك الآلات والموسيقى الصوفية ولا أستطيع الابتعاد عنهم في آخر حياتي" إلا أنه بعد هذا اللقاء مدحه في أبيات شهيرة. نظم المئات من القصائد إلا أنه لم يصل إلينا إلا ٨٥ قصيدة مكتوبة تعرف ب"أبيات سندي" قام أحد تلامذته فيما بعد بالتعليق عليها سماه" شرح أبيات سندي" تمكس في مجملها حكم صوفية عميقة ووحدة الشهود ووحدة الوجود.

٢٦٧ هو شاه حسين: (١٥٣٨ ـ ١٥٩٩) شاعر صوفي بنجابي كان نساجا وينتمي لدوهوب من قبائل الراجبوت إلا أنه ولد في لاهور باكستان حاليا، يعتبر عميد شعر "الكافي" المعروف في الشعر البنجابي. اشتهر بولعه لصبي من طبقة البراهمة الهندوس يُدعى "مادو" أو "مادولال" لذلك نسب إليه في اسمه، حتى إن قبر ذلك الصبي الهندي يقع بالقرب من قبر

المهور – أي الأقمشة، ومن لم تقم به، تظل دون زواج) وهنا تتجلى أيضًا فكرة "غزل الأعمال" المعروفة في تاريخ الأديان، فكل إنسان يغزل من فكره الكلمات والأعمال لتكون رداءً لروحه. وتوضح إحدى أغاني الغزل من بيشابور تلك الصور

" تخيلي أختاه أن جسدك هو دولاب الغزل!
وعلينا أن نفيق من غفلتنا
وأن نتخلى عن متاع الدنيا يا أختاه!
فالنفس ما هي إلا خيط لم يُغزل بعدُ لرسالة الله
وما الألسن إلا مجداف لدولاب الغزل
فأحضري يا أختاه خيط الغزل واعرضيه!
هكذا يعلمنا الشاعر كل الصور عن الغزل
فإذا أخذت القطن فعليك بذكر الجلي (وهو ما يعنى ذكر الله بصوت عال)
وإذا فتلتَ القطن فعليكَ بذكر القلب (وهو ترديد اسم الله في القلب)
واذا نظمت الخيط فعليك بذكر العين (وهو أن تغرق ذاتك كليا في ذكر الله)
وعليك بعد خيوط النفس واحدا تلو الآخر يا أختاه!

---

شاه حسين. يحتفل ويحج إلى قبره سنويًا في عيد يعرف باسم "ميلا شبراجان" أي "عيد الأنوار". نظم كل شعره في أبيات قصيرة وهو نظام "الكافي" كل قصيدة ما بين أربعة إلى عشرة أبيات قد كتبت لكي تغنى في الشعر الشعبي في إقليم البنجاب، وكثيرا من شعره يغنى بالقوالي التقليدي غنى من شعره نصرت فتح الله علي خان وغيرهم من كبار مطربي شبه القارة الهندية.

(فاسم الله يجب أن يملأ كل نفس، وتشعبت فيما بعد تمارين الذكر مع الشهيق والزفير)

قلما عُرفت أغاني الغزل في السند والبنجاب، إلا أن القصيدة المستفيضة "سور كابيتي للشيخ عبد اللطيف شاه"، التي تحتاج إلى تحليل مطول هي وغيرها من أغاني الغزل البنجابية الصوفية تزخر بصور عن الوجد. مثل "دعن اللعب واغزلن على دولاب الغزل يا صبايا!

أسرعن وانتهين من لباس العرس يا صبايا!
وازأرن في عامود الدرج الدائر "يا رب يا سيد"!
مرتجفات خشيةً من الله يا صبايا!
وما ضرب المغزل إلا كما التنهيدة
فأمامكن من الكد الكثير يا صبايا!

وفي كل من الغزل وطحن القمح تظهر المرأة في الأغاني الشعبية كالأمة أو الخادمة

"إنك أمَة في بيت درويشك، فاذكر اسم الله ونبيه مع كل نفس"

وعن صورة المرأة كخادمة تتفق تماما مع الوضع الاجتماعي في كثير من الحالات إلا أنها توافق أكثر المغزى اللاهوتي، فدومًا ما يُشار في القرآن للإنسان بـ "عبد" أو ما يقابلها في المؤنث "أمة". و"العبودية" ما هي إلا الكينونة الحقيقية للحرية، كما يقول الشاعر الفارسي القشيري[٢٦٨]

---

٢٦٨ هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري: (٩٨٦ ـ ١٠٧٢) هو لاهوتي أشعري وصوفي كبير صاحب الرسالة القشيرية ومفسر للقرآن. كان السلمي أحد مشايخه الذين

المتوفى عام (١٠٧٤) وطالما أن العبودية هي الكينونة الحقيقية للإنسان فهي أعلى مرتبة يأملها هو أن يكون "عبده" . فالنبي قد عُرف أثناء أعلى تجربتين له بذلك اللقب، الأولى أثناء معراجه للسماء ليلا (سورة الإسراء آية ١) ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ والتي قاده الله إلى حضرته مباشرة، والثانية في سورة "سورة النجم" والتي تشير إلى الرؤيا الكبيرة. وبهذا يمكن أن يطلق هذا اللقب الأشرف "أمة" على الروح العاشقة:

" حالا سيزيح ليَ المزلاج
ويفتح لي الباب
أحيانا ما آتي خالية الوفاض
ومن ثم يناديني إلى مكان عليّ
وسرعان ما ألبي نداءه
وسرعان ما يتمتم بكلمات سرية
انظروا أي ذات له يا ندامى!
أنت يا ابن الأقطاعي يا محبوب،
أنا في زي الخادم، أخدمك دون قيد أو شرط
وأقف بين يديك عاقدا ذراعي على صدري متأهبًا!

---

تتلمذ على أيديهم. أسس في بغداد مدرسة تحمل اسمه، ومن أعماله " التفسير الكبير للطائف الإشارات بتفسير القرآن"، "ناسخ الحديث ومنسوخه"، "شكاية أهل السنة"، "الحقائق والرقائق" وغيرها من الأعمال التي فقدت للأسف.

فهل تركتُ بابك يا نديمي في أيٍ من الأوقات؟
فلا تحول عينك المحبة عني أبداً يا حبيب!

هكذا يتغنى شاه عبد اللطيف بذات الله، وما لا تقوى الروح على فعله وهو الانتظار ساكنة، حتى يتجلى لها. وفي كل المقطوعات الغنائية في منطقة البنجاب في باكستان يظهر المحبوب "كسيد" فهو "بالوتش" أو "راجبوت" أو ببساطة "ملك"، في حين أن المحبوبة دومًا ما تنتمي إلى طبقة دنيا كالغسالات، وصانعات الآنية الفخارية، أو أحد أقارب الصيادين في وادي السند.

أما المحبوب فممتليء جمالا ووقارا لا يوصفان وتتغنى المرأة العاشقة "لو أتيتَ ذات مرة يا ذاكري، يا حبيبي، لأرخيت رموشي لقدميك، ولأسدلتُ شعري على الطريق لك".

وبذلك نرى صورة الروح العاشقة تتخلل كل الأشعار الشعبية الصوفية. ويظهر أيضًا عند "جنان" الإنشاد الديني للطائفة الإسماعيلية (طائفة أجاخان) في غرب شبه القارة الهندية. وتتغنى الروح في " بودش نيراند شان"[٢٦٩]

---

٢٦٩ هي قصيدة شعر صوفية من الأدب الهندي الإسماعيلي تعالج موضوعات صوفية وتفتح نافذة على تنوع التراث الروحي في العالم الإسلامي في شبه القارة الهندية. وتسهم في فهم تراث شعر "الجنان" الذي تركته الطائفة الإسماعيلية النزارية، البعض منها كتب بالفارسي والعربي، استخدمت فيها الكتابات السندية والأبيات الهندية التي استخدمت في سياق الديانات الهندية غير معروف مؤلفها تحديدا إلا إنها جزء من مجلد شعر الجنان الهندي الإسماعيلي إلا إنه يبدو أن مؤلفيها مجموعة من الشيوخ "بير" في شمال الهند حيث الطائفة الإسماعيلية.

"يا سيد قد خلا مني الجمال والفضيلة!
فكيف لي أن أقول "يا محبوب تعالَ إلى بيتي؟"
فهل لي أن أصلك من خلال فضلك
فهل لي أن أحتفل متغنيًا بأغاني العرس"

فكيف للروح الفقيرة أن تأمل في الوصل مع المحب السرمدي؟ فهي تناديه دومًا باسمه "يا ستار"، وهو أحد أسماء الله المرتبط عادة بالسيدات

"توجه إلى الغرفة يا شريك، هناك إلى كوخي البائس!
يا حبيبُ، غطني بردائك يا محبوبي!
أفلا يستر كل خطايا السيدات المذنبات؟"

فتسمى الروح "بالكناسة"، والكناس هو من طبقة الخدم الدنيا المنبوذة والمنوط بها تنظيف المنزل والمراحيض، ولم يغضب بوله شاه البنجابي الذي ظهر عادة في ملابس السيدات من تقديم نفسه كروح سيدة مسكينة. وتجرأ الشاعر بابا بوله شاه الذي أحب أن يأخذ صورًا من قصة الحب التعيسة هير ورانجاة [٢٧٠] على دعوة المحبوب إلى ساحته، وأن يربط رداءه بردائه ومن ثَم الزواج بها:

---

٢٧٠ قصة هير ورانجة هي إحدى قصص الحب الشعبية المشهورة في أدبيات البنجاب، مثل (ميرزا - صاحبة)،( سوني - ميهوال) والتي سيرد ذكرها بالتفصيل في الفصول القادمة، وغيرها العديد من السرديات الشعرية مثل (ساسي - بونه) التي سيرد ذكرها بالتفصيل في الفصل القادم، وأشهر نسخة لهير ورانجة هي تلك التي سطرها وارث شاه، وتحكي أن هير البطلة قد ولدت في قبيلة غنية في البنجاب بينما ولد هير لقبيلة أخرى بالقرب من نهر تشيناب، وكانت حرفته العزف على الناي ولأحد الأسباب العائلية قد طرده أهله حتى استقر في قرية

آه يا محبوب تعالَ إلى ساحتي!
فَسأبذل نفسي كليًا من أجلك تعالَ إلى ساحتي!
ليس كمثلك شيء!
أتقصاك في الأدغال وفي كل بقعة: تعالَ إلى ساحتي!
سأبذل نفسي من أجلك، تعالَ إلى ساحتي!
يسمونني براعي الأبقار، وأقول إنني رانجة
أفَلَستَ أنت إيماني، تعالَ إلى ساحتي!
فسأبذل نفسي من أجلك، تعالَ إلى ساحتي!
تركت والدي وربطت ردائي بك، تعالَ إلى ساحتي!
كن كريمًا للشوق، وتعالَ إلى ساحتي!
سأبذل نفسي من أجلك فتعالَ إلى ساحتي!

وعادة ما تظهر تيمة الوالدين أو الجيران التي توبخهم الفتاة العاشقة و تقرعهم (وهي تيمة معروفة في الشعر العربي عُرفت "بأدب الذم" إلا أنها تأتي هنا بمعنى آخر). ما الذي يجب على العاشقة عمله؟ يتغنى الشاعر

---

هير حيث سمعت عزفه واستأجرته عند أبيها راعيا للغنم، والتقيا سرا ردحا من الزمن حتى افتضح أمرهما وعزم والدا هير بتزويجها من رجل آخر ويرتحل رانجة هائمًا على وجهه حتى يلتقي بأحد (اليوجي) أي زاهد ويصبح هو أيضا (يوجي) ويعود بعد مدة، ويوافق أهل هير بعقد زواجهما إلا أن عم هير يضع لها السم في الحلوى، وتموت ويعلم رانجة بالأمر ويتناول الحلوى المسمومة من ورائها، وحتى الآن يقف ضريح هير ورانجة في قرية هير، وتدعى بهانج ويحج إليه العشاق طالبين الدعوات والبركة.

المتصوف البنجابي علي حيدر[٢٧١] (المتوفى عام ١٧٨١) بصور من قصة الحب الشهيرة لهير ورانجة قائلا:

" لقد كلمني الورى يحذرني
ألا أدير وجهي عن النديم الجميل!
وإن ألقى بي والداي من داري
فما أحبُّ إلي من هجر داري لخاطر نديمي الحبيب.
أريد أن ألقي التي تنصحني، بنفسي، في غياهب الجب
أريد أن أبقى في العراء عند نديمي
فمنذ أن التقت أعيننا بعلي حيدر
فلن أخلف وعدي يا نديمي!

وفي شعر جنان ترد إشارات إلى موقف الفتاة الثوري في أن تفر من العالم وتبقى عند المحبوب. وفي جوجارات[٢٧٢] كان للفتاة أن تترك المنزل وعلى رأسها قدر ماء لتعطيه حبيبها، الذي عليه بالطبع أن يتقبله منها.

---

٢٧١ هو علي حيدر (١٦٩٠ ـ ١٧٨٥) شاعر صوفي ولد في ملتان حتى سنوات قليلة لم يكن علي معروفا للجمهور إلا للدراويش السائحين "الفقير"، كثيرا ما تغنوا من شعره في الأزقة، وفي عام ١٨٩٨ نشر مالك فظل الدين شعره، وجمعه تحت مسمى "مكمل مجموع أبيات علي حيدر". كان يطلق على نفسه "كلب سادة أهل البيت"، لمرابطته على أبواب أهل البيت، وكان من أتباع الصوفي شاه محي الدين. يشتهر شعره الذي يختلف عن شعر هاشم وبوله شاه بالزخرفة الشعرية وتدفق الكلمات واللعب بالمعاني والألفاظ المتخفية حيث لعبت العلاقة الحميمة كتتويج للعلاقة الروحية، ويعتقد أنه كان موسيقيًا بارعًا حيث إن اللعب بالجناس والأصوات يكشف موهبة الموسيقي التي كانت لديه.

٢٧٢ هي ولاية في شمال غرب الهند وعاصمتها غانديناغار التي سميت تخليدًا للمهاتما غاندي وتشمل جزءا من مومباي وتجاور بحر العرب وباكستان، لها تاريخ مديد من قبل المغول.

هذه الصورة تقودنا إلى الرمزية في أغاني العرس. وهي مقاربة واردة في تعبيرات أغاني العرس السندية، التي تتفق مع كثير من الصور الواردة في الأدب الصوفي. وخصوصاً ما ورد عند الشاعر الشعبي خواجة غلام فريد[٢٧٣] المتوفى عام ١٩٠١، في سرايكي ـ وهي إحدى المناطق بين السند والبنجاب ـ والذي يمتليء شعره بلغة معبرة، فيطلب من روحه الأنثوية في أبيات بسيطة أن يكون لها شالات ملونة من أجمير[٢٧٤] وأكمام من جايسلامر[٢٧٥]، فمسقط رأسه هي تشوليستان[٢٧٦] وهي الآن راجستان الهندية.

وتتحدث أرواح بطلات الشاعر فريد عن خاتم الأنف الذي تضعه المرأة المتزوجة، وتأبى أن ترتديه العاشقة المهجورة، سواء أكان ذلك من الصبغات التي توضع عند مفرق الشعر، أم من أحمر الشفاة أم من مادة الأنتيمون الأسود المستخدمة لتكحيل الرموش. وهن سيدات حقيقيات

---

٢٧٣ هو خواجة غلام فريد (١٨٤٥ ـ ١٩٠١) أشهر شعراء الصوفية في الهند في القرن التاسع عشر، كان عالما وكاتباً ومنتمياً إلى الطريقة النظامية (نسبة إلى نظام الدين أوليا) الشيشتية، وعالم لغات، من أشهر أعماله "ديوان فريد" وكتبه بالسرايكية والأردية و "مناقب محبوبية" وكتبها بالفارسية، يمتلأ شعره عن آخره بحب الله ورسوله وحب للإنسانية والطبيعة وتغلب رمزية الصحراء على شعره وأحيانا ما يعرج إلى السياسة مقاوما الاحتلال البريطاني.

٢٧٤ هي مقاطعة بين لاهور ودلهي وأجرا.

٢٧٥ هي مدينة أسست عام ١١٥٦ في منطقة راجستان، تحيط بها صحراء راجستان وبها العديد من القلاع الأثرية.

٢٧٦ هي صحراء جولستان تمتد بين البنجاب والبور وبابها في باكستان وتمتد بمحاذاة صحراء أخرى هي صحراء ثار إلى أن تصل إلى السند والهند، ويسكنها البدو وتغلب عليهم ثقافتهم البدوية الخاصة.

بالفعل من صحراء تشوليستان، وتأتي على لسان إحدى بطلاته في طقوس العرس أبيات الشعر التالية:

"منذ الأبد قد تصادمت رؤوسنا"

فتصادُم رأس كلٍ من العروس والعريس أحد الطقوس الهامة للفرح في تلك المناطق. وتستّخدم كل أرواح الفتيات كلمة مؤنثة تقليدية عندما ينادين على أخواتهن وهي "بهنار"، وعلى ندمائهن في اللعب "ساتيون"، وعلى أصدقائهن "أديان". ويوبخهن من وقت لآخر لأنهن لم يختبرن بعدُ حالة الحب الحقيقي. وهكذا تتغنى الروح في "بودج نيراندشان"

" انظروا يا صديقاتي الفرحات إلى الحال المسكينة لتلك لمرأة!"

والمقصود ها هنا بالصديقات الفرحات هم البشر الراضون عن حياتهم اليومية، والغافلون عن الروح البطولية التي تسعى في الطريق الوعر إلى المحبوب الإلهي "برجولة" تاركة الحياة العادية، فهي لا تقوى على مقاومة جذبة الحب الإلهي لها، والعالم يبدو لها كما لو كان غير مرأي. كما عبر عن ذلك الرومي في رحلة بلقيس كما ورد بفصل النساء في القرآن والسنة. ولذلك كثيرا ما يظهر العشاق والأخوات الجاهلات والنديمات في أغاني المتصوفة، كما في أبيات الشعر السندية لشاه عبد الكريم السندي[٢٧٧] المتوفى عام ١٦٩٤ حيث يحث الأرواح الأنثوية قائلا:

---

٢٧٧ هوشاه عبد الكريم بلزي (١٥٣٦ - ١٦٢٣ أو ١٦٩٤)؟ من كبار شعراء الصوفية في السند من سند باكستان وهو الجد الأكبر للشاعر الكبير شاه عبد اللطيف السابق ذكره، اهتم

" في كل مكان يا أخوات آثار قدميه
إلا أنه من الصعب معرفتها
حتى على من ترى بعينيها
فهي لا تعلم كيف تسم حواسها "

وكذلك عندما تستخدم السيدات الحقيقات تيمة الأرواح ـ الأنثوية صيغة التصغير (يأتي اسم التصغير تعبيراً عن الحنان وهو منتشر جدا، واستخدمه ابن الفارض في شعره عن الحب الصوفي) فمثلا الإقطاعي البلوشستاني (من بلوشستان) "بونهون" تصبح "بونهال" أو "بالوتشال" "يا صغير بلوتشي يا حبيب" أو "خوهيريال" "يا ساكن الجبال يا حبيب" ودومًا ما تظهر أسماء حنونة جديدة تعبر عن البطل المحبوب. لذلك تحبذ السيدات استخدام المفردة اللغوية المعبرة عن الحب "ررو" أو "رري" على الأقل في الشعر السندي اللاحق. ولا يُنادى فقط المحبوب بمثل تلك الصيغ الحنونة، ولكن أيضًا الطيور الزاجلة وأعشاش الطير، التي تصبح من "كانج" إلى "كانجال" أو "كانجرري" عندما تصغر.

بينما يقتصر استخدام لهجة السيدات تلك في الشعر الأردي التي تُسمى "ريختي" في الموضوعات الفاجرة أو الفاحشة، وهي عنصر مهم في

---

بالتصوف والعلاقة مع الله منذ صغره واعتاد حضور التجمعات الصوفية في بلدته حيث كانت تصحبها الموسيقى الشعبية، سطر أعماله في "بيان العارفين" بالفارسية وارتكز شعره على "وحدة الوجود" وتأثر كثيرا بأعمال ابن عربي وهو ما يتضح في تفسيره للعديد من الآيات القرآنية، وعنى بفكرة الانفصال والاتحاد مع الله واتحاد المحب مع المحبوب. تبلغ أعماله ما يقرب من ٣٩ عملا.

أجواء الشعر الصوفي الشعبي. وهكذا تنشد الروح مرتبكة من جمال المحبوب:

"عندما يمشي المحبوب الهوينى مقتربًا في طريقه
تهتف الأرض "باسم الله"
ويقبّل الطريق قدميه
وتقف الحوريات بفخار منتصبات
غارقات في حيرة، خاليات النصيحة
أقسم بالله أن حقيقة جمال المحبوب أجمل من كل شيء!"

وعبر شعراء شبه القارة في الهند وباكستان عن مشاعرهم بصيغ متعددة، إلا أنهم ارتكزوا على أمثلة هندية وشخصيات هندية مستعارة بدورها من أدبيات الغزل الفارسية والعربية، بكل ما فيها من شخصيات معقدة مع قافياتها التي اعتاد أن يستخدمها الشعراء المتعلمون في المدن منذ مئات السنين، وهو أمر وارد في الشعر الشعبي.

وبجانب شعر "دوها" ذي البيتين القصيرين توجد قصائد طويلة مقفاة مثل "السيهارفي" والـ "براهامسا". و"السهارفي" هي قصيدة الثلاثين حرفًا، وهو نوع من الأبجدية الذهبية فكل بيت يبدأ بحرف من الأبجدية العربية، وغالبًا ما تبدأ العديد من الأبيات بنفس الحرف، أما عن طول البيت فهو أمر متروك تمامًا للشاعر. ويرد موضوع الروح العاشقة أيضًا في هذا النوع من الشعر، إلا أن أهم ما يمثل وجهة النظر تلك هو شعر "البراهامسا" أي شعر الاثني عشر شهرا. وهو مأخوذ من

السنسكريتية ومنتشر بكثرة في اللغات الهندية، ويعبر عن مشاعر "فيراهيني" أي المرأة الباحثة، ففي مطلع كل شهر تنتابها مشاعر مختلفة، فمرةً الحب، وأخرى الشوق، وثالثةً الحزن، وهو ما يتفق مع طابع الشهر، وهو من الشعر الغنائي. ومن الطبيعي إذا ورد استخدام الأشهر الهندية والنتائج المترتبة عليها أن يرتبط وقت هطول المطر بقوة مع الشوق والاتحاد. فلما يتغنى طائر الواقواق الهندي "كيف يكون إيمان المرء في وقت هطول المطر؟" "بية كاهانى؟" أي "أين المحبوب؟" فيبدأ الشاعر الهندي - الفارسي الكبير أمير خسرو[٢٧٨] المتوفى عام ١٣٢٥ بذلك البيت:

"إنها تمطر وأنا بعيداً عن نديمي.."

بهذا يكون قد استعار تيمة "فيراهيني" في شعره الفارسي المعقد. إلا أن الأصعب من ذلك هو الرمزية التي يلجأ إليها الشعراء عند استخدام الشهور الإسلامية القمرية، التي لا ترتبط بالفصول، وتختلف سنويًا عن السنة الشمسية فيما يقرب من عشر إلى أحد عشر يومًا. ومن ثم تتغير صيغة الرمزية الطبيعية القديمة في سياقاتها التاريخية المحددة، ففي محرم تنوح الأرواحُ العروس على استشهاد حفيد النبي الحسين، الذي قتل على

٢٧٨ هو أبو الحسن يمين الدين خسرو (١٢٥٣ - ١٣٢٥) كان موسيقيا صوفيا وشاعرا وعالما، يعتبر بحق أيقونة الثقافة الهندية الإسلامية ذات الخلفية الهندوسية، كان تلميذ نظام الدين أوليا في دلهي، ينسب له الفضل في اختراع آلات موسيقية جديدة، مثل "السيتار" وهو آلة تشبه الربابة والطبلة. سطر أشعاره بالفارسية والهنداوية (إحدى لغات الهند خليط من الهندي والأردي) يعتبر مؤسس فن القوالي وإدخل فن الغزل في الأغنية الهندية بجانب إدخال عناصر عربية وفارسية وتركية إلى التراث الغنائي الهندي، من أعماله "وسط الحياة"، "غرة الكمال"، "مفتاح الفتوح"، "قرآن الصاعدين" وغيرها.

يد قوات السلطة في العاشر من محرم عام ٨١ هجريا الموافق ١٠ أكتوبر عام ٦٨٠ ميلاديا. وفي الشهر القمري الثالث يتذكر المرء إما موت أو ميلاد النبي الحبيب إذا كان المزاج فرحا، والذي يظهر بدوره عادة في الشعر الشعبي المتأخر كروح العروس الحقيقية تحت الأسماء التالية "دوله، نبي، رسول" أي "العريس، النبي، الرسول" وكذلك وردت في "بودج نيراندشان" للمتصوفة المتأخرين حيث كانت أسمى أهدافهم "الفناء في النبي"، وليس كما كان يأمل المتصوفة السابقون أن "يفنوا في الله". فيمتدح شهر رمضان، وفي آخر شهر قمري حيث موسم الحج تصل الروح إلى هدف اشتياقها، وهي الكعبة، بيت الحبيب الإلهي في مكة، أو قبر الرسول الحبيب في المدينة. وبذلك تتحرر الروح من كونها "فبراهيني" وتصبح في مقام "الوصل" أي "التي وصلت" وتم تشبيهها في كلمات "بودش نيراندشان" "بالسكر الذي ذاب في الماء".

وفي هذا السياق يمكن ربط النبي بالمطر، فالقرآن قد وصفه "برحمة للعالمين" سورة الأنبياء آية ١٠٧﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ فيبدو كسحابة مطر كبيرة حيث إن المطر يعرف في كثير من مناطق العالم الإسلامي "بالرحمة"، كما دعاه شيخ عبد اللطيف شاه في عمله "سور سارنج"

"إن رداء السحاب يغطي حبيبي"!..

فرحمة الرسول تحيي القلب المقفر كما يحيي المطر الحقول البور. إلا أنه إلى أي مدى يمكننا تحديد تاثير "رمزية المطر من شعر البراهامسا"، فهو أمر ضبابي تمامًا.

وتم تطوير تيمة الروح ـ العريس أكثر في شعر "جنان" عند الطائفة الإسماعيلية، التي يعتبر إمامها هو المحبوب، المشتاقين لمعاينته (وهو اليوم أجاخان، زعيم دنيوي وروحي للطائفة الإسماعيلية) ـ وهذا الخيال أو تلك الصورة قد عرفت منذ العصور الوسطى كما أبرزها الشاعر علي س. أسانج الأصغر، والتي ما زالت حتى الآن تنشد في الأغاني الحديثة عند تلك الطائفة.

وعادة ما تجمع المقطوعات الغنائية للشعر السندي الصوفي في فصول تعرف بال"سور" حيث جمعت ونظمت طبقا لنغم معين. ومنذ أيام "ميان شاه عينات"[٢٧٩] في أوائل القرن الثامن عشر، أصبح ينظم هذا النوع من الأعمال فيما يعرف باسم "ريسالو". فكل شعر الحب هذا قد نظم للغناء، وليس للقراءة أو أن يكون حجر الأساس للقواعد أو فقه اللغة ـ لذلك يظهر التكرار اللا محدود له، فمثلا نرى أن ثمانية أبيات أو أكثر لها نفس الشكل، الذي قد يعتريها فقط شيء من التغيير البسيط. وما تليها من أبيات تم نظمها عادةً في قافية مسجوعة أو في أبيات يصبح

٢٧٩ هو شاه عناية الله (١٦٢٣ ـ ١٧١٢) من سلسلة كبار شعراء الصوفية في السند، يعتبر من الشعراء الذين مهدوا للشاعر المحنك شاه عبد اللطيف، أثر شعره في الأجيال اللاحقة في السند وفي الشعر الشعبي المغنّى، كان منتميا إلى الطريقة القادرية، لم يهتم بدراسة الفارسية أو العربية أو حتى اللاهوت لكنه عكف على حضور التجمعات الموسيقية والرقص الصوفي، بنى تجربته الصوفية من الترحال شمال وغرب الهند ومن الناس، لذلك كتب شعره بصيغة شعبية، من أعماله ميان شاه عنات كلام، جمع شعره المكتوب في صيغة "البيت" و"الواي" اللتان تناقلتهما الأجيال. يزدحم شعره بالرحالة والنساجين والباحثين عن الخالق الأعظم، وهو المؤسس للأساطير السندية الشعبية السبع: ليلى، مروى، مومال، ونوري، ساسي، سوني وسورات وهي قصص تعبر باستعارة عن الحياة الروحية الرفيعة.

من السهل استخدامها والعودة إليها دومًا أشبه بالموجات الصغيرة على سطح البركة.

والأغاني التي تتناول موضوعًا رئيسيًا يتم قفلها بما يعرف "كافي" أو "الواي". ويعتبر شعر الوجد للمتصوف السندي "ساتشال سارماست"[٢٨٠] المتوفى عام ١٨٢٦ مثلا جيدا لهذا الاتجاه في النظم، وعادةً ما يعاد السطر الأول عند غلق "الكافي" أو بعد كل سطرين يتم القفل.

وتتفق خواص الشعر الشعبي مع تلك الأبيات المليئة بالجناس الاستهلالى، التي عادة ما تفتقر إلى تحليل نحوي أو إلى ترجمة معينة، إلا أنها ذات نغمات رائعة، فاللغة السندية ذات الصيغ الفعلية الغزيرة لديها إمكانية لا محدودة في تجميل هذا النوع من الأبيات.

وعادة ما يضيف الشعراء إشارات من القرآن لكي يعزوا بطلاتهن، أو بكلمات النبي التي تظهر هنا وهناك في أبيات الشاعر المقروء جيدًا مثل عبد اللطيف شاه (غالبًا كان أميًا) أحب أن يستخدم من وقت إلى آخر أمثلة عربية، أو أبيات عربية كلاسيكية، وكم هو لا معقول كما لو كانت

---

٢٨٠ هو عبد الواحد فاروقي: (١٧٣٩ ـ ١٨٢٩) إلا أن لقبه سشل سارمست شاعر صوفي من السند (جنوب باكستان الآن) تم الشهر بلغات عديدة أهمهم السندية، ولقد اكتسب ذلك اللقب من خلال توقيعه على شعره باسم مستعار ف"سشل أو ساشو" تعني "الحقيقي" أو الحق بينما "سرمست" تعني "الوجد" بالسندية والأردية، ومن ثم أصبح اسمه "المتصوف الحق" أو "ولي وجد الحقيقة"، تُغنى أشعاره من قبل المغنين الشعبيين باللغة السندية والسرايكية، ما زال مقامه حيث وُلد حتى اليوم في "داراز" في مقاطعة خير بور في باكستان، كان من أشد المدافعين عن عقيدة وحدة الوجود. جمعت كل أعماله في "سشل جو رسياسلو" من قبل أجا صوفي.

الفتاة القروية في السند (أي إحدى بطلاته) على إجادة قوية باللغة العربية (بصرف النظر عن القليل منها من أجل الصلاة).

إلا أن الالتزام التاريخي غير مطلوب في هذا النوع من الشعر، فبطلات القصص يقفن خارج حدود الزمان والمكان، فهن أمثلة أبدية على الحب الإلهي المطلق. وهذا ينطبق أيضًا على تسمية المكان وخصوصًا في شعر السرايكي للشاعر خواجة غلام فريد[٢٨١] الذي ساق أسماء أماكن قديمة بتصرف تام.

ومن هن بطلات تلك القصص؟ افترض الشعراء أن مستمعيهم على علم بالقصص الشعبي، لذلك تنازلوا طواعيةً عن وصف أجواء الأغنية، فالقصص عمومًا وخصوصًا عند شاه عبد اللطيف الذي تتشكل قصصه من لحظات درامية كبرى ومن ثم تتشظى وتتلعثم، وتستطرد، أو تتكرر، وغالبًا ما تبتعد عن التسلسل المنطقي.

وفي قصة هير ورانجة في البنجاب التي تحولت إلى ملحمة وطنية، أحب هير الذي أتى من على مقربة من "يهانج" (حيث يرقد قبر العاشق على الأرجح) من قبيلة سيال وهم أقارب رانجة، عندما أصاخت السمع إلى عزف نايه إلا أن العائلة قد زوّجتها برجل آخر رفضته. وبحجة أنها قد قرصتها إحدى الحيات تركت حبيبها أن يأتي لها متنكرًا في زي درويش طبيب. وفي إحدى المحاولات المتكررة من الزواج به قد تم الإمساك بهما

٢٨١ سبق

من قبل العم الكبير للفتاة، ويُقتل هير مسموما كما ورد في إحدى نسخ القصة، أو منفيًا كما أحب آخرون أن يرووها.

وتلك القصة كغيرها من قصص الحب الرومانسية في الهند تمت صياغتها شعريًا وفقا إلى معطيات حقيقية إذا ما عاينا التكوين العائلي وعادات قبائل البنجاب الكبيرة.

وليس أقل من قرابة مائة نسخة بالنجابي والأوردو والفارسي، إحداهما للشاعر الصوفي أفارين[٢٨٢] المتوفى عام ١٧٣٠ الذي ورد في شعره الفارسى أو مثنويه المعروف بـ "ناز ونياز" أي "التغنج والتوسل". وكذلك ترد إشارات إلى هير ورانجة في أبيات الشعر البنجابي اللاهوري المتصوف مادو لال حسين (المتوفى عام ١٥٩٣).

لم يكن التأليف المنهجي هو ما أكسب هذه القصص شهرة، فإعادة الصياغة الشعبية هي من وضعتها موضع الشهرة. هير (البطل) أصبح الروح التي أحبت الله المتجسد في رانجة، وكل شخوص القصة يمكن أن يفسرها البنجابي المعاصر من خلال اليجوري أو من خلال الرمزية.

---

٢٨٢ هو شاه فقير الله : هو شاعر فارسي بنجابي لاهوري، ربما ينتمي لقبيلة جويا الشيعية، تلقى تعليما فارسيا وحفظ المثنوي لجلال الدين الرومي عن ظهر قلب، كان على علاقة جيدة بعلماء عصره وبالموظفين المغول، في الجزء الأول من عمله الضخم "الكليات" لمجد المديح وشعره، أما في الجزء الثاني فيحوي ما يقرب من ٣٨ مديحا وثلاثا من مثنويه خصصها لقصة هير ورانجة السابق ذكرها، بالرغم من صوفيته إلا إنه لا ينتمي إلى أي من سلسلة الأولياء أو الشعراء، يعكس شعره حبه الخاص لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، اتبع أسلوب شاعر سابق عليه يُدعى صعب التبريزي في التمثيل.

ويأتي في الصدارة شعر الوجد لبوله شاه المتوفى عام ١٧٥٨ في قصور الذي دوما ما اغترف من إشارات قصة هير والمحبوب فمن أبياته :

" دومًا ما تنادي رانجة

فأكون أنا نفسي رانجة"

والتي أضحت مثلا شعبيًا، فهي تعبر عن الاتحاد التام بين العاشق والمعشوق. وهذا الشعر الملحمي للشاب القروي وارث شاه[٢٨٣]، يعد من أشهر الملاحم انتشارا في البنجاب، والتي حركت حكمتها وما زالت تحرك أعماق كل من المسلمين والهندوس والفلاحين والمثقفين على حد سواء. إلا أن الأقدم هي قصة "ساسي وبونهون"[٢٨٤] التي سطّرها أحد شعراء السند عام ١٦٤٣ تحت اسم "زيبا نجا"، ورويت في المثنوي الفارسي. وقد حرر كل من المسلمين والهندوس نسخًا فارسية متأخرة (وهي جاسونت راى[٢٨٥] عام ١٧٢٨، ولاله شان براكت[٢٨٦]). في حين

---

٢٨٣ هو بير سيد وارث شاه: (١٧٢٢ ـ ١٧٩٨) صوفي بنجابي في الطريقة الشيشتية، عرف بشكسبير الأدب البنجابي بسبب سيرة "هير ورانجة" قصة العشق الشهيرة التي كانت متداولة في الأدب الشعبي عن هير وعاشقها رانجة. ولد في البنجاب من أسرة السادة التي تنتمي لآل البيت كان تلميذا لأستاذ في مدينة قاصور. انتقل بعد تلقي تعليمه هناك إلى مدينة ملكان شمال باك باتان حيث استأجر غرفة صغيرة ملحقة بالجامع المنيق لتلك المدينة، وهو ما أطلق عليه فيما بعد اسم جامع وارث شاه. حيث يحج إليه اليوم في مقامه خصوصًا من المحبين. يعكس شعره التشبع بروح الصوفية والثقافة البنجابية الخالصة حتى إنه رسم في شعره أسلوب حياة البنجاب، وذلك من خلال حبه لفتاة "باج باري" بشكل فائق الرومانسية. من أبياته" دعنا يا أخي نعرف الله أولا فهو من جعل الحب قيمة العالم، فالله كان أول من أحب . . وكان محبوبه النبي محمدا (صلى الله عليه وسلم).

٢٨٤ سترد بالتفصيل في الفصل القادم.

٢٨٥ جاسونت راي مونجي هو كاتب هندي توفي عام ١٧٢٨ .

محبات من عصر روحيلة[٢٨٧] قد أُلفت في بداية القرن التاسع عشر مثنوي إراديًا تحت عنوان "أسرار محبة" أو "محبات". وعن قصة ساسي وبونهون اللذين عُرف مصيرهما اليوم في باكستان بأجمعها، قد استُخدمت أدبيا منذ وقت مبكر. وتحمل إشارات إلى "بهام بهور" وهي مسقط رأس ساسي العاشق والتي عُرف فيها الشعر السندي في القرن السادس عشر، إلا أنه فقط في "ريسالو" لشاه عبد اللطيف قد قُسم إلى خمس سور، طُورت فيها كل التفاصيل، وكذلك الفصول الأخرى مثل فصل "ريبا ودهار"، وعادةً ما تظهر أيضًا أبيات رباعية تتحدث عن ساسي يبدو أنها كانت المفضلة للشاعر.

وقصة "سوني و ميهوال" تعتبر على النقيض من حكايا البطل القائد، عُرفت في أنحاء باكستان جمعاء إلا أنها قد خرجت من نهر "تشيناب"[٢٨٨]. وأضاف عبد اللطيف شاه في "ريسالو" التي تعتبر من الكتابات المقدسة لدى المسلمين والهندوس إلى تلك القصة الشهيرة بعض الأبيات إلى الأحداث التي تقع في السند، وهكذا القصة المؤثرة لفتاة القرية "مروى: من صحراء ثار"[٢٨٩]، إلا أن قصة كل من "سوني وساسي" مثلت بالنسبة له رموزا للأرواح التي اتصلت بالمحبوب في آخر

---

٢٨٦ لالا شان براكت كاتب هندي من القرن الثامن عشر.

٢٨٧ أسرة حاكمة من قبائل الباثان في الهند.

٢٨٨ نهر تشيناب ويعني نهر القمر، يعتبر من كبرى الأنهار التي تجري في الهند وباكستان، ينبع من أعالي الهمالايا وينحدر مارا بمنطقتي جامو وكشمير في سهول البنجاب في باكستان.

٢٨٩ صحراء ثار أو صحراء الهند الكبرى تقع شمال غرب شبه القارة الهندية وتمتد بين الهند وباكستان من جنوب إقليم البنجاب مرورا براجستان وجوجرات إلى إقليم السند في باكستان.

الطريق الشاق، على النقيض من "مروى" التي مثلت له الروح التي رأت في الدنيا موطنها الأصلي الذي لم تنسه أبدًا.

وكلٌ من تلك القصص الثلاث سيتم تحليلها تفصيلًا فيما بعد. وقد عدل شاه عبد اللطيف بجانب تلك القصص بعض الموروثات التي تستند على القصص السندية، مثل "ليلى وتشانيسار" و"نوري تاماتشي" اللذين سُطرا في القرن الخامس عشر، وكذلك قصة من صحراء ثار تُدعى (مومال ورانو) وأسطورة من "سافاراشترا" (مثل القصة الحزينة للملك ضيا دشاه). فالبطلات كلهن يمكن اعتبارهن رمزا "للنفس"، فقصة "ليلى ومومال" تعتبر رمزًا تقليديًا "للنفس الأمارة" ويتحولان إلى النفس الأمارة من خلال المعاناة والانفصال، إلا أن نوري تمثل "النفس المطمئنة" التي نُستقبل بكل الحب من حبيبها.

ولُعبت قصة "ليلى وتشانيسار" في القرن الخامس عشر، إذ كان ، "جام تشانيسار" إقطاعيًا في السند وعاش سعيدًا مع زوجته ليلى. إلا أن امرأة أخرى اشتهت الملك، ووهبت نفسها أمَة في القصر، وفي أحد الأيام عرضت على ليلى قلادة ماس أخاذة "ناولكها" أي تقدر بتسعين ألف قطعة ذهبية (وهو مقدار يُعد رمزًا في القصص عن أرفع الأثمنة للحلي). ورغبت ليلى في اقتناء القلادة إلا أن الأمة المزيفة امتنعت عن بيعه لها، وكانت لها أمنية واحدة فقط هي قضاء ليلة مع "تشاسينار". وأعمت ليلى الرغبة فوافقت، وصباحًا عندما استيقظ الملك من سكرته، اكتشف الخدعة وطرد امرأته الحمقاء التي قضت بقية عمرها مسكينة ونادمة حتى تتطهر مرة أخرى وتقترب من حبيبها:

"قد رأت بريق الحُلي
فتعثرتْ وتبعثرالكبرياءُ
وأتوا إليها منادين :
يا للعار! وأتوا مرات بعد مرات
فأحرقوا وألهبوا
قلبَها بعذاب التقريع
وأحرقوا قاعة الشباب السرمدي
وسرعان ما نسيته المسكينة"

وهنا قامت المرأة الحمقاء ذات الروح الهوائية الشريرة بالتخلي عن حبيبها الوحيد من أجل متع الدنيا اللامعة، فحبستها الدنيا وفقط بعد معاناة لا نهائية تُستقبل من قبل الحبيب المتسامح ومن ثم تموت أمامه.

ويدخل أيضًا في هذا الإطار نوع من قصص الحياة الفكاهية عن "الرجال السفاحين". فتصبح حبيبة الأمير "رانو" المهرول إليها كل ليلة من بعيد مأخوذًا بسحرها. ولما تأخر عنها ذات ليلة ألبستها أختها رداء رجل، ووجدها كما يبدو في أحضانِ آخر. ويلي هذا انفصال، فلا ينبغي لأحد أن يلعب الحب ولا حتى المحَاولة، فقط على سبيل الدعابة يمكن للمرء أن يستبدل حبيبه. كما أضحت ليلى نادمة لومال وقضت أيامها ولياليها في إخلاص له، وبذلك تطهرتْ روحها و أدركتْ أخيرًا أن قلبها قد امتلأ عن آخره برانو ولا يوجد أجمل من بهاء جماله. ولما كتب سلطان ولد ابن الرومي سيرة والده في صيغة شعرية، وجد نفسه في محبوبه الصوفي "شمس التبريزي" "منيرا كالقمر" وهكذا عبر شيخ عبد اللطيف عن

مومال الذي ساواه بالقمر، هذا التشبيه للعاشق والمعشوق بين الروح المتطهرة كالمرآة العاكسة أو كنديم القمر المنير كما في الأبيات التالية:

" إلى أين أسوق الجمل، ونور القمر تتوهج هالاته
ففيَ أنا صومعةٌ لخبز " الكاك "
وفيّ قمرُه ووجهُه
هو حبيب الحبيب، وما من حبيبٍ غيره
إلى أين يذهب الجمل؟
ونور القمر تتوهج هالاته!
وفي صومعة " الكاك "
وفي يوم الربيع وإكليل الزهور
هل سيكون النديم كل الأشياء
ولن يبقى من سواه نداء "

وفي إحدى المرات لا تظهر البطلة كمرأة باحثة متعطشة أو نادمة، ولكن كفرحة مطمئنة، أي حال النفس المطمئنة التي وصلت إليها، وفي كل حال تَصبح فيه عند سيدها كأنها في وطنها. وتُغنى هذه القصة على طريقة "كامود"[٢٩٠] التي تُعزف في الصباح الباكر، وعندما يرقد المرء في القيلولة، كما تُعزف لسرير الهز ذهابا وإيابا.

---

٢٩٠ الكامود هو شكل من أشكال الأدب السندي ويتكون من ٣٠ (سور) أي فصل خصصت لقصة نوري وجام تاماتشي.

أحب "جام تاماتشي"[٢٩١] الإقطاعي السندي من القرن الخامس عشر الفتاة العاملة في مهنة الصيد وتُدعى "نورى" التي صحبته في كل مكان، ودومًا ما سألتْه لماذا اختارها وهو الملك، وهي فتاة فقيرة مسكينة من طبقة اجتماعية وضيعة، تنبعث منها رائحةُ الزفارة على حين أن قصره مليء عن آخره بالأميرات الجميلات الثريات. فتواضعُها واستسلامُها هو ما جذب الملك لها. وعبر "جام تاماتشي" عن حبه لتلك الفتاة الصيادة بكونها "أمَةَ عبدها" كما أشير إلى السلطان محمود الغزنوي دومًا في التقاليد الفارسية والتركية بعشقه للعبد التركي "إياز"، أي تبدلت الأدوار. وكما يتذكر "إياز" دومًا في مثنوي الرومي كم كان فقيرًا ومسكينًا إلى أن اختاره السلطان وغمره بالفضل، هكذا أيضًا نورى التي تغنت بفضل وشهامة العلي القدير الغني، وتظهر كلمات الشاعر التي سطرها عن الإقطاعي على لسان الفتاة الصيادة أنه قد ساوى بين تاماتشي والله، فعرشه يتجلى منه الكبرياء(١٠ , ٢) حتى أن الآية القرآنية عن الفرد الصمد في سورة الإخلاص قد وردت للتعبير عن حبيب نوري الإقطاعي. وتبقى بطلات قصص الحب لعبد اللطيف شاه مثل ساسي وسوني ومروى أمثلة للحياة الصوفية.

---

٢٩١ قصة حب نوري وجام تاماتشي: هي قصة من الأدب السندي الشعبي تحكي عن وقوع الأمير جام تاماتشي في حب صيادة تدعى نوري ، التي أسعدت الأمير بطاعتها وخضوعها التام له مما جعله يرفعها فوق بقية الأميرات. ووردت في ريسالو الأدب لشاه عبد اللطيف مع بقية قصص السند الشعبي المعروف بالبطلات السبع، إلا أنها الوحيدة التي تكلل بالنجاح والسعادة وليس بالحب المحترق والبحث الدائم عن الحبيب، ومايقصد به شاه عبد اللطيف السندي هنا أن الطاعة والخضوع ليس بالشيء السيء لكنه كان سبيل نوري لتحقيق السعادة والسمو فوق باقي المنافسات، وحتى الآن هناك ضريح رمزي لنوري في وسط بحيرة كالري يزوره مئات السائحين.

## الفصل العاشر

# ترحال ساسي

تنتمي قصة ساسي التي تعني "جيلة كالقمر" إلى أدب السرد في السند والبنجاب، وكغيرها من قصص الأدب الشعبي قد توارثتها أكثر من نسخة. إلا أن الخط الأساسي للقصة الذي تستند عليه النسخ الأخرى هو ما ورد في "ريسالو" لعبد اللطيف شاه وتحكي الآتي:

"ولد لأحد البراهمة[٢٩٢] بنتٌ عرف من برجها أو طالعها أنها ستتزوج مسلمًا، ولتغيير ذلك العار، أُلقيت الفتاة بسلة في النهر. وعثرت عليها أسرة مسلمة تعمل في غسيل الملابس في بهام بهور[٢٩٣] وربتها كما لو كانت ابنتهم الحقيقية ثم كبرت الفتاة وأصبحت ذات جمال فاتن حتى أن المعجبين والراغبين أتوا لرؤيتها من بعيد. أما "بونه" أمير

---

٢٩٢ البراهمة هي أعلى طبقة في الهندوسية ومنهم الكهنة ومعلمو تعاليم الفيدا، إلا أنه في الهند الحديثة يمارسون كل الأعمال اليومية بشكل طبيعي.

٢٩٣ مدينة عتيقة في إقليم السند جنوب باكستان إلى الشرق من مدينة ميناء كراتشي، ترجع إلى القرن الأول الميلادي، حكمها المسلمون من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر ثم هُجرت فيما بعد، وأقدم مساجدها يرجع إلى ٧٢٧ ما زال قائمًا هناك.

منطقة "الكنش" حيث تنحدر جبال بلوشستان في سهل السند فقد عزم التوجه إلى بهام بهور". وبعد الكثير من المغامرات التي لا تشكل أهمية لجوهر القصة الصوفي لذلك تجاهلها شاه عبد اللطيف ولم يذكرها، يصل بونه إلى هدفه ويحب ساسي، ويود البقاء بجانبها. يرتعد أقاربه الإقطاعيون من أن يحب الأميرُ غسالة، تنتمي إلى طبقة اجتماعية وضيعة، لذلك ينطلقون إلى بهام بهور ويُسكرون العاشقَين ومن ثم يقومون بخطف بونه من مخزن عمومي. ولما استعادت ساسي وعيها تجد مرقدها خاليًا وأن جمال الزائرين قد أكملت طريقها منذ زمن حاملة معها بونه.

وهنا تدخل إضافة سرد عبد اللطيف شاه: ونحّت المرأة المهجورة كل شكوكها جانبًا، وكرّست نفسها للبحث عن محبوبها: فالتوبة تحث الروح أن تترك العالم وما فيه لكي تسير في الطريق، فالندم هو أول خطوة في الطريق الصوفي. ولا ينبغي فيه على المرء أن يحوّل نظره عنه إلى العالم الدنيوي. بالطبع لم تتمكن ساسي من اللحاق بالجمال المتوجهة إلى بلوشستان. ويتملك ساسي اليأس في عزلتها بعد كثير من المغامرات التي تقوم بها. وفي إحدى النسخ يتحرش بساسي أحد الرعاة وتموت. أما بونه الذي انطلق يبحث عن ساسي فإنه يسقط ميتًا عند قبرها حتى يوحد الموت بينهما. إلا أن شاه عبد اللطيف قد ترك النهاية مفتوحة كما هي عادته.

كم كان مهمًا عنصر السيدات الرحالة بالنسبة لعبد اللطيف شاه، حتى إنه قد سطر القصة بأشكال مختلفة. فكل السيدات الأخريات من شخصيات في القصص كما هو في المواضيع العامة قد كُرّس لنغمة

معينة، إلا أن ساسي ظهرت بنغمات مثل "ساسي – ابري" أي "ساسي الضعيفة"، أو "ماعدورى" أي "المسكينة" و "ديسي" أي " الوليدة" أو "خوهباري" أي "المرابطة بالجبال" إلا أنها ظهرتْ أيضًا بشكل حسيني[٢٩٤] وهي النغمة التي تُستخدم لأغاني الشكوى والرثاء، التي خُصصت لتذكر حفيد الرسول، قتيل كربلاء، فساسي هنا تتمثل بالحسين، فهي شهيدة. وفي فصول أخرى من "الريسالو" نجد دومًا إشارات إلى مصيرها، ومعطيات عن حياتها.

ومن غير هذا تظهر ساسي منذ البدء كرمز للروح المشهورة، ففي أبيات الجد الكبير لشاه عبد اللطيف ويُدعى شاه عبد الكريم (المتوفى عام ١٦٩٤) نجد تلك الملحوظة:

"شيئان لم يأخذهما أحد في ذات الوقت من بهام بهور
الاشتياق للمحبوب والاتصال بالدنيا"

ألم يقل متصوفو الحب الأقدمون أمثال أحمد الغزالي (المتوفى عام ١١٢٦):

في طريق معرفة الوحدة
لا يمكنك أن تقف بين قبلتين.
فالمرء يحتاج إما الى رضا النديم أو رضاء شهواته!

فمن يترك وطنه الدنيوي بحثًا عن المحبوب لا ينبغي عليه أن يلتفت إلى القيم الدنيوية أو يتشبث بالأشياء الفانية. ويظهر مصير ساسي في

---

٢٩٤ أي نسبة إلى سيدنا الحسين رضي الله عنه.

أبيات الشعراء المتأخرين حتى يومنا هذا. ويبدأ فصل "ساسي ابري" بالكلمات التالية:

"الأول والآخر هو أن أتوجه إلى محبوبي.."

ويتتبع عبد اللطيف شاه ساسي ويصغي إليها، كيف تحملت الترحال بين الصحارى والجبال، وأحداث الأسابيع الماضية عليها، فهو يسمعها بتأن عندما تتفكر في الأوقات التي كان الحبيب فيها قريبًا منها، وهكذا تستعيد وصول قافلة بونه إلى عقلها:

"من "كتش" وصلت قافلة"

وتتذكر كيف كانت القافلة فخمة، وكيف كان مرافقو الإقطاعي على قدر من الوسامة! فالغسالة تتعجب من هؤلاء الرجال، إذ كانت على علم بأن بونه إقطاعي، وهي امرأة تنتمي إلى طبقة دنيا:

"فهو قد توثق بعطر المسك
وأنا برائحة الصابون"

فرائحته العطرة قد ملأت الأسواق، وأرسل روائح عطرة تأخذ بتلابيب الروح والقلب في ركْبه كسيد حقيقي. هكذا تستعيد ساسي ذكريات رائحته (فالروائح حاملة للذكريات)، وتفتنّ في وصف حالاتها الخاصة المسكينة. أليس شعرها في يد هذا البلوشي[٢٩٥]؟ وهو ما يعني أنها

---

٢٩٥ أي من بلوشستان: وهي صحراء مقفرة ومنطقة جبلية في جنوب غرب آسيا، شمال غرب بحر العرب، وتمتد عابرة جنوب غرب باكستان وجنوب شرق إيران وجزء من أفغانستان ويعرف الجزء الجنوبي منها في المصادر التاريخية بمكران.

قد استسلمت له تمامًا، وتريد أن تمسح بتراب أعضائه جسدها أثناء تجوالها في السهول الترابية.

تعلم ساسي أن بونه قد أحبها بعمق، رغم كونها غسالة وطلب قُربها، إلا أن عائلته رفضت تلك الشراكة، لذلك نراها تتنهد قائلة:

"ألم يعلم أحد في "كتش"
آه يا طبقتي الوضيعة
لا يخجل منها بونه
عندما يذكر عشيرتي!"

إلا أنها عوقبت، لأنها مدت قدمها خارج غطائها. كذلك تفعل الروح التي تسعى في طريقها نحو الكمال، وتُوجه إليها اتهامات دائمة أنها لم تبق متيقظة، فـ"قلة المنام" تُعتبر من أسس الطريق الصوفي.

فالشاعر يقصد بذلك موبخا:
"كانت هذه سقطة منك، غفوتك أثناء ذهابي!"
وقد حذر الزهاد الأوائل من قبلُ في البصرة وسوريا من النوم:
"إن المكان الذي يمكن أن يغفو فيه المرء هو بمثابة قبر له"

حتى وإن كانت خطيئة ساسي تتلخص فقط في غفلتها، فعليها الندم، فمن يستسلم "لنوم الغفلة" بدلا من النوم المتقطع تفكرا في الحبيب، عليه أن يدفع ثمن نسيان الله غاليًا، حتى تتحول إلى "النفس اللوامة" عبر التقشف والندم الدائمَين. لذلك يستحث الشاعر ساسي أن تكمل طريقها وأن تنسى "بهام بهور" المقصود بها "الدنيا" حتى تصرخ هاتفة:

"أريد أن أحرق بهام بهور!"

فكل ما له علاقة بالدنيا، يجب أن يفنى، حتى لا يبقى سوى البحث عن المحبوب.

ويمكن أن تُرى رحلة ساسي رحلة داخلية، تسعى إلى الظهور الخارجي. لذلك ما يشير الشاعر المحنك إليه بأشكال متعددة، أن المرء لا يجد المحبوب فقط بالتجوال في البلدان لكن بأن يجلس في مكان ما ساكنًا وأن يشوي نفسه، وهو ما يعني "أن يُطهر نفسه بالزهد والتأمل".

وأنشد العديد من المتصوفة عن الرحلة الداخلية، فعندما يختم مولانا الرومي عمله الضخم عن شعر الرحلة قائلا:

"إن كانت قدماك تنقصك للترحال
فاختر الطريق داخل نفسك
فمثل هذه الرحلة تجعل من هباء القمح ذهبا خالصا"

وهكذا يستلم عبد اللطيف شاه فكر السابقين عليه من العالم الفارسي، فسبقه بما يقرب من نصف قرن العطار في حديثه عن رحلة الثلاثين طائر إلى ملك الطيور ال"سيمورج" حيث يتعرفون على هويتهم مع رب الطيور في نهاية الرحلة المضنية، وبعد تجوال مرهق في الوديان السبعة، وفي عمله "مصيبة نامه" يصف الترحال الداخلي للروح أثناء الأربعين يومًا، أي فترة الاختبار والتي تنتهي بدورها بعثور الباحث على محبوبه الإلهي داخل بحر روحه. وما هي إلا رحاب الروح التي يتجول

الباحث فيها كما لخصها فيما بعد العطار بما يقرب القرن المتصوفُ المصريُ ابنُ عطاء الله قائلا :

"إن لم تكن رحاب الروح الواسعة
فلن توجد رحلة حقيقية للجوالين
فلا يوجد مسافة بينك وبينه
حتى ترتحل إليه
يحررك بوصولك"

أما ساسي التي ضلت في الصحراء تعلم تمامًا أنها قد كسرت قوانين الحب، لأنها استسلمت للنوم بدلا من السهر لحبيبها، لذلك فاتها أن تعقل نفسها (أي تربط نفسها) بركاب جِمال الزائرين في الساحة حتى لا تنسلّ منها صامتة.

"هلا عقدت ركبتيهم بشعرك
فما كان عليكِ أن تعاني تأرجح الأنمام"

وفي قفر الصحراء الحارقة ترتحل ساسي محملة بنارَين، نار النهار ونار آلام الفراق، فهي أشبه باليوجي (ممارس رياضة اليوجا) الجالس بين نيرانٍ أربع في شمس الصيف الحارقة، إحدى رياضاتها الروحية.

وفي "سور دسي" يضيف شاه عبد اللطيف قولين عربيين مناسبين:

"الرحلة قطعة من حطب جهنم" و"الحب نار أشعلها الله" وفي هذه المناسبة تتذكر ساسي كيف كانت تجلس على دولاب الغزل في بهام بهور، ولم تقو على الانتهاء من عملها لما سكبته عيناها من دموع الدم،

فلطخت الحجر والعجلة (دولاب الغزل). لذلك ألقت بالأحجار ودولاب الغزل، وانطلقت سعيًا في الطريق - "في طريق الله الوعر" كما سماه الرومي في إحدى المرات - بحثًا عن المحبوب. إلا أنها ارتَاعت، كيف تغوص الشمس(غاربة) ويضيع أملها في العثور على بونه قبل حلول الليل:

" قد غربت الشمس خلف الأشجار
والشفق أصبح أحمر قانيَ كالدم
آه! لقد صرعتني
أماه! لقد حل الليل
وغرُبت الشمس خلف الأشجار
ولطخت الشمس ظلال الشفق
الذي خطف مني حبيبي
عابرة سهول الجبال
قد غربت الشمس خلف الجبال
واحمرّ الشفق
آه! لقد صرعتني
فيّ الظلام يا أماه! "

إنها وحيدة لكنها تعلم أن صديقاتها وندمائها لن يقووا على القيام بمثل هذه الرحلة.

" لعل النديمات لا يرتحلن معي إلى الصحراء!
فالماء بعيد والطريق طويلة جدا

سهول دائمة وتراب وحجارة
وتموت من عذاب الظمأ
ويكيل لها الأقربون اللعنات!

كلا، إن نديمات القرية سيوبخونها، كيف لهم فهم أن الجميلة المرغوبة ساسي قد تخلت عن كل شيء حتى ترتحل في الصحارى والجبال بحثًا عن المحبوب المفقود؟ فهنّ لم يقابلن يومًا بهاء الجمال الأبدي ولا يعرفن الحب الغير المشروط.

" نعم، فلو رأوه رأي العين مثلي
لصرخن عاليًا "هيا ابحثي عنه!"
ولبعثرن أنفسهن في الجبال.
فهن لم يعاينّ الخليل
ولم تعرف أعصابهن التأنيب!
وإلا لانتحبن
مثلي
وعضضن الأيادي ندمًا!

ويكثر هذا الموضوع في الأدب الشعبي الصوفي، فقط "من عاين الجمال بعينه" يتسنى له فهم حال الروح العاشقة. كما ورد في "بودش نيراند شاه":

"هذه المرأة حائرة من دون السيد
تحقيقًا لرغبة محبوبها قضت يومَها باكية

لم يعها أب ولا أم
فمن أصابه ما أصابها هو القادر على فهمها "

وتعتبر ساسي إلى حد ما المعادل الأنثوي ل "المجنون" (أي مجنون ليلى) الذي هام على وجهه في الصحراء تفكرًا في ليلى، حتى وإن لم تبدُ ليلى للآخرين جذابة " إلا أن جمال ليلى لا يرى إلا بعيني المجنون" فحب ساسي لبونه قد وهب لحياتها معنىً فتهتف قائلة :

" ترحالي بحثًا عن بونه
هو فرحي الحقيقي "

وفي هذه الرحلة لا يعني الجسد شيئا، ومتاعُ الدنيا ما هو إلا عبء، فقط هؤلاء من يتركون متاع الدنيا وراءهم هم القادرون على سلوك الطريق، الذي وجب السير فيه عاريًا للوصول إلى الزهد. ومن يشكو تفاصيل حياته اليوم عليه البقاء في ضيعته فلن يرى أبدًا جمال الخليل "فليس كمثله شيء" كما يقول القرآن في (سورة الشورى آية ١١)﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ "وإن كان لك مئات الآلاف من الندماء، فلا تقارن أحدًا ببونه!" "فجمال النديم لا يقارن فهو كجلباب الأرض أخضر" و

" ملون ومصبوغ
هو الحبيب، كالحرير
فهو من تصبوا إليه الروح

فكيف ينساه أحد؟"

ويقول شاه عبد اللطيف مستعيراً إحدى الإشارات الشهيرة في التصوف الإسلامي أن الروح الشهوانية يجب أن تُضرب بخنجر "لا" عند نطقها من الحنجرة، وهي أولى حروف الشهادة "لا إله إلا الله" والتي تشبه في شكلها قليلا الخنجر الأعوج، لذلك يستخدمها الباحث في طعنه لكل شيء إلا من وجود الله، وكل ما يهدد الإنسان بإثنائه عن الله، يجب أن يُضحى به، حتى يكون بين عينيه واحدا فقط لا اثنين.

وبمثل هذه الأفكار ارتحلت ساسي عبر الجبال محمولةً من حبيبها

"حار هو يوم الحريق
ارتحل ثم ارتحل!
فالحب الأزلي قد ربطكِ بالبلوتشي
فاللهيب يحرق الحياة بطولها
فلا مكان يخلو من حريق العشق
اركض في الحر والبرد
فلا وقت للمكوث
فإن لم تستنهضك الظلمة
فلن ترى آثاره فيما بعد!"

ويبدو أن أحجار جبل بابب هي مهر ساسي الوحيد الذي قدمته لحبيبها.

وأحيانًا ما كابدت ساسي اليأس فالعاشق الحقيقي لا يأمل في الغد، فالصوفي الحق هو "ابن الوقت" ففي كل لحظة يخرج فيها من التسلسل

لبرهة، سيضرب بزمن الخلق من الآن الأبدي الزمني الإلهي. أفلم يبدأ مثنويّ الرومي بقوله:

" قول "غدا" لا ينتمي إلى شروط الطريق "

ويعود عبد اللطيف شاه بمستمعيه أو قارئيه الآن إلى الرومي في وصف آخر لساسي الشاكية، في قوله إنها كالناي الذي يئنّ تحت وطأة فراق حبيبه. إنه الناي الذي يقول عنه الرومي في أبياته الأولى من المثنوي:

" استمع إلى الناي، كيف يبث آلام الفراق
فمنذ أن اقتطع من وطنه البوص
يبكي العالمَ بأكمله مع نغماتي "

وهكذا كما يئنّ هذا الناي، تئن ساسي متذكرة تلك الأوقات التي كانت فيها بصحبة حبيبها، وأحيانًا ما توبخ ساسي الجبال كونها قاسية وقد أدمت قدميها، وأحيان أخرى تبدو لها الجبال عطوفة لأن الحبيب ارتحل خلالها إلا أنه لم ير أحدًا مثل هذا الدغل الذي يخلو من الماء وتزحف فيه الحيات الزرقاء والطيور الحائرة، فكل جبل فيه كالفيل في قوته وعظمته، وبالفعل قد واسى القرآن الروح الباحثة بقوله "صبر جميل" سورة يوسف٢ آية ١٨ ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ وأحيانًا ما يعتري تلك الروح الشكَ حيث لا ترى لهذه المعاناة نهاية، فتأمل لو أن الفراق من الحبيب لم يكن مكتوبًا باللوح المحفوظ حتى يمكن تغييره:

" هل كنتَ على علمٍ
أن الفراق سيمزقني
لعلي محوت مكتوب القدر من اللوح المحفوظ
كيف لي أن أعرف
أن الألم في الطريق أبدي "
إلا أنه ما من مخرج :
" حيثما سُطرت الساعات الكثيرة على لوح القدر، فعليها المضي "

ومن كتب له القدر أن عليه البحث، فإنه يضع قدميه على أوعر الطرق دون راحة :

" ففي مثل هذه الطرق
قد سارت ساسي
حيث فقد فيه الأبطال حياتهم!
فمن أجل الحب تُضحي الشواهق سهولا! "

ربما يكون هذا صحيحًا، وبالرغم من الشك إلا أن الروح تنادي حبيبها آملة أن تراه وأن تتنسم من نفس حياته فهي متعبة ومضطربة. وعندما تعني سماع نباح كلاب "كتش" القافلة، تمصمص العظم، تعني أن " يأكل الباحث الحق " ، والبطل الشاب المغوار "كبده" أي أنه يعاني في صمت. وهكذا كانت ساسي قد تأهبت أن تنهش لحم كتفيها وتُلقيه للسباع والغربان.

" آه! أتريد غربان "كتش" أن تنهش لحمي وتفترسه "

فالغربان هي طيور مرسلة تستصرخها العاشقة
"يا غربان أرسليه سلامي
وخري عند قدم المحبوب
ولا تنسوا الرسالة التي بعثكم بها
لا تنسوها في الطريق"

وكان من المحبب إلى ساسي أن تقدم قلبها كطعام إلى غربان "كتش"، نعم كان للطيور أيضًا أن تفتك بجسدها كله إلا عينيها "لأنها قد رأت المحبوب"، وبذلك قد نالتا القداسة. الآن هذا أيضًا لا يمثل الطاعة الكاملة! فلقد كان لساسي أيضًا أن تقلع عينيها وتُلقي بهما كطعام للغربان، فهي ليست بحاجة لبصرها بعد أن رأت المحبوب؟ كلا، فالمرء لم يعد يحتاج لهما، إذا ما رأى المرء الحبيب بعيني الروح (والمرء هنا تعبير في الفارسية ـ التركية" يصبح غيورًا من عينيه). أفليست العيون الدنيوية حجابًا بين الروح والمحبوب فهي كالشيء الغريب الذي لم يعد المرء في حاجة إليه. وكما قال الزهاد في بواكير التصوف "البكائون، من سكبوا دموعهم" من الأفضل أن يفقدوا بصرهم من البكاء فهو خير لهم من الرؤية، حتى ترى العين الداخلية جمالَ الحبيب. وقد برزت وتبلورت هذه الفكرة عند أحمد الغزالي. ودومًا ما يعود إلى وصف الحال البائس للروح العاشقة. وتتسلق ساسي بشكوكها على الأشجار كي تكون طعامًا للكواسر، إذا ما تسلقت العقد أو المشانق المدلاة من الأشجار. "فالمشانق هي سرير العروس" كما تغنّى عبد اللطيف شاه بالشهيد المتصوف الحلاج الذي اتحد مع الحبيب بموته، ومن ثم عُرف عند

الصوفية بشهيد الحب الإلهي وأصبح مثالا للتعجب. كذلك أصبحت ساسي شهيدة الحب مثلما سأل رفيقُ الحلاج اللهَ في الحلم لماذا ترك عاشقا ودوداً كبيراً كالحلاج يُقتل. فتلقى الإجابة "من قتله حبي، فأنا أو (بهائي) فداء له"

وهذه العبارات يسقطها شاه عبد اللطيف على ساسي ليضعها بذلك في مصاف "رجال الله"، ممن تعذبوا حبا وكرامة للمحبوب.

ودومًا ما تسقط ساسي خائرة القوى. ودواءها الوحيد هو المحبوب. فلقد ضُحي بها مثل الظبية الصغيرة، إلا أنها بهذه التضحية قد أضحت "قربان" وتأمل بدورها أن تكون "قريبانى" أي تقترب منه. فهي تعلم أن مرشدها الروحي (والذي ينظر إليه عادة بكونه المحبوب الإلهي) "يطبخ و يخبز" الباحث عنه، وعندما ينضج الخليط، يُريه فضله. وهنا تظهر آثار شعر الرومي، فموضوع "الطبخ" محوري في شعره، حتى قبل أن يوضح Levy Strauss[٢٩٦] التضاد بين "الغير مطبوخ والمطبوخ" فنار العشق تترك الباحث ينضج:

"النار تُنضج الطبخ "بأغاني الفراق"

وهذا هو ما يحرره من النفاق"

---

٢٩٦ (١٩٠٨ - ٢٠٠٩) عالم إثنولوجي فرنسي يعتبر مؤسس علم الإثنولوجيا البنوية والإثنولوجيا الاجتماعية، من أبرز أعماله "التحليل البنيوي لنظام القرابة"، "الأنثربولوجى وعلم الثقافة"، "نقد العقل" و"تحليل الأساطير".

وهكذا يرد في قصة الرومي عن العاشق، الذي ما زال يقول في حضرة المحبوب "أنا" . إلا أن أحد أشهر تيمات الطبخ عند الرومي هي بلا شك "الحمص" الذي لا يؤكل إلا بالطبخ ويصبح مؤهلا لطعام البشر، ومن ثم تصبح جزءا من ذاتهم، حتى إن حاولت أن تقفز من نار الطبخ هربًا من الألم. وعلى الإنسان أن يصبح كسرات حلوة من أجل الحب. لذلك كان على ساسي أن تعاني الآلام لمدة طويلة حتى تصبح "مطبوخة" ، فقبل أن تصل إلى المحبوب عليها أن تنضج بما فيه الكفاية، وأن "تخلي نفسها" من كل ما هو دنيوي.

ويرمز شاه عبد اللطيف إلى آلام الباحث بصورة أخرى قائلا:

"فهو يداخله بأدوات التصبيغ
ثم يضعه في اللون"

وما يقصده شاه عبد اللطيف أن الحبيب الإلهي يطهر العاشق من كل ما يربطه بعالم الدنيا الملون (الزخرفي)، وهذا التطهير لا يحدث إلا من خلال مواد التصبيغ الكاوية، ويُغمس الإنسان في "صبغة الله"

سورة البقرة آية ١٣٨ ﴿صِبْغَةَ اللَّه وَمَنْ أَحْسَنُ منَ اللَّه صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ والتي تمثل للمتصوفة والشعراء اللونَ الصمدي لوحدة الإلهي

"الله رب الألوان
والوجود جميع الألوان"

فتارة يظهر المحبوب (وهو في هذا السياق المرشد الروحي النائب عن الله) كالغسّال أو (المغسل) الذي يسيء التعامل مع الغسيل بشكل بالغ، كي يطهره، ومن يلاحظ الغسالات الهندية المعروفة ب "الدهوبي" وهن يضربن الغسيل بقوة على حجر الغسيل، كما لو كن سيكسرنه، سيفهم ذلك التشبيه جيداً.

فالعاشق على علم بأنّ كل ألوان العذاب التي ابتلاه بها المحبوب ما هي إلا لتنقيته، وهو بدوره يتعامل معها كمصدر للفرح: لذلك لا ترغب ساسي في التجوال مدى الحياة. فطالما يبحث العاشق عن محبوبه، فإنه يحمله في قلبه، وعندما يعثر عليه يراه الباحث بعينيه، ويكون كما تعلم الروح العاشقة أنه "عائق" كما يقول الشاعر إليوت في قصيدته "إن ألم الحب الأعظم قد اكتمل" T.S.Eliot[٢٩٧]

"ولذلك تنشد ساسي:
من يرجو، سيلقى
وسيرى المحبوب
ومن يبحث، سيدخل في رحاب المعجزات
أنت يا من تبحث، امضِ قدمًا
فهذا ليس بحثًا دنيويًا
فالحبيب ليس ببعيد
عن قلب الباحث السالك.

---

٢٩٧ (١٨٨٨ ـ ١٩٦٥) شاعر أمريكي حصل على جائزة نوبل الأدبية عام ١٩٤٨ كما كانت له كتابات مسرحية ونقد أدبي.

فما أريد سوى البحث، فقط البحث
آه! حتى إنني لا أود أن أصل إلى المحبوب
لعل قلق الروح لا نهاية له !
فما أريده هو البحث فقط دون العثور
فقد ارتحل الشركاء في الأزمنة الأولى حاملين
أوزارهم، وماضين بها بعيدا إلى اليابسة
أما أنا فأبحث لعلي لا أجد!
يا محبوب أنت بعيد!
لعل قلبي لا يجد الراحة
وألا يجد جسدي العزاء!
أبحث ولعلي لا أجد!
فتُستجاب لصلوات العاشق!
في هذا الحب يا محبوب
يوجد هلاك حياتي
فقط في يوم الحساب لعلي أحظى برضىً تام!

وعلى ما يبدو فإن الطريق نفسه هو الهدف. فالاشتياق اللانهائي هو ما يبحث عنه الإنسان، ينتهي ربما فقط بالموت، حتى لو كان المتصوفة على علم بأنه عندما يعثر الإنسان على المحبوب الإلهي تبدأ رحلة أخرى، رحلة لا توصف في أعماق الله اللانهائية.

ويعلّم شاه عبد اللطيف بطلته شعار الصوفية القديم: "موتوا قبل أن تموتوا"، فعليها أن تدرك أن "من يموتون قبل أن يموتوا، لا يموتون

عند الموت" . فمن يمت نفسه يوميا ويقدم نفسه كأضحية، ويمت شهواته الدنيئة في جهاد مقدس كبير، مترفعًا عن رغباته الدنيا، على غرار ساسي التي تركت "بهام بهور" (أي مدينتها والمقصود بها الدنيا) حتى تتبع آثار المحبوب، هو الذي سيستقبل المجد في الحياة الأبدية.

ويبدو أنه لا نهاية لطريق ساسي. فأحيانًا ما تكون مرهقة جداً، وتشارك معها الطبيعة في معاناتها، فالطيور تئن من الغم، وحتى السباع تموت صريعة الهم، مما تتحمله العاشقة الجسورة، حتى إن الصحراء لتبكي. فكيف لهذا أن يتحمله بشر؟

ولم تكن ساسي قادرة على تحمل هذا العذاب، وأن تكون سعيدة بهذا الشكل في بحثها، إن لم يكن بونه نفسه أيضًا يشتاق إليها. ففي أحد أبيات الرومي في المثنوي (الجزء الأول بيت ١٧٠٤)[٢٩٨] والتي ترجمها عبد اللطيف شاه حرفيًا، تشير إلى "أعمق أسرار الحب بين الإنسان والله" :

"إن من يظمأ للماء
يظمأ له الماء أيضًا"

ألم يُلق الله الحبَّ في قلب الإنسان لأنه يحبه، وبهذا لا يقوى الإنسان على تخطي طريق الحب، وهكذا يفسر الصوفية سورة المائدة آية ٥٩ ﴿يا

٢٩٨ وردت تحت قصة "سماع ذلك الببغاء ما فعله الآخر وموته في قفصه ونواح السيد عليه" في الأبيات التالية : "وكل من تراه عاشقا، اعلم أنه معشوق، والأمر نسبي لهذا وذاك ـ وإن كان الظامئون يبحثون عن الماء في الدنيا، فإن الماء يبحث عنهم أيضًا في الدنيا" ، وما يقصده هنا هو أن العشق شعور متبادل "يحبهم ويحبونه" كما ورد في الحديث القدسي: " ألا طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا أشد شوقا لهم" .

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[299] "يحبهم ويحبونه"، فمن دون شرط الحب من السيد الإلهي لن تكون الروح أبدًا قادرة على الحب.

وامتثالا لرغبة المحبوب يعد الارتحال الى الجبال غير ضروري، فالجسد نفسه هو الدغل. وتقريبًا في آخر الفصل الهام في قصة (دورة حياة ساسي) في فصل "ابرى" يتناول شاه عبد اللطيف مرة أخرى موضوع الرحلة الداخلية. حين تنجح الباحثة في إزاحة حجاب النفس، وبذلك تجد نظرة في قلب المحبوب، فالعاشق والمعشوق ما هما إلا واحد:

"فمن عرف نفسه، فقد عرف بونه"

ويستعيرالشاعر قولا عربيا شهيرا محببا في دوائر الصوفية لكن بتصرف هو "من عرف نفسه فقد عرف ربه" بل يقول أيضًا إنه سيصبح هو نفسه سيده المحبوب.

وعندما يعتري المحبوبة الضعف وقلة الحيلة، وبعد أن تحرقها الشمس والرياح اللافحة، وبعد أن يتبقى لها خطوات على الاقتراب من الحبيب، يظهر لها ملك الموت كمرسال من الحبيب، وتعلم أن "كونها في الطريق إلى الموت نعمة كبيرة".

---

٢٩٩ يبدو أن المؤلفة قد أخطأت في رقم الآية فالمقصود هي آية ٥٤ وليس ٥٩

ألم يكرر المتصوفة الأوائل عن الموت القول "إنه يقرب العاشق من المحبوب؟" فطالما أرهق الرومي أن يعيد على مستمعيه بألا يحزنوا وألا يئنوا عندما يُوارى جثمانه الثرى:

"فلي خلف الحجاب وصول مبارك ينتظرني"

فيوم الموت عند المؤمنين "عرس"، تتحد فيه الروح التي أضناها البحث مع المحبوب:

"آه يا جميلة ستأتي إلى بونه بعد الموت"
ويعزي شاه عبد اللطيف باحثته:

ربما يعد هذا من أكثر المشاهد المؤثرة في قصة ساسي بكاملها، حين يعبر شاه عبد اللطيف في نهاية فصل "سور ماعدورى" الباحثة تستشعر قرب الموت وتعلم أنها منذ مئات الأيام قد فُصلت عن حبيبها. وهنا تتغنى مرة أخرى بحبها، وهي أغنية يملأها حتى آخرها الحب. فهي قد وصلت إلى هدف الباحث الصوفي وأضحت هي نفسها حبا خالصا. ومثل هذا الحب لا يعرف فراقًا بين العاشق والمعشوق، لكنه يوحد الاثنين في اتحاد جديد. فالإنسانية بأكملها قد غُطيت بالإلهي، فالحب هو ذات الله العميقة. وقد فسر كبار مفكري الصوفية مثل حامد الغزالي وعين قذات الحمداني[٣٠٠] وروزبهان الباقلي[٣٠١] وكل متصوفة الحب في العصور الوسطى نفس ما قاله الشاعر السندي بشكل مبسط:

---

٣٠٠ هو أبو المعالي عبد الله بن أبي بكر محمد ميالجي المشهور بعين القضاة همذاني: (١٩٠٨ ـ ١١٣١) واسمه بالعربية يعني "عين القضاة" أي كبير القضاة وأهمهم، وذلك لعلمه

تجوال الروح العاشقة في نهاية ترحالها، عندما تكون فقط الحب:

' آه يا صوتًا في البرية :
كما لو كان الوقواق يصرخ!
المعاناة واليأس هما ويلات الحب!

---

كقاض ومشرع ومتصوف وفيلسوف ورياضي وشاعر، ينتمي إلى عائلة من قضاة مدينة همذان في إيران وكان تلميذاً لأحمد الغزالي الأخ الصغير للشيخ الكبير الغزالي، وتأثر بكتابه "سوانح" ويعني "خواطر عن الحب"، وألف بدوره كتاب " لوائح" ويقصد به " الإشراقات أو اللمعات" كما له كتاب "تمهيدات" ويعني به "كشف السر الأعظم عن الحب"، ويعد الكتاب الأكثر قراءة بين متصوفة الهند. اتهم بالهرطقة، ومثل أمام محاكمة في بغداد أعدم على إثرها في مسقط رأسه همذان عن عمر يناهز ٣٣ عاما، ربما بسبب نزقه واصطدامه مع خليفة بغداد في تلك الفترة كان إعدامه، يُعرف إلى جانب منصور الحلاج وشهاب الدين السروردي بشهداء الصوفية الثلاث. ترك أدبا دفاعيا قبل وفاته يشرح فيه وجهة نظره لكن قلما يلمس أي شعور بالذنب من جانبه بسبب أي هرطقة اتهم بها. من شعره ' ارتشفت من العشق كأسًا بعد كأس .. فما انتهى الشراب وما انتهى ظمأي'.

٣٠١ روزبهان الباقلي: (١١٢٨ - ١٢٠٩) شاعر إيراني ومتصوف من فاسا، ولد في عائلة تنتمي إلى الأسرة الديلمية، تلقى تجلياته الإلهية ما بين عمر الثلاث عشر والخمسة عشر. بدأ يصف تلك التجليات في عامه الخامس عشر ووصفها كما لو كانت أحلاما أو نشوة قوية، وكشف تلك الأسرار جعله يترك مهنته كبقال ويلجأ إلى الصحراء(حيث الباقلي لقب يشير إلى مهنته وهو العمل في البقالة)، قضى ما يقرب من عام ونصف في الصحراء حيث عاش تجاربه الروحية، وبعد أن ترك الصحراء دخل مريداً في إحدى الطرق الصوفية. ينتمي إلى سلسلة ابن شفيف في شيراز حيث تُوفي، قضى عمره في السفر والترحال ما بين سوريا والعراق وكرمان والحجاز حيث حج مرتين. حرص على تسجيل كل تجاربه الدينية ومشاهداته بشكل بلاغي. كتبهم بالعربية والفارسية، دافع عن تجليات سابقيه "الشطحات" في عمل يعرف باسم" شرح الشطحيات" ومن أعماله "كشف الأسرار"، ويعد أعظمهم لغة شعرية "أبهار العاشقين" أي " ياسمين مخلصي العشق" كما ترجمه هنري كوربن، لم يرد اسمه كثيرا بين المتصوفة اللاحقين عليه نظرا لصعوبة نصوصه إلا أن جامي قام بشرح وتعليق على بعض أعماله في القرن الخامس عشر.

آه يا صوتًا في البرية :
لعله ببغاء صغير يبوح بأنين الاشتياق، إنها ويلات الحب!
آه يا صوتًا في البرية :
كما لو كان أوز يصرخ من أعماق الماء، إنها ويلات الحب!
آه يا صوتًا في البرية :
لعله صوت الكمان يئن مغنيًا
فيحسبه الورى أنين امرأة!

## الفصل الحادي عشر

# سوني وميحوال

تنتمي قصة ساسي "التي تموت في الترحال" إلى تراث البنجاب والسند مثلما تنتمي قصة سوني "التي تموت غرقا" إلى نفس التراث. فأصل القصة من نهر "تشيناب" إلا أن عبد اللطيف شاه أعاد صياغتها في قصة سندية.

في أثناء عودة الإقطاعي الثري ميحوال أو "ميهار" من إحدى الرحلات توقف عند قرية صناع الفخار، ويقع في غرام سوني إحدى بنات كبير صانعي الفخار، ويشتري بكل ثروته بضاعة الفخار لكي يبقى بالقرب من سوني، ومن ثم يعرض نفسه كراعي بقر عند والد سوني. عندئذ يتم تزويج الفتاة فوراً برجل لا تحبه فتسبح كل ليلة ضد التيار حتى الجزيرة حيث يرعى ميحوال البقر مستخدمة قدرا كبيراً من الفخار المحروق كعوامة لها، إلى أن شكت سلفتها في أمرها وأبدلت بعد فترة القدر بقدر آخر من فخار غير محروق، الذي تحلل بدوره في المياه حتى غرقت سوني. وهنا تظهر البطلة كالمرأة العاشقة، التي هي العنصر الفعال في القصة.

هذه العاصفة الراعدة أو هذا الجدول الوعر الذي ينتزع من الإنسان كل شيء هي تيمة قديمة في الشعر الشرقي، إلا أنه في البنجاب والسند حيث تغرق السيول الصيفية الأرض بعد ذوبان الجليد في الهملايا و كاراكوم تصبح هذه التيمة موضوعًا حاضرًا.

لذلك يستهل عبد اللطيف شاه سرده بالحديث عن أجواء القصة، أي عن العاصفة والماء. ففي خضم العاصفة الهادرة كل ما تصبو إليه الروح العاشقة هو الغوص كليًا في الوحدة الأبدية أي النزول في الماء واكتساب حياة جديدة حتى لو كان الطريق إلى هناك يؤدي إلى الموت.

"سريعة هي الرياح، وقوي هو التيار، إلا أنه حيثما يوجد الحب يضعف التيار

ومن لديه الحب العميق، لا يحلم إلا بالوصل"

وتفكر سوني إذا ما كان للمرء أن يقاوم قوة الحب فكان على نديمات ميهار (الاسم الآخر للبطلة) أيضًا أن يروا وأن يتمسكوا بالإناء الفخاري حتى يصلوا إليه سباحة، مثلما ظنت ذلك ساسي من صديقاتها، أما سوني فقد واساها الشعراء بكلماتهم حيث كان موضوعًا محببًا في دوائر الصوفية الهندية منذ القرن ١٣ من يبحث عن الرب، هو رجل وهكذا تصبح أيضًا سوني بصرف النظر عن جنسها الحقيقي رجل الله.

وفي خضم العاصفة قد تعاني الروح شيئًا من خيبة الأمل والفشل، إلا أن شاه عبد اللطيف يذكرها بالآية القرآنية "ولا تيأسوا من روح الله" سورة الزمر آية ٦٢، وعندما تُكسر أوانيكم الفخارية التي كانت تقلكم فلهذا معنى

عميق، فهذا الكسر يعد تعبيراً عن الانقطاع من كل الأسباب الثانوية، وكل الشروط الدنيوية. ويأتي ذلك في الفكر الإسلامي الصوفي بشكل عام، وتظهر آلاف الأمثلة في الشعر الهندي الفارسي والأردي المسطور من القرن ١٦ حتى القرن ١٩ خصوصاً في استخدام لفظة "شيكاست" أي "كسر" فيصرخ غالب (شاعر هندي مشهور من القرن ١٨)[٣٠٢] قائلا:

" أنا أنين كسر نفسي "

---

٣٠٢ هو ميرزا أسد الله بك خان: (١٧٩٧ ـ ١٨٦٩) من أعظم شعراء الهند في القرن الثامن عشر، عاصر أفول حكم المغول في الهند على يد الاستعمار البريطاني، كتب شعره بالأردية والفارسية، اعتاد أن يوقع شعره باسم " غالب" على القصائد الفارسية وباسم "أسد" على الأردية. تنتمي عائلته لأبيه من الترك السلاجقة التي نزحت من سمرقند إلى الهند بينما أمه كشميرية. لم يكن سعيداً في زواجه وحياته الشخصية بشكل عام، وهو موضوع يظهر بين الحين والآخر بشعره . للأسف تُوفي أولاده في سن صغيرة مما ترك أثرا غائرا في نفسه وشعره، إلا أن هناك خلافا على سلوكه وتدينه، فالسمة الغالبة عليه أنه كان رجلا تقيا ورعا رغم علاقته المضطربة مع زوجته إلا أنه وقع في فخ القمار والمجازفات المالية وتباهى في شعره أن الشاعر يجب "أن يكون له حظ من النبيذ والقمار، وأن يضرب من قباب الخليلات، وأن ينظر إلى الدنيا من خلف قضبان السجن". درس الفارسية والشعر والمنطق على يد أحد الرحالة الإيرانيين ويدعى "عبدوس صمد" وكان زرادشتيا، سطرغالب بالفعل قصائد فارسية إلا أنها لم تنل شهرة واسعة كالغزليات التي كتبها بالأردية، حيث انتقل بالغزل من التعبير عن الحب التقليدي إلى فضاء أوسع عبر به عن موضوعات فلسفية، وأسرار الحياة والعشق. ومن أشهر أعماله أيضاً "الرسائل" الأردية التي كانت فنا قائما بذاته كتبت بأردية بسيطة بتخيل فيها القارئ ويخاطبه مباشرة وتتميز بأنها غير مقيدة بشكل رسمي، ولكن صيغت بأسلوب حر. لجأ إليه المفكر الإسلامي الكبير سير سيد أحمد خان صاحب كتاب "روح الإسلام"، و"مكانة المرأة في التشريع الإسلامي"، بعد الانتهاء من أحد كتبه وطلب منه أن ينقده في "شعر تقريظ" فعاب عليه أنه أضاع موهبته ووقته على دراسة الموتى. . تميز شعره الصوفي بالتحرر والخروج من تفسيرات الإسلام الضيقة، فمن أبياته "أن معبودي محال الوصول إليه لمن لا يرى في الكعبة إلا قبلة للصلاة". عاب على رجال الدين في عصره كثيرا لما تميزوا به من جهل مطبق وكبر. ولا يزال أدب وغزليات غالب حتى الآن حية تغنى من الجميع كل حسب فهمه وروحه.

أن تكون مكسوراً هو شرط البداية الجديدة. قد أشار مولانا الرومي في بعض أبياته التي ربما استوحاها منه عبد اللطيف شاه حين يتغنى بالمركب الضعيف "والمقصود به هنا الإنسان" حينما يتحطم عندما ترد على ذكره خاطرة "ألست"، والمقصود به الخطاب الإلهي للبشرية في عقده الأزلي مع البشر، وهو خطاب يجعل القلب يفيض عندما يتذكره. كيف أن الخالق خاطب الإنسان في باكر الأزمنة " ألست بربكم" سورة الإسراء آية ١٧٢﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾. فعندما يتذكر الإنسان فجأة رابطته الأزلية مع الله، مع المحبوب يذوب ويعود في لحظة مباركة إلى تلك الحال "حيث يكون كما كان قبل أن يكون". كما عبر بذلك الجنيد[٣٠٣] أحد أوائل متصوفة بغداد (المتوفى عام ١٩١٠) لذلك كان على إناء سوني الفخاري أن ينكسر حتى لا تكون منفصلة عن المحبوب برباط دنيوي:

"لا تحضر نفسك معك
واذهب خاليا من الوسيلة الظاهرية
فالمحبوب يخص فقط
من يقودهم الحب"

---

٣٠٣ هو الجنيد البغدادي من فارس إلا أنه درس في بغداد، إحدى أيقونات التصوف في السلسلة الصوفية، مثله مثل الحسن البصرى نال احترام تلامذته وتبجيل متصوفة آخرين له، بسبب إسهاماته في مجال عقائد التصوف، اشتهر بأقواله وحكمه، ومن أشهر أعماله رسائل الجنيد التي تبلغ ما يقرب من ٣١ رسالة.

ويعبر الفصل الأول عن نوع النغمة بشكل ما، وينتهي بأغنية مفعمة بالعزاء وشد الأزر التي توعد فيها سوني بأن هؤلاء العطشى إلى الحب سيرتوون أخيرا من "نبيذ خالص" (سورة الإنسان آية ٢١) وهو ما وعد الله به المؤمنين في الجنة، حاوية ممتلئة بالنعمة والحب الإلهي. وهنا يبدأ السرد الحقيقي كما اعتاد شاه عبد اللطيف أن يبدأ بلحظة درامية تنتبه فيها سوني أن الإناء يذوب وأنها لا تقوى على المضي في السباحة. وهنا تنادي على محبوبها البعيد بشك، والذي يسمى هنا وكذلك في مواضع أخرى بـ "ساهار" ( فالحبيب في مثل هذه القصص دومًا ما يعرف بأسماء مختلفة أفليس للمحبوب الإلهي "الأسماء الحسنى" ):

" في خضم فيضان النهر الرهيب
حيث يبتلع صرخات الهلع
في وسط تلك القوى المعادية
إلى أين يذهب الإناء الفخاري؟
آه يا "ساهار" يا رب، يا ماكر
كم أنا تائهة في الطريق!
في خضم فيضان النهر الرهيب
حيث التماسيح القوية
في العاصفة
كم هم كثيرون
قد خلا جسدي من القوة
مفصولة عنك، آه يا ندمائي

يا ساهار! يا إقطاعيًا!
دعني يا نبيل أصلْ إلى مقصد الرحلة
في خضم فيضان النهر الرهيب
حين تزأر الدوامات وتنشد
وأنا بين الوحوش المتربصة
ومن الأعداء محاطة
كن خيّرا يا حبيب! وخذ بيدي حبًا وكرامة
مد يدَك من الأعالي
وأغثني من الهاوية!

إلا أن هذا الشك الذي يعتور سوني، حين تعاني على ما يبدو هجر الله، سرعان ما يمر. فهي تعلم أنه من اللاأخلاقي أن يترك الشريك شريكه الشرعي لكي يسرع للحبيب، فطبقًا للقانون (الشريعة) وللتصور الطبيعي للأخلاق يعتبر خطيئة (ويمكن أن تثير تلك الأغنية فكر المستمعين الأرثوذوكس بسبب هذا الموقف الغير شرعي الذي تتسبب فيه بعض التعبيرات الخائنة) ألا يندرج تحت مسمى الحب ألا يكترث الإنسان بكل الروابط الدنيوية وبكل التصرفات "الاعتيادية". وأن يغض الطرف عن توبيخ العامة، "فالحب هو التخلي عن العار" كما ورد في المآثر الصوفية، وهكذا تتغنى سوني على لسان شاه عبد اللطيف:

"العقل والدين والعار

كل من الثلاثة كفيل بإفناء الحب"

فالعاشق أي الروح العاشقة لا تقع تحت طائلة قوالب الأشكال الخارجية فقد عبر مولانا الرومي عن آلام العشق الصوفي للدرويش السائح شمس التبريزي الذي نزعه من الحياة الرتيبة كأستاذ وكأب لعائلة، فاعتاد أن يتغنى كيف أنه بدلا من أنْ يتوجه إلى العلم والتقوى أضحى يتوجه إلى الرقص والموسيقى والشعر.

ولم تلاحظ سوني المستسلمة للحب العاصفة التي أفزعتها:

"فمن يسعى إلى ساهار
لا يسعى إلى الألوان والغنائم
ومن يتعطش للحب
ما الأنهار له إلا درج"

يمدح شاه عبد اللطيف المرأة الجسور، والتي تُدعى هنا "تودي"، فهي تستحق التكريم أكثر من الآخرين جميعًا، لأنها وضعت الألف بجانب الميم في القلب، والألف أول حروف الأبجدية والرقم الذي يشير إلى الواحد، فهو الحرف الذي يضم حكمة العوالم وحكمة كتب التجلي الأربعة، كما ردد الصوفية شرقا وغربا، لعل حافظ (أي حافظ الشيرازي)[٣٠٤] هو من استنتج أن ما على لوح القلب العاشق هو شكل

---

٣٠٤ هو خواجة شمس الدين حافظ الشيرازي: (١٣٢٥ ـ ١٣٩٠) عرف بالاسم الذي اعتاد أن يوقع به قصائده وهو "حافظ" نظرا لحفظه القرآن في سن مبكرة بجانب مثنوي مولانا الرومي، وأدبيات كل من سعدي، ونظامي وفريد الدين، تعد أشعاره وديوانه قمة الأدب الفارسي الصوفي، ترك إرثه الشعري أثرا عميقا في الشعراء التالين بالقرن الرابع عشر وحتى الآن، ما زالت أقواله وأمثلته حية في نفوس الشعب الإيراني، ولعل من أشهر أعماله هي "الغزليات" أي أدب الغزل، اشتهر بالتغني بالنبيذ والحب في أشعاره ربما لأن مدينته

حرف الألف، وهو ما عبر عنه يونس إمرة[٣٠٥] (المتوفى عام ١٣٢١) كما عبر عنها المتصوفة في الهند وباكستان:

"معنى الأربع كتب يكمن في حرف الألف"

أو ما يتضرع به شعراء العامة في السند والبنجاب:

"يا ملا لا تضربني"

لأنهم تعلموا فقط الحرف الأول من الأبجدية الألف. أما الميم فهي مرتبطة باسم محمد النبي، واسمه في السماء أحمد، وربما يشير شاه عبد اللطيف إلى قول مشهور خارج القرآن كان يُردد منذ أواخر القران ١٢ في الأجزاء الشرقية من العالم الإسلامي وهو قول الله "أنا أحمد بلا ميم" ما يعني "أحد" فقط حرف واحد يفصل بين الله ورسوله، وذلك لأن القيمة العددية لحرف الميم هي الأربعون، فربما هذه القيمة العددية تشير إلى

---

(شيراز) عرفت أيضًا بكونها مسقط رأس الشعراء والنبيذ الجيد. استُوحي من أشعاره الكثير من الفن والموسيقى حتى يومنا هذا. حكيت الكثير من الأساطير حوله إلا أن أهمها هو خلو الأربعين يومًا التي أمضاها جالسًا في دائرة رسمها لنفسه خبر فيها "الوعي الكوني".

٣٠٥ يونس إمرة (١٢٤٩ ـ ١٣٢١): هو شاعر أناضولي متصوف كان مريدًا في الطريقة البكتاشية، يعتبر مؤسس الشعر الصوفي الشعبي في الأدب التركي، ويدخل شعره في التعليم الثانوي حتى الآن في المدارس التركية، وندين بالفضل إلى الطريقة البكتاشية في إدخال أشعاره أو فكرة التغني بالشعر الصوفي عمومًا، كما طبعت أشعاره الاتجاه الإنساني في شعر الأناضول، وجمعت أشعاره تحت ديوان مسمى "الإلهي"، تأثر شعره بالفلسفة الأفلاطونية المحدثة. يقدره أتباع الطائفة العلوية حتى وإن لم يكن شيعيا أو علويا، كان شيخه البكتاشي "عارف مستنير" على خلاف مع أصحاب الإسلام السني (التقليدي)، كان من المتصوفة القلندر، وهي طائفة من الصوفية اتخذت أسلوبا أشبه بالهيبيز في عصرنا الحالي، وهي طائفة امتدت من وسط آسيا حتى المغرب في القرن الثالث عشر.

الأربعين مرحلة، التي تفصل الإنسان عن الله. و٤٠ يشير أيضًا إلى مدة الأربعين يوما أي مدة الاختبار، التي يمضيها الدرويش للتطهر(الخلوة)، وعمومًا هي أيضًا رقم الصبر والاستمرارية والتأهب لمرحلة جديدة وزمن أفضل.

ومن خلال تقديم مثل هذه الألغاز عن الحروف (مثل حرفي الألف والميم) تعتبر سوني بحق مجسدة لروح الصوفي الحقة، وعليها دومًا التذكر أن طريق الباحث عن الشريعة، ذلك الطريق الرحب لقوانين الدين، التي على كل المسلمين انتهاجها، والطريقة، أي الطريق الصوفي التي تقود إلى المعرفة ومن ثم إلى الحقيقة الإلهية كما هو مأمول. فالروح العاشقة تطمح إلى معرفة غير محجوبة (كلية)، أي إلى رؤية المحبوب الروحية. فتصبح إذن في "العتق" أي حلت في حضرة الحاكم، حيث تتوج المعاينة بكل مهابة وجلال، ومن ثم تصبح الروح متمرسة في فضيلتين تضبط كل منهما الأخرى وهي "الصبر" و"الشكر" إلا أنه ما من صوت يصدر منها، فسر وصل الحب لا ينبغي أن يُكشف تحت أي ظرف من الظروف.

سوني هنا المقصود بها الروح التي تعلم كل هذا، وعليها أن تمضي في طريقها، في خضم العاصفة، وعليها السير قدمًا في طريق مفعم ببذل النفس. لذلك يصرخ الشاعر قائلا:

" الغضب لم يثن سوني
فمضت قدما تقودها العجلة
أي أم مسكينة وضعت هذا الطفل
لكي تمجد نفسها

فلو رأيت أباها فما لك إلا أن تحبيه"

فكيف لها أن تشطاط غضبًا؟ و"ميهار ساكن قلبها ليلا ونهارا" فبينما تستحم الفتيات الأخريات بماء بارد في يوم صيفي حار، تُلقي سوني بنفسها في صقيع المياه في ليالي الشتاء.

وترجم شاه عبد اللطيف زفرات وآهات سوني في شعره: إن صوت رنين أجراس البقر يذكرها دومًا بمحبوبها (ولعل على المرء هنا الوقوف مليا على تشبيه النبي محمد لصوت الوحي الذي سمعه بصوت جرس، فالأجراس تعلن عن الحبيب).

وتبقى الباحثة على قيد الحياة فقط من خلال تفكرها الدائم في الخليل فتذكر (ذكر) المحبوب الإلهي يبقى الروح يقظة، كما يخبرنا بذلك الصوفي في تمارين "ذكره" أفلم يكن اسم المحبوب لزليخة طعامها وشرابها؟ أفلم يكن للبطلة السندية ذلك الذي "تعلقت كلتا يديها به"؟ لكن أين يمكن أن يكون ذلك المحبوب؟ فدوما ما يبدو أمام الباحث كالشيء المخفي ومن ثم تتركز كل أمانيه على أن يدخل في حضرة ذلك المحبوب. قد ألهمت سوني تلك الأمنية وألقت نفسها مرة أخرى في الفيضان لكي تعلم أن الإناء قد تحلل.

فقد غاصت في دومات هادرة وتركزت عليها أعين ووجوه الرعاة "فمن المؤكد أنه بعيد إلا أن حبه قريب" فكما يقول القرآن: "لا تدركه الأبصار" سورة الأنعام آية ١٠٣ ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، إلا أنه يؤكد لابن آدم "أقرب إليه من حبل

الوريد" سورة ق آية ١٦ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ .

وترى سوني كيف يتحلل الإناء وتتعلم الحكمة الصوفية القديمة، أن الحياة الحقة هي أن تفقد حياتك. وسرعان ما يتذكر القارئ أبيات الشهيد المتصوف الحلاج :

" اقتلوني يا خلاني
ففي الموت حياتي "

وهذه الأبيات قد استخدمها المتصوفة المتأخرون، وخصوصًا الرومي، كتمارين أساسية للتأمل، والتي انبثقت منها المعرفة أو القول المردد دائما "موتوا قبل أن تموتوا" كما يبدو أنها من أحاديث الرسول "موتو قبل أن تموتوا" فكل قطعة يُضحى بها من النفس البشرية وكل موت يؤدي إلى حياة جديدة، وإلى مستوى أعلى. فكل حياة الباحث ما هي إلا تتابع يلحقه الموت وإعادة الميلاد، فهي صعود مستمر يتم فيه إحلال الصفات البشرية الدنيئة بأخرى علوية إلهية تماشيا مع التعاليم القديمة "تمثلوا بصفات الله" لذلك يصرح شاه عبد اللطيف أن العاشقة الحقة لم ينكسر فقط قدرها ولكن بالأحرى نفسها، حتى تعثر على مبتغى اشتياقها.

ومن المناسب هنا مقاربة سوني بالسمكة، التي لا تحتمل الهواء، ومن ثم ينحصر فكرها في "كيف لي أن أشرب المياه؟ "

" فالسمكة لا ترتوي أبدا من ماء البحر "

وبذلك يستهل الرومي المثنوي بتلك الأبيات السابقة، وتحيا سوني في العاصفة التي تقودها إلى المحبوب، رغم إنها تبدو ظاهريا ميتة. فكينونتها بأكملها قد أفنيت، وعليها تنطبق أبيات الرومي التي سطرها عن الحلاج في "فيه ما فيه" :

"وطبيعة الاستغراق أن المستغرق لا يعود موجودا، ولا يبقى له جهد، ولا يبقى له فعل وحركة، يصبح غارقًا في الماء، وكل فعل يصدر عنه لا يكون فعله هو، بل فعل الماء، فإذا ما ذرب الماء بيديه ورجليه فلا يكون مستغرقا، ولو صرخ "آه!أنا أغرق"، لم يكن مستغرقًا أيضًا. خذ العبارة الشهيرة "أنا الحق" يظن البعض أنها افتراء كبير، لكن قول "أنا الحق" تواضع كبير في حقيقة الأمر. لأن من يقول "أنا عبد الحق" فهذا فضل أكبر، وبذلك يدعي وجودين هو نفسه ووجود الله. أما من يقول "أنا الحق" فينفي وجود نفسه فهو كل الوجود وما من وجود سواه، يعني "أنا العدم" وهو الكل، أنا بكليتي عدم، أنا لست شيئا. وكل من غرق في الماء لا يبقى له حركة أو فعل فحركاته وأفعاله تصبح حركات وأفعال الماء".

وهذا ما ينطبق على سوني العاشقة، فحبها لميهار أزلي منذ العهد الأزلي تماما، مثل حب ساسي لبونه وحب مروى لمارو. وقول "ألست بربكم؟" يبنى عليه استهلال سلسة تلك الأبيات:

"إن بهاء المحبوب قد كان
قبل أن تُسطر المصائر
قبل أن يكون "ما سيكون"

ولا خطاب غيره معلوم
ولم تكن بعدُ الملائكة
لما صدح أنين سوني
لما شبكها الحب بالراعي ـ كما قال عبد اللطيف
لما سأل الأرواح
"ألست بربكم؟"
سكن التفاؤل القلوب بنعم الأزلية
حينها أدركت حب ميهار، أنا الجسورة
حتى أني ارتحلت إليه
فهذا حقي يا خلاني!"

فكيف لها أن تحيد عنه وحبها له مسطورٌ في اللوح المحفوظ؟ بالطبع قد حاولت كثيرٌ من الأرواح منذ يوم العهد الأزلي البحث في طريق المحبوب إلا أنهم كانوا قصيري النظر، أنتهم أمواج الزخرف الدنيوي المتعددة عن الحقيقة، وأحبطوا وتركوا أنفسهم للدنيا، وغاب عن أعينهم الهدف الحقيقي. إلا أن سوني قد غمرت بذلك الفضل، أنها لم تترك نفسها للإحباط من أشكال الدنيا المتقلبة، وركزت بكل كيانها على الحب. فولوجها في العاصفة كان قرارًا من الحبيب الإلهي وعندما يقرر شيئا ليس على المرء إلا التسليم، فحبه يستل الروح ويقويها على أن تقفز في الدوامة تماما مثلما كان ظمأ ساسي إلى بونه، التي تحملت الطريق الوعر بين الجبال والصحارى. وهكذا تبوح سوني:

" في ليل دامس طفا الإناء

ولا شيء ينساب من جلد الماعز
فمن أجل خاطر رغبة الحبيب لا راحة ولا هدوء
فلأجل خاطر الحب أضحت العاصفة سهلا متدرجا "

طبعا قد ارتعدت العاشقة لبرهة، إلا أن النهر بدا لها جافا. فغرقت على اليابسة، ويتوسل ميهار إلى الصيادين أن يلقوا بشباكهم، في النهر الكئيب النائح. وفي هذا المشهد تتجلى صفة التردد في الحبيب بوضوح: فتارة يكون لها الصديق الدنيوي الضعيف كما أبرزته الحكايا التقليدية، وتارة أخرى يظهر رمزا للمحبوب الأزلي.

وتمتلك سوني أقوى ما في الاثنين، فعقلها لم يُخلق من أجل الحبيب المرئي الذي عبر عنه الصوفية بـ "الحبيب المستعار(مجازيًا)"، فحبها خالد، لقد جعلت من قلبها مرآة يرى فيها المرء الخليل، قد طهرته العاشقة بالآلام، وهو للمحبوب كمرآة أقرب إليه من نفسه كما عبر بذلك على الأقل منذ زمن أحمد الغزالي. ويختم شاه عبد اللطيف قصة الغارقة في المحيط الأزلي، فانية بمعرفة الاتحاد مع صاحب الوجود كله. وهنا يشير مرة أخرى إلى الحلاج الذي يرد في الأدب باسم والده "منصور" و تظهر شخصيته في قصة ساسي، إلا أن مصيره مشابه إلى مصير سوني أي الغرق الكامل في الماء. إلا أنه لماذا أعدم بسبب مقولته "أنا الحق"؟ ألم يقل الخلق بأكمله "أنا الحقيقة الإلهية"؟

الماء، الأرض، الريح: صرخة!
الشجر والدوح: أنين!
كل الأشياء تستحق الشنق.

كم من الآلاف مثل منصور تريد أن تعدمهم؟
حيثما تكن، يكن الخليل
وبكل مكان حاضر هو الحبيب
فالأرض كلها منصور
كم تريد أن تقتل؟

فمئات الآلاف من المسوح تبدو مختلفة للعين الظاهرية، فالماء والبحر هما شيء واحد بل هما نفس الشيء، فمن يغص في الأعماق مثل سوني لا يفكر بعدها، ومن يغرق في البحر الإلهي ينسَ التفكير ومن ثم لا مكان لإعمال العقل في نشوة تجربة الحب. فالحقيقة كما أوضحها الرومي في المثنوي في قصة النحوي الجسور الذي يتعلم من غرق البحارة في السفن، حين يصبح النحو غير مهم ويصبح "محو" ( مثنوي الجزء الأول، بيت ٢٨٣٨[٣٠٦])

---

٣٠٦ وردت تحت قصة "حكاية ما جرى بين النحوي والملاح" في الأبيات التالية: "ركب أحد النحاة سفينة، فالتفت إلى الملاح ذلك العبد لنفسه وسأله: هل قرأت شيئا من النحو؟ قال كلا، قال: ضاع إذن نصف عمرك هدرا - فصار الملاح كسير القلب من هذا التحقير وصمت عن الجواب - ثم ألقت الريح السفينة في دوامة فصاح ذلك الملاح بالنحوي: هل تعرف شيئا من السباحة؟ أخبرني، قال: لا أحسن الجواب وحل المحيا - قال: كل عمرك إذن ضاع هدراً أيها النحوي إن السفينة لا محالة غارقة في الدوامات، فاعلم أن ما ينبغي هنا هو المحو لا النحو، فإن كنت عالما به فقدْ في الماء بلا خطر" والمقصود بالمحو هنا هو إزالة العادات الذميمة والسرائر السيئة التي تعوق طريق الوصول، فالمحو هو المنجي في البحر حيث إن الأواني الممتلئة تغرق والفارغة تطفو، ويقصد بذلك العلماء المغرورين بظاهر العلم ويصبحون حيرا خارجه.

فلا محل للرغبة في دوامات الأمواج والزبد والفيضان الهادر التي أثارت خوف سوني في بادئ الأمر، فكل الأرواح لم تعد تعي في الأعماق الإلهية اللانهائية.

ويهدي شاه عبد اللطيف نهاية هذا الفصل بمديح البحر فقط، أي بمحيط الحب الإلهي حيث غرقت سوني، وحيث وجدت المحبوب. مثلها مثل الباحث في "مصيبة نامه" للعطار الذي وجد المحبوب الإلهي في بحر الأرواح. وأين حدود ونهاية مثل هذا البحر؟

"فالبصر لا نهاية له
أفما من حد لهذا الحب.
أفما للحب من عدد
فهو (أي الحب فقط) من يعرف حدوده؟

وتعد نهاية سوني أوضح الأمثلة على "الفناء" في الماء، إلا أنه بالنسبة إلى الصوفي الذي يحيا بالقرب من العاصفة العنيفة في السند، يعتبر رمز الماء طبيعيًا جدًا. ولعل أشهر فصول الريسالو هو الذي اشتهر من خلال غناء ألان فقير[٣٠٧]، وعرف باسم "سمونديي"، أغنية البحر التي يحكي فيها عن امرأة أحد البحارة التي انتظرت باشتياق عودة زوجها من رحلة بعيدة، فربطت قطعًا من القماش في الشجر مثلما يفعل المرء في يومنا هذا عندما يقطع على نفسه عهدا، وصُبت العطور على هبات

---

٣٠٧ مطرب سندي حول أغانيه بموهبته التمثيلية إلى أداء صامت سواء أكان على خشبة المسرح في بون ألمانيا أم في صحراء ثار. التقى المؤلفة وجمعت بينهما صداقة هو وغيره من المغنين في السند التي أحبتها شبما حبا خاصا.

الرياح حتى يعود إليها سالمًا غانمًا، ويجلب لها من عدن أو من سريلانكا المجوهرات الثمينة أو التوابل.

وهنا مثلما في "سور سريراج" (المفردة التي استخدمت في دورة حياة ـ ساسي) التي يستخدمها الشاعر في وصفه الحياة اليومية لنساء السند، اللائي يعمل أزواجهن في العاصفة الخطرة ويصارعون البحر، بينما في "سور غتو" الفصل القصير الذي أشار فيه إلى موضوع موريرو الصغير وحش البحر الذي قتل كل إخوته. إلا أن ذلك الفصل مثير من منظور الفلكلور. فالموضوع الحقيقي للتجربة الصوفية غير معبر عنه بشكل واضح كما حدث في السرديات الكبرى للنساء العاشقات اللائى يمتن في الجبال أو في العاصفة أو كما في قصة مروى في صحراء ثار حيث موطنها الأصلي، التي ظلت له دوما مخلصة.

# عمر ومروى

حاولت كل من ساسي وسوني الوصول إلى المحبوب الأزلي من خلال الترحال والغوص المميت في العاصفة، إلا أن هناك أرواحًا أو نساء أخريات قضين حياتهن في صبر واشتياق متزايد، مقيدات في هذا العالم، ولسن في حل أن يخرجن بقواهن إلى الوطن حيث المحبوب. وعبر بذلك السهروردي شيخ الإشراق (المتوفى عام ١١٩١) في " الغربة الغربية " حيث حبست الروح في الظلمات وقيدت، حتى عثرت أخيرا على طريق الوطن في شروق الأنوار، حيث هو في أرض اليمن في هذا الموضع حيث السعادة ، حيث رائحة السعادة.

فهي مجموعة رموز، البعض منها يعبر عن الصور الأكثر انتشاراً في الشعر الشرقي، مثل صقر الروح المحبوس في عند سيدة عجوز، المقصود بها هو "العالم" ، الغزالة التي حبست في إحدى الحظائر، الفيل، الذي يشتاق إلى السجن في وطنه الهند، والذي إذا لمح هذه الأرض في أحلامه يصرخ قائلا :

" الفيل الذي رأى بالأمس الهند في أحلامه
قفز من الأغلال، فمن يقوى على تقييده بعدُ؟ "

هكذا يتساءل الرومي.

ففي شعر شاه عبد اللطيف، تمثل مروى هذا الاشتياق نحو الوطن، الروح التي تتذكر دومًا موطنها الأصلي.

"مروى" فتاة قروية من صحراء ثار، أي جنوب غرب باكستان حاليًا، تحب وطنها وتحب المارو فهم خلانها وأقاربها، وذهبت ذات يوم مثل كثير من الفتيات إلى حواف القرية لجلب الماء، وعلم عمر القوي من عمركوت بجمال تلك الفتاة واختطفها وحبسها في قصره بعمركوت، فهو يريدها له إلا أن مروى قاومت كل فنون مغرياته ولم تفكر إلا في الوطن، في "محبوبها الأول" حتى أطلق سراحها الإقطاعي الذي لم يقو على كسر مقاومتها بعد أن هطل المطر على الصحراء وحولها إلى مروج. وطبقا لإحدى الروايات تُقتل مروى من أحد أقاربها حيث لم يصدق أحد أنها لم تمس بعد، إلا أن شاه عبد اللطيف صمت عن النهاية، فالاشتياق والتذكر والأمل في العودة هم موضوعه الأساسي.

كما في بقايا "السور" يبدأ الشاعر في "سور مروى" مباشرة في وسط السرد ويقود مستمعيه إلى مشهد في قصر عمركوت، حيث تقف المخطوفة وحيدة. وفى أثناء حبسها تذكر دومًا الحب الأبدي التي تكنه نحو أهل "مارو"، ويعبر أهل مارو الجمع هنا غالبًا عن المحبوب الوحيد الحقيقي، الذي يتجلى بأشكال متعددة ولا مجال أبدًا لوصفه، فساسي تتحدث في إحدى حواراتها مع نفسها عن "كتشى"، وإذا كانت تعني بونه بصرف النظر عن الرجال الأولياء يعرفون بصيغة الجمع مثل المتصوف الهندي نظام الدين "أوليا" أو وصف دراويش وسط آسيا بـ

"إيشان" أي "هي" وفي عمل شاه عبد اللطيف ترد إشارة إلى الأشكال المتعددة للمحبوب، كما رأى ذويه من مسقط رأسه قبل مئتي عام قاضي قاضان الله كشجرة تين الهند، التي تبدو كالوادي بمئات الجذور الهوائية، وتظل في ذاتها واحدة. وتعلم مروى أخواتها الأرواح الأخريات أن حبها يعود إلى بدء الخليقة، إلى قبل بداية العهد الأزلي حينما تجلى الله للحظة على الوجود البشري، وبذلك ظلت البشرية مدينة له حتى قيام الساعة.

وتمضي مروى تمامًا مثل ساسي وسوني، وكل روح عاشقة تعلم أن "لا حب مثل حب الحبيب الأزلي" وتعد الإشارة بـ "ألست" التي وردت في ذلك العهد الأزلي ليست فقط مستهل "سور" لكنها تتضح وترد أيضًا في نهايته مرة أخرى

"ألست بربكم؟
فسمعت كيف سأل الله.
فقالوا بلى! من قلوبهم وكنت هناك حيث قالوا
وفي كل زمن أمدح ساكني وادي الإخلاص"

بل وأكثر من ذلك؛ فقبل هذا الحدث الجلل قبل خلق الشمس والقمر قبل خلق العالم وقبل خلق الأرواح وقبل أن ينطق الله بكلمة الخلق "كن" أحبت مروى أهل "مارو" حيث كانت لا تزال ملتصقة بهم. فتتذكر الفتاة في ذلك الزمان بالاتحاد المطلق، في الله الأحد DEUS ADBSCONDITUS

وتئن هنا من هذا المصير وهو ما يعني هنا "خلق العالم" الذي أدى إلى هذه الثنائية، وأن تكون منفصلة عن حبيبها. والمصير كما تعلمه هي ما هو إلا " قيد متين" حُبس الإنسان فيه.

إلا أنه دومًا ما توجد كلمات إلهية تعز الروح في ذلك المنفى، أفلم يقل الله في كتابه " سورة ق آية ١٦ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ "نحن أقرب إليك من حَبل الَوَريد؟ "، ولعل أحاديث الَرسولَ والأَمثلَة العربية تظهر لمروى بنفس المعنى "هنا فقط جسدي أما قلبي فعندكم" وهو ما يتفق تمامًا مع ما تغنى به الشاعر العربي:

" عيناي تبكيان دمًا من فراقك! "

لكن ألم يقل النبي أيضًا، "كل الأشياء تعود إلى أصلها"؟ ولذلك تحلم المخطوفة بالعودة إلى موطنها إلى "مالير" ويتناول الفصل هذا الموضوع بأغنية الخاتمة :

" هل لي أن أعود إلى وطني
إلى إرث أبي
أن أذهب إلى وطني "مالير"
وأموت بالقرب من أشجار الصحراء! "

والبعض من أبياتها يذكرنا بتلك الأغانى التي تغني في الأدب الشعبي الهندي الباكستاني للصبايا حديثات الزواج، اللائي يشعرن بتعاسة في وطنهن الجديد حيث الحموات والسلفات ويشتاقون إلى حب

الوالدين والأخوات. حيث يبدو المنفى للصبية الصغيرة في بعض الأحيان لا يطاق

" لا مرسال، لا مهاجر وما من راكب جمل آت

ما من خبر ما من حلم ما من راكب جمل آت"

وهكذا تئن منشدة بيتًا وراء بيت. "حان وقت ترك الله، حان وقت ظلام الروح حيث ما من علامة صغيرة على فضل الرب الحبيب. وكذلك تئن مروى "ما من مرسال، ما من راكب جمل آت" مستهلة بها أشعار السند المتأخرة، وتتكرر في أغاني "الساشتال السارمست؟" الذي تتناول موضوعات عبد اللطيف شاه وعدل فيها، حيث تتغنى الأرواح السيدات بالوجد والشجاعة والعشق.

كلا، ما من أحد يظهر، حتى عندما تحاول مروى كتابة خطاب إلى الأحباب تتساقط الدموع على الريشة وتغشى الحبر.

وتعتبر تيمة انتظار خطاب والمحاولات الفاشلة يعبر عنها في سطرين عن ذات المحبوب، وتعد موضوعًا هامًا في الأدب الصوفي. فتغدو دموع العاشق أو العاشقة كما يراها الشعراء هي الرسالة الحقيقة، التي كُتبت بخط أحمر هو دماء العيون الباكية، مسطرين على البرجامنت الجافة التي هي في الحقيقة الخدود "الحروف" التي تقرأ، والتي لا تُقرأ، كما عبر عن ذلك قبلا المتصوف البغدادي شيلبي (المتوفى عام ٩٤٥) ويترك أحد شعراء البنغال بطلاته تتغنى بـــ

" قد جعلت من أصابعي ريشًا

وجعلت من دموعي حبرًا
وجعلت من قلبي برجامنت
حتى أرسله إلى محبوبي! "

وتعتبر وسائل التراسل في العالم القديم هي الحمام الزاجل (ويعد بريد الحمام الزاجل من الأشياء البالغة التطور في إسلام العصور الوسطى) وهذا ما يعرف غالبًا بـ "حمام القداسة"، وهو ما يعادل الحمام الساكن مكة، الذي يعيش دومًا بالقرب من المركز الديني "بيت الله". وفي السند نرى طائر "الغراب" الذي تحلفه الفتاة العاشقة بصفة مستمرة، أن يجلب الأخبار من الحبيب، كما أشير من قبل مع ساسي التي تعد طيور التراسل بكل أنواع المكافآت، وعندما تقدم ساسي للطير القريب من الحبيب لحمها وعينيها، فتقدم البطلة بذلك وعدًا في "ساتشال سارماست" "سور مالكون" أي عمل السكر وتريد أن يطوي الطريق محلقا بريش ذهبي، في حال أتى لها بخبر من الحبيب، وهكذا هي الرؤية المفهومة للروح العاشقة الطامحة إلى فضل الله، والذي يذكر دومًا بعنوان " الغراب المحبوب يا طيب".

وتعد تيمة الكتابة والتي تسمى أيضًا عند الصوفيين برموز الحروف القديمة تظهر في كثير من المرات عند ريسالو شاه عبد اللطيف. أليست الروح العاشقة مربوطة مع الحبيب، كما ربط الكاتب بفن حرفي الألف واللام، وهكذا تعني كلمة "لا" في أول الشهادة لتكون بها تلك الحقيقة أنه ما من حبيب إلا هو، الأزلي اللانهائي؟

ومع ذلك يُدهش القارئ لما للكتابة من دور حيوي هنا، ففي السند قليل من الناس يجيدون القراءة والكتابة، وبالنسبة لامرأة يكاد الأمر يكون معدومًا إن تعلمت الكتابة (في كثير من المناطق ربما يريد المرء تعليم الفتاة شيئا من القراءة لا الكتابة "حتى لا نكتب خطابات الحب" كما قالت لي مرة عجوز تركية من العائلات الكبيرة بابتسامة مشاغبة) إلا أن الخطابات التي تنتظرها مروى هي كلمات الفضل، ولما تريد أن تكتب فدموعها هي الحبر، كما ورد في أغاني بوله شاه:

" أكتب خطابات مساءً
إن حبيبي لم يأتِ "

وحتى إن لم تصل أخبار من القرية، وإن لم يظهر لها الحبيب في أي حلم، إلا أن مروى تحلم بذكرياتها عن الوطن، فهي تفكر في رعاة قريتها الذين لم يرتدوا الحرير يومًا، إلا أنه كيف تبدو لها ملابسهم الحمراء الفضفاضة أفضل من الشالات المزخرفة، وأفضل من الحرير والساتان التي يحاول عمر أن يغريها بهم، وكيف أن رائحتهم بالنسبة لها مريحة أكثر من رائحة المسك والعنبر!

وعن تذكر مروى لروائح الوطن فهو أمر ليس فظا، فمن الصوفية من خبروا في كثير من المرات الآلام العذبة لنفحات العطر، التي أرسلها الله إلى أرواحهم. وعن طريقها تجلب أخبارا من الحبيب، الذي لا يمكن أن تراه العين، فهي نفحة الثقة، أي فوائح الجمال. أفلم يستشعر الرسول بنسمة عطرة عندما أتت له أخبار التقي عويس القرني من اليمن وصرخ

"إنى أشم أنفاس الرحمن تأتينى من اليمن"، ومثل هذه الأفكار تعود إليها أبيات مروى عندما تتطلع إلى رائحة التعارف التي تعزيها في منفاها.

فقراء هم أهل مرو، إلا أن مروى تستشعر هذا الفقر كشئ جميل ورائع، فعند الصوفي كما قال النبي فقري هو فخري. وتحلم مروى في القصر بأن تكون في معية رفاقها، فمعاناة العطش مع العائلة شيء جميل أحب إليها من شراب "الشربت"[٣٠٨] وكيف لها أن تغفو تحت طبقات الأغطية الدافئة بينما يرتجف رفقاؤها في الأدغال في الليالي المظلمة القاسية.

فكل العطايا التي قدمها لها عمر رفضتها، فعلى الروح ألا تتعلق بـ "بالزخرف الدنيوي" سورة آل عمران آية ١٤﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ وَلا تترك نفسها للمغريات تنسيها وطنها الأصلي. فما أحب على مروى من أن تلقي بكل القلادات التي أهداها عمر لها، فهي لاشئ بالنسبة لها، فتنبذ العطايا كلها، وتولي وجهها شطر الوطن فقط. ففي قلبها يشتعل نار الفراق، ويتصاعد دخن الآلام، فاتسخ بذلك وجهها، فالروح تتلون في المنفى، فاقدة جمالها. فالخوف يصيبها بالعدوانية، فكيف لها أن تعود بشكلها القبيح إلى وطنها، حيث الكل مضيء ببهاء أزلي؟ وعلينا هنا أن نتذكر تلك المقاربة من الصوفية للقول المحبب للنبي "حقا إن الله جميل يحب الجمال" وهكذا تتغنى في سجن

---

٣٠٨ الشربت: مشروب تركي ـ فارسي من الفواكه النصف مثلجة والسكر.

العالم، حتى وإن كان هذا العالم مزخرفا ببهاء تمامًا مثل خيمة عمر، وتقريبًا تتشكك مروى:

"لقد فُقد الجمال

وأصبحت قبيحة المنظر

فكيف لي أن أذهب هناك

إلى أين يأتي الجميل الأزلي أبدًا؟

لقد فقدت الجمال

وبهاء حيوية الجسد

ففي قلبي عذاب الحريق

أصبح بهائي متسخا

لقد فقدت الجمال

وها هنا قد وصلت!

فكيف لي أنْ أصلح هذا النقص؟

قد خلا مني الجمال

قد فقدتُ الجمال

إلى أين ذهب الكمال؟

فكيف لي أن ألج البيت

كم أنا مسكينة؟

فمن يهبنى الجمال

حتى أرى الرعاة؟

لقد فقدت الجمال
فكيف لي العودة إلى الدار؟
أنا من استلب مني الرجل جمالي
كيف لي أن أرى الرعاة؟
لقد فقدت جمالي
فكيف لي أن أرى الرعاة؟
تلك من كانت فاتنة الرعاة
أصبحت تنوح الآن بلا ملامح
لقد فقدتُ جمالي
فمن يقوى الآن على استقبالي؟
ما من نديم أو حبيب يحتضن
عندما يرى الرعاة القبيحة!
لقد فقدت جمالي
وأتيت بالأمس إلى القصر
فأكره الهدايا والنعم
فهنا ضاع هباءً جمالي! "

توقفت عن غسل شعرها (ومن يعلم قوانين الإسلام الصارمة في الطهارة، يعي كم هو غير معتاد ذلك الفعل) فلقد فقدت الأمل تقريبًا في أن يعرفها المحبوب بشكلها القبيح الفاقد للملامح؟. فتتذكر تلك الأيام عندما اعتادت أن تستخلص الزبدة من اللبن السميك وتسحب الماء من البئر، حتى تسقي الغنم الظمآن. وتُعنى الفصول التالية بوصف أعمال

القرية وملابسها ونباتاتها والحيوانات التي تملأ ثار، وترسم صورة حقيقة عن الحياة في قرية نائية جداً بعيدة عن الحضارة (العمران) والصورة التي رسمتها واقعية جدا حتى إننا نعثر في يومنا هذا على كل أنواع المكونات والأعشاب المستخدمة في إعداد الطعام.

ولما قارن الشعراء (المدنيون) الجنة الأزلية بحدائق الورد، التي تتوق إليها نوارس الروح، أو بفراش الخوص التي قطع منها الناي الحزين، لذلك يُعد أمرا مفهوما، أن تكون قرية مروى هي " قرية الإسلاف" حيث مكان تجسيد الروحانية الأبدية. فهي تفكر في السهول التي تخضر عند سقوط المطر مثلما اعتاد الشعراء التغني بذلك. فهي علامة من علامات رحمة الله، وأفسح شاه عبد اللطيف في فصله "سور سارانج" بوصف مفصل لتلك الأرض، حيث "الضفادع، والبط، والثيران والأبقار" كلها تتوق إلى المطر المبارك ويسعد بها الفلاح، ويعد المطر أيضًا رمزًا على رحمة الله التي تبدت في محمد. وإذا كان لنا أن نفهم معنى المطر في تلك الاستعارة أم لا، فمن يذهب إلى صحراء ثار بعد أمطار موسمية غزيرة، يعلم جمالها الساحر، ويفهم اشتياق مروى إلى وطنها، ولا تعد قصة مروى فقط رمزًا إلى الروح المشتاقة إلى حبيبها الأول، ولكنها تقدم أيضًا أغاني رفيعة المستوى عن الوطن، ألم يقل النبي "حب الوطن من الإيمان"، وعندما تتذكر مروى ذلك الوقت المبارك في الوطن تبكي كالسحاب، منتظرة باشتياق مرسال فهي تعزل نفسها عن الكل حتى تظل نقية وحتى لا تتسخ من إحدى أمنيات الدنيا. وأخيرا تُكافئ مروى ويرسل لها أهل مرو مرسالا، وفي وقت هطول المطر يوافق عمر على أن

يرسلها إلى وطنها. ويعد وقت هطول المطر في الشعر الهندي القديم هو الوقت الذي يشتد فيه اشتياق العاشق إلى معشوقه، ويأمل في الوصال. وتفكر مروى سعيدة بعودتها إلى وطنها "وأن الجميع سيشربون اللبن" وأن هناك احتفالا كبيرا بالقرب من الآبار الممتلئة بالماء سيعقد.

ويظهر موضوع المطر مرة أخرى وهو ما يعد أمرا غير عادي بانسبة إلى أهل الصحراء إلا أنه في الأدب الإسلامي الكلاسيكي، وفي اعتقاد العامة هناك صورة منتشرة بقوة هي أن قطرات المطر تخرج من البحر، فالرطوبة تكثفها إلى السحاب وتهبط مرة أخرى كمطر في البحر. وإذا حالف تلك القطرات الحظ فإنها تسقط في قوقعة طال اشتياقها انتظارا، فتلفظها بأن تشرب ماء البحر المالح، وتنتظر مطرا حلوا عذبا، لو كان متاحا فإنها تنتظر مطر أبريل الشافي. وتشبه مروى مثل هذه القوقعة فهي لم تترك نفسها إلى ذلك الماء المالح اللعوب ما يعني هنا الخرف المحيط بها أي هدايا مروى، فهي لم تستسلم لمغرياته، ووصلت إلى هدفها بـ "صبرا جميلا" (سورة يوسف آية ١٨) وهكذا أضحت مروى مثالا يحتذي به الإنسان:

" القوقعة في أعماق البحار  
تأمل في سحاب  
فهي لا تشرب القطرات المالحة  
ولا تتفتح إلا للمطر العذب وهكذا أصابت اللؤلؤ  
فلقد كابدت تباريح العشق في الأعماق المظلمة  
وهكذا تعلمن يا صبايا

من القوقعة كيف لها أن تمارس الفضيلة
يتغير فيضان البحر
إلا أنها تقف آملة في السحاب
هكذا تعلمن تقاليد الاشتياق
من القوقعة يا صبايا
ولا تطلبن الماء إلا من السماء
فما الماء القريب إلا هباء"

إلا أنها تعلم أيضًا أن المنفى كان لازما. فاشتياق الوطن، الذي عاشته تلك الفتاة الطاهرة، يُعد شرفا للمؤمنين الحق، فما من صعود دون معاناة. ويتذكر الرومي مثل بقية الشعراء الصوفيين أنه من دون فراق الوطن لن يتطور الإنسان ويرتقي، ألم يترك النبي مكة وطنه حتى يتوجه إلى الرب في المدينة، ومن ثم يعود منتصرًا إلى وطنه مرة أخرى، ألم يكن الأمر بالمثل مع يوسف بعد خيانة إخوته، إلى أن أصبح عزيز مصر وأصبح قادرا على تعزية ذويه، وهل لغصن البوص أن يغني إن لم يكن منفصلا عن وطنه؟

وهكذا تُنتزع مروى من جذورها إلا أنها تُكافأ على إخلاصها وعن عدم تلطخها بهذا العالم، بهذا المنفى الزخرفي وتعود إلى وطن الإسلاف، حيث رحم الوطن الأزلي.

## خاتمة

تتوق مروى إلى الوطن الأزلي، وتتطهر كل من ساسي وسوني من خلال الشوق إلى المحبوب الإلهي تماماً مثل زليخة في عشقها ليوسف، وكيف كان اشتياقها إلى المنبع الأزلي صاحب كل البهاء، وهكذا يمكن للسيدات أن يكن في التصوف العاشقات الأكثرَ ترحالا، ويصبحن التجليات العطرة للصمد ليس فقط كجزء (على اعتبار أن المرأة خلقت من ضلع آدم) الذي يبحث عن الكل لكن بالأحرى الكل الذي يبحث عن جزئه المقتطع منه. فالرجل والمرأة ينتمي كل منهم إلى الآخر برباط أبدي. وما تعايشهما المتناغم إلا لعبة الخلق الأبدية تلك بين "اليانج" و"الين" وهي ما تجعل حياتنا حقيقة.

وما تغلّب العنصر الذكوري على الأقل في الحياة العملية في كل الأديان والثقافات هو أمر لا ينكره أحد، وأن الإسلام قد تسبب في كثير من المعاناة للمرأة بسبب التفسيرات القرآنية التي ضاق أفقها على مر القرون، علاوة على ما لعبته العادات والتقاليد التي لا علاقة لها بالقرآن بتاتا، إلا أنها أخذت شكلا قرآنيا متزايداً. فالكثير مما يسمى "إسلامي" اليوم ما هو إلا تقاليد وأعراف. على الجانب الآخر علينا حماية تصورتنا عن "الحرية"، التي تتبنى تفسيرات ليبرالية لكنها تجنح إلى أن تكون "مجردة من المبادئ" ونرى من

خلالها العالم ونحكم على العادات والتقاليد التي لا تثير إعجابنا وننعتها بالقديمة بل ونلعنها. فأي محاولة لنقل أية أفكار "حداثية" إلى العالم الإسلامي سيتم تفسيرها ببساطة من المسلمين على أنها محاولة جديدة من الاستعمار، وسيتم رفضها وتنتج مقاومة متعنتة ضدها.

وما على باحث علم الأديان إلا مقابلة الفكرة بالفكرة والحقائق بالحقائق. لذلك أرى أن إجراء دراسة متمهلة عن صورة المرأة في الأدب الإسلامي يساهم في تقريب الأفكار. فلا صورة الحرملك الإيروسي الداعر، ولا النوادر عن مكر المرأة ما يحدد ثقافة الإسلام. فمن يقرأ بعين فاحصة كلا من الأعمال الأدبية الكلاسيكية بالعربية والفارسية والتركية، وبالأخص الهندو إسلامية (أي الأردية، والسندية، والبنجابية) ستتكون لديه صورة مغايرة تمامًا، على عكس ما يجده في مواضع أخرى. ومن خلال صداقتي بالعديد من النساء المسلمات لسنوات طوال، تعلمت الكثير عن تلك الأبعاد العميقة. ولعل هذه الرؤية تساهم ولو بالقليل من إعادة الأحكام المسبقة إلى صوابها، ففي فضاء الروحانيات يتلاشى الفرق بين الرجل والمرأة، كما قال جامي عن رابعة:

"لو كانت كل النساء مثل تلك التي سميناها
لكانت النساء أفضل من الرجال
فالشمس لا يضرها التأنيث
ولا يزيد التذكير القمر شرفًا"

تمت بحمد الله في تاريخ ٢٦ ـ ١٢ ـ ٢٠١٤

القاهرة - مصر الجديدة

# قائمة مراجع المترجم


1. Encyclopaedia Iranica: http://www.iranicaonline.org/, last time visited on 2/15/2015.

2. Encyclopédie de l'Islam: http://referenceworks.brillonline.com/browse/encyclopedie - de - l - islam

3. Biographical Encyclopaedia of Sufis: South Asia ،edited by: N.Hanif, Delhi, 2000.

4. Dictionary of Indo - Persian Literature, edited by: Nabi Hadi, India, 1996.

5. Early Sufi Women :Dhikr an - Niswa al - Muta'abbidat as - Sufiyyat ،Abu 'Abd ar - Rahman as - Sulami ، translated by Rkia E. Cornell, 1999 ،Fons Vitae.

6. Gaerten der Erkenntnis: das Buch der Vierzig Sufi - Meister, 1982, Muenchen, 4 .Auflage.

7. Des vies des Saints muslumans, Émile Dermenghem, 2005, Actes Sud.

8. La Panorma de la pensée islamique, Ch.Bouamrane L. Gardet. 1984, Sindbad.

9. Tarjuman al - ashwaq, Muhyi`ddin ibn Al - Arabi, edited by: Reylond A. Nicholson, London 1911.

10. Die Mystikerinnen: Biographien visionärer Frauen, Annerose Sieck, 2013 ،Thorbecke.

١١ . الشرق والغرب: حياتي الشرق غربية : أنا ماري شمل، ترجمة عبد السلام حيدر، ٢٠٠٤، المركز القومي للترجمة.

١٢ . فيه ما فيه أحاديث مولانا جلال الدين الرومي، ترجمه من الفارسية عيسى على الكاعوب، دار الفكر العربي المعاصر بيروت.

١٣ . ديوان المثنوي: لمولانا جلال الدين الرومي ـ الكتاب الأول حتى الكتاب السادس، المركز القومي للترجمة.

١٤ . الحريم الصوفي وتأنيث الدين: ضلالات حجاج الأضرحة، ٢٠٠٦، دار روافد.

١٥ . تراث الإسلام، جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث، ترجمة محمد زهير السمهوري وغيره، ١٩٧٨ ـ الكويت.

١٦ . إبراهيم بسيوني، نشأة التصوف الإسلامي، دار المعارف، ١٩٦٩ .

# ببيلوغرافيا المؤلف

- □bdul Latif, Schah: Risalo Sindhi, hrsg. Kaylan Adwani. Bombay 1958.

- Abu Nu□aim mal - Isfahani: Hilyat al - auliya,10 Bde.Kairo 1932 ff.

- Addas, Claude: La Quête du Soufre Rouge. Paris 1988 (Jetzt auch englisch erhältlich: The Quest for the Red Sulphu).

- Aflaki: Manaqub al - □ arifin, 2Bde. Hrsg. Tahsin Yazici. Ankara 1959 - 61.

- Allison, Mary Bruins. M.D.: Doctor Mary in Arabia: Memoirs.327 pages. Austin,TX: University of Texas Press.

- Andrea, Tor: I Myrtenträgarden. Uppsala 1948; deutsch: Islamische Mystiker. Stuttgart 1960: Besser ist die durchgesehene engslische Übersetyung von Brigitta Sharpe: In the Garden of Myrtles.Albany NY 1987.

- Amir Khurd: Siyar al - auliya. Delhi 1310 h/1891 - 2

- □Andalib, Nasir Muhammad: Nala - i □Andalib. Bhopal 1309h/1890 - I
- Araz, Nezihe: Anadolu Evliyalari. Istanbul 1958.
- Arberry,A.J.LA Sufi Martyr. The *Apologia* of □ain al - Qudat al Hamadhani. London 1969.
- Asani, Ali S.: The Buj Niranjani, an Ismaili mystical Peom. Harvard Middle East Center, 1991.
- Arsani, Ali S.:»Bridal Symbolism in the Ismaili *ginan* literature«, in: R.Herrera and Ruth Link Salinger, Mystics of the Book. New York 1993.
- Arsani, Ali S.:»A Testimony of Love. The Git tradition of the Nizari Ismailis« in: Maria Subtelny, Hrsg., Festschrift für Annemarie Schimmel, (Journal of Turkish Studies 18) Cambridge, Mass.1994.
- Asani, Ali S.: » The Ismaili ginans as devotional literature«. In: S. McGregor, ed. Devotional Literature in South Asia. Cambridge 1993.
- Asi, □bdul Bari: Tadhkirat al - auliya.2Bde., Hrsg., R.A. Nicholson, London - Leiden 1905, 1907; repr.1959.
- □Attar, Friduddin: Ilahinama, Die Gespräche des Königes mit seinen sech Söhnen. Hrsg. Hellmut Ritter. Leipyig 1940. Englische Übersetzung: John A. Boyle, Manchester 1976.

- □Attar, Fariduddin: Mantiq ut - tair,hrsg. Jawad Shakur. Teheran 1962.

- □Attar, Fariduddin: Musibatname. Hrsg. N. Wisal. Teheran 1959. Französiche Teil - Übersetzung: Isabelle de Gastines: Le Livre de l'épreuve. Paris 1981.

- Ayoub, Mahmood: redemptive Suffering in Islam. The Hague, 1978.

- Austin, R.W.J.:Sufis of Andalusia. Lodon 1971.

- Austin,R.W.J.:»The Sophianic Feminine in the work of Ibn al - □Arabi and Rumi.« In: L. Lewisohn, Hrsg.: The Legacy of Medieval Persian Sufism. London 1991.

- Ayverdi,Samiha: Istanbul Geceleri. Istanbul 1952.

- Ayverdi,Samiha: Ibrahim Efendi'nin Konagi. Istanbul 1964.

- Badawi, M.M.: »Islam in modern Egyptian Literature.« In: Journal of Arabic Literature 2,1971.

- Baha - l Walad: Ma□arif, ed.B. Furuzanfar. Teheran 1957.

- Bannerth, Ernst: Islamische Wallfahrtsstäten Kairos. Kairo 1973.

- Beaurecueil, Serge de Laurier de: Abdullah Ansari, mystique hanbalite. Beirut 1963.

- Beelaert, Anna Livia:» The Kaaba as a woman—A topos in classical Persian literature.« In: Persica 13 (1988/9).

- Birge, John K.: The Bektashi order of Dervishes. London 1937, repr.1965
- Bilgrami, Ghulam □Ali Azad: Khizana - i □amira. Lucknow s.d.,ca. 1890
- Bremond, Henri: Histoire de sentiment religieux en France. Bd. VI, Paris 1926.
- Bullhe Schah: Divan, hrsg. Faqir M.Faqir. Lahore 1960.
- Burton, Richard: Sindh, and the Races that inhabit the Valley of the Indus. London 1851, repr. 1974.
- Chittick, William: The Sufi Path of Knowledge. Albany NY 1989.
- Chodkiewicz, Michel: Un Océan sans ravage, Paris 1991 (engl.Ü: An Ocean without shore)
- Chodkiewicz, Michal: » Female Sainthood in Isalm«, SUFI 21 (1994), ist eine vorzüglich Einführung in das Thema.
- Cooke, Miriam & Roshni Riustomji - Kerns, eds.: Blood into Ink: South Asian and Middle Eastern Women Write War. 239 Pages. Boulder: Westview Press,1994.
- Dailami,Abu'l Hasan ad - : Sirat Ibn al - Khafif - I Schirazi, Hrsg. A.Schimmel. Ankara 199.
- Dara Schikoh: Sakinat al - auliya.Hrsg. Jalali Naini. Teheran 1965.
- Dara, Khawadja Mir: □Ilm ul - kitab.Bhopal 1309H/1890 - 1.

- Dara, Khawadja Mir: Divan - i Farsi. Delhi 1891.

- Diederichs, Inge, Hrsg.: Im Lande der Königin von Saba. Köln 1987.

- Dschami, Maulana □Abdur Rahman: Nafahat al - uns. Hrsg. M. Tauhidipur, Teheran 1957.

- Haft Aurang, Hrsg.Aga Murtaza und Mudarris Gilani, Teheran 1972, darin: Salaman wa Absal; Silsilat adh - dhahab; Subhat al - abrar; Yususf Zulaikha.

- Eaton, Richard: Sufis of Bijapur. Princeton 1978.

- Enamul Haq: Muslim Bengali Literatur, » in Wilhelm Geiger - Ernst kuhn, Grundriss der iranischen Philologie, Bd. 2, Strassburg 1901.

- Fakhri Harawi, Dschawahir al - □adscha□ib, (zusammen mit Raudat as - salatin) Hrsg. Sayyid Hussamuddin Rashdi. Heyderabad/Sind 1968.

- Fazlur Rhman: Islam. London - New York 1966.

- Ghazzali, Ahmad: Sawanih. Aphorismen über die Liebe. Hrsg. Hellmut Ritter, Istanbul - Leipzig 1942. (Deutsche Übersetzung von Richard Gramlich, und von Gisela Wendt, englsich von N. Pourjavadi).

- Ghazzali, Abu Hamid al - : Ihya□ □ulum ad - din. 4 Bde. Bulaq 1872.

- Ghulam Farid, Khawaja: Fifty Poems, ed.and transl. by Christopher shackle. Multan s.d. (c.1975)

- Gibb, E.J.W.: History of Ottoman Poetry, 6 Bde. London - Leiden 1900 - 1909,repr. 1958 - 63.

- Gölpinarli, Abdulbaki: Melâna'dan sonar Mevlevilik. Istanbul 1953.

- Gölpinarli, Abdulbaki: Tassavvuftan dilimize geçen termiler. Istanbul 1977.

- Gost, Roswitha: Der Harem. Köln 1994.

- Gramlich, Richard: Die Wunder der Freunde Gottes. Stuttgart 1987.

- Gramlich, Richard: Die schiitischen Derwischorden. 3Bde. Wiesbaden 1965 - 81.

- Gramlich, Richard: Ü: Die Gaben der Erkenntnisse des □Umar as Suhrawardi (Ü von Suhrawardi □awarif al - ma□arif). Wiesbaden 1978.

- Halladch, al - Husain ibn Mansur: divan. Hrsg. Louis Massignon, in ; Journal Asiatique, 1931; Hrsg. M.Kamil asch - schaibi, Beirut 1973.

- Hammer, Joseph von: Der Divan des ...Hafis.Aus dem Persischen...Stuttgart 1812 - 1813.

- Heine, Ina und Peter: O ihr Musliminnen! Frauen in islamischen Gesellschaften. Freiburg 1994.

- Heller, Erdmuthe - Hassouna Mosabahi: Hinter den Schleiern des Islam. München 1993.

- Hoschyarpuri, Hafeez: Mathnawiha - yi Hir Ranjha. Karachi 1957.

- Hujwiri, □Ali ibn □Uthman al - Jullabi al - : The Kashf al - ahjub, the oldest Persian treatise on Sufism, transl. R.A. Nicholson. London Leiden 1911, und viele repr.

- Ibn al - □arabi: Tarjuman al - ashwaq,ed.and transl.R.A. Nicholson London 1912, repr. Mit Vorwort von Martin Lings. London 1978.

- Ibn al - □arabi: Fusus al - hikam, Hrsg. A.A. Affifi. Kairo 1946.

- Ibn□Ata Allah, Hikam. Ü. Von A.Schimmel: Bedrängnisse sind Teppische voller Gnaden. Frieburg 1988.

- Ibn Iyas: Bada'i□ az - zuhur fi □ad - duhur, Bd. 3 - 5; Hrsg. M. Mostafa und Paul Kahle. Istanbul - Leipzig 1931 - 35.

- Ibn khallikan, wafayat al - a□yan. Hrsg. M.G. de Slane , Paris 1838 - 42.

- Iqbal, Muhammad: Rumuzi bekhudi. Lahore 1917.

- Iqbal, Muhammad: Payam - I maschriq. Lahore 1923.

- Iqbal, Muhammad; Bang - l dara. Lahore 1924.

- Iqbal, Muhammad: dschavidnama. Lahore 1923.Ü. von A.Schimmel: Buch der Ewigkeit. München 1957; auch in dies: Botschaft des Ostens. Tübingen 1977.

- Jotwani, Motilal: Shah □bdul Karim. New Delhi 1970.

- Karaosamgolu, Yakup Kadri: Nur Baba. Istanbul 1922. Deutsche Ü. von A.Schimmel: Flamme und Falter. Köln 1987 (völlig überarbeitet Ausgabe der Ü., die 1948 in Gummersbach erschien).

- Khaqani, Afdaluddin Badil: Divan.Hrsg. Z.Sajjad. Teheran 1959.

- Kisa: The tales of the Prophets: Ü. Wheeler M. Thackston. Boston 1978.

- Lawrence, Bruce B.: »Honoring women through sexual abstinence.« in M.Subtelny: Festschrift Annemarie Schimmel (Journal of Turkish Studies 18) Cambridge. Mass. 1994.

- Massignon, Louis: La Passion d'al Hoseyn ibn Mansour al Hallaj, martyre mystique de l'Islam. Paris 1922; erweiterte Ausgabe in 4 Bdn. Paris 1975. Engl. Ü. Herbert Mason, Princeton 1987

- Meier, Fritz: Die schöne Mahsati. Wiesbaden 1963

- Meier, Fritz: Abu Sa□id - i Abu l - Hair. Leiden 1976.

- Meier, Fritz: Baha - l Walad. Leiden 1990.

- Mernissi, Fatma: Dreams of Trespass: Tales of a Harem Girlhood. 242 pages. Reading, MA: Addison - Wesley Publishing Company, 1994.

- Metcalf, Barbara: Perfecting Women. Mhulana Asaraf Ali Thenawi's Bihishti Zewar. Delhi 1992.

- Mez,Adam: Die Renaissance des Islam. Heidelberg 1924.

- Murata,Schiko: The Tao of Islam. Albany NY1992.

- Murata, Schiko: » Witnessing the Rose. Yaqub Sarfi on the vision of God in women«. In : Alma Giese - J.C. Bürgel, »Gott ist schön und er liebt die Schönheit«, Festschrift für A.Schimmel. Bern - Frankfurt 1994.

- Murata, Schiko: »Mysteries of Marriage. Notes on a Sufi Text« (Kasani). In: L. Lewisohn, Hrsg.: The Legacy of Medieval Persian Sufism, London 1992.

- Nahdsch al - balaga, mit Kommentar von Muhammad □Abduh. Beirut 1964.

- Nazir Ahmad, Dept: Mir'at al - □ arus. Delhi 1869.

- Nizami, Ilyas: Makhazan al - asrar, in Khamsa, 3rd.ed. Teheran 1972.

- Nizami, Khaliq Ahmad: The Life and Times of Shaikh Farid Ganj - i Shakar. Aligarh 1995.

- Nizamuddin Auliya, Fawa'id al - fu'ad. Ü. Bruce B. Lawrence: Morals for the Heart. New York 1992.

- Prior,Loveday: Punjab Prelude. London 1952.

- Qalich Beg, Mirza: Zinat. Karachi 1892.

- Qalqaschandi, Ahmad al - : Subh al - a□ scha. 14 Bde. Kairo 1915 - 20.
- Quddusi, I.H: Tadhkira - I sufiya - yi Sind. Karachi 1959.
- Quschairi, □Abul Karim al - : Risala fi't - tasawwuf. Kairo 1912. Ü. von Richard Gramlich, Stuttgart 1989
- Ramkrishna, Lajwanti: Panjabi Sufi Poets. London - Calcutta 1938. Delhi 1974. Vgl. Dazu den Artikel von J.Fück: » Die sufische Dichtung in der Landessprache des Panjab«, Orientaliche Literaturzeitung 53 (1940)
- Reinties, Hortense: » Der Schöne Joseph«, in Subtelnz, Hrsg: Festschrift für A. Schimmel, Cambridge, Mass. 1994
- Ritter, Hellmut: Das Meer der Seele. Gott, Welt und Mensch in den Geschichten Fariduddin □Attars. Leiden 1955, 1978.
- Rumi, Dschalaluddin: Divan - i kabir ya kulliyat - i Schams. Hrsg. B. Furuzanfar 10 Bde.., Teheran 1957 - 75.
- Rumi, Dschalaluddin: Mathnawi - yi ma□nawi, Hrsg. R.A. Nicholson, in text, Ü.:A. Schimmel Das Mathnawi. Basel 1994.
- Rumi, Dschalaluddin: Fihi ma fihi. Hrsg. B.Furuzanfar. Teheran 1959, Deutsche Ü. von A. Schimmel: Von Allem und von Einen. München 1987.

- Sachal Sarmast: Risalo Sindhi, Hrsg. O.A. Ansari. Karachi 1958.
- Sachal Sramast: Siraiki kalam. Hrsg. Maulwi H.A. Sadiq Ranipuri. Karachi 1959.
- Sana'i, Abu l - Madschd Madschdud: Divan. Hrsg. M. Razawi, Teheran 1950.
- Sina`i, Au l - Madsch Madschdud: Hadikat al - haqiqa. Hrsg. M. Razawi, Teheran 1961.
- Sauda, Mirza Abul Qadir: Kulliyat. Hrsg. Khurshidul Islam. Aligarh 1965
- Schraiti, Ali: Fatima ist Fatima. Bonn 1981.
- Schimmel, Annemarie: Islam in the Indian Subcontinent. Leiden 1980.
- Schimmel, Annemarie: Mytsische Dimensionen des Islame, Köln 1987.
- Schimmel, Annemarie: As through a veil. Mystical Poetry in Islam. New York 1982.
- Schimmel, Annemarie: Unendliche Suche. Geschichteen des Schah Abdul Latif von Sind. München 1983.
- Schimmel, Annemarie: The Triumphal Sun. A study of the life and work of Mowlaba Jalaloddin Rumi. 2. Aufl. Albany NY 1993.
- Schimmel, Annemarie: Al - Halladsch, Märtzrer der Gottesliebe. Köln 1969.

- Schimmel, Annemarie: Classical urdu Literature, Sindhi Literature, beide in: J. Gonda, Hrsg.: History of Indian Literature, Wiesbaden 1974, 1975.
- Schimmel, Annemarie: Von Ali bis Zahra. Namen und Namengebung im Islam. München 1993
- Schimmel, Annemarie:» Hochzeitslieder der Frauen im Industal«. Zeitschrift für Volkskunde 61,2 (1965).
- Schimmel, Annemarie: »Eros - heavenly and not - so - heavenly«. In Afaf L.S. Marsot, Hrsg.: Society and the sexes in Medieval Islam: Malibu 1979.
- Schimmel, Annemarie:»Samiha Ayverdi, eine Istanbuler Schriftstellerin.« In W.Hoenerbach, Hrsg.: Festschrift für Otto Spies. Wiesbaden 1967.
- Schimmel, Annemarie: » Ein Frauenbildungsroman auf Sindhi: Mirza Qalich Begs Zinat« In: Der Islam 39 (1964).
- Schimmel, Annemarie:»A Nineteeth - century anthology of Urdu Poetesses«. In: Islamic Society and Culture. Essays in honour of Aziz Ahmad. Delhi 1983.
- Schimmel, Annemarie: »Women in mystical Islam.« In: Women's Studies International Forum 5/11(1982)
- Schimmel, Annemarie: Zeitgenössische arabische Lyrik (deutsche Übertragungen), Tübingen 1975.

- Schimmel, Annemarie: Aus dem Goldenen Becher. Türkische Lyrik vom 13. bis zum 20. Jahrhudert. 3. erweiterte Auflage, Köln 1992.

- Smith, Margaret: Rabi□a the mystic and her fellow saints in Islam Cambridge 1928, mehrere reprints.

- Sombahar, Herbert T.: Shah Abdul Latif of Bhit. Oxford 1940, repr. 1966.

- Sprenger. Aloys: A catalogue of the Arabic, Persian and Hindustany manuscripts in the libraries of the Kings of Oudh. Calcutta 1854,repr.1979.

- Stowasser, Barbara Freyer. Women in the Qur'an, Traditions and Interpretations. 206 pages. New York: Oxford University Press. 1994.

- Suhrawardi sheikh al - ishraq: Oeuvres en Persan, Hrsg. Henry Corbin, Paris 1970

- Suhrawardi sheikh al - ishraq: The mystical and Visionary Treatises of Suhrawardi. Ü. Wheeler M. Thackston. London 1982.

- Sulami: Tabaqat as - sufiya. Hrsg. N.Shariba. Kairo 1953.

- Ter Haar, Jon: »The Importance of the Spiritual Guide in the Naqshhbandi Order.« In: L.Lewisohn, Hrsg.: The Legacy of Mediaeval-Persian Sufism. London 1992.

- Thanawi, Ashraf □Ali: Bihishti Zewar, s. Metcalf.

- Tirmidhi, al - Hakim al - : Khatam al - auliya. Hrsg. Osman Yahya. Beirut 1965

- Troll, Christian W.: Muslim Shrines in India. Delhi 1989.

- Usborne, Charles F.: Hir Ranjha. Hrsg.: Mumtaz Hasan. Karachi 1966.

- Vaudeville, Charlotte: Barahmasa, les Chansons de douxe mois dans les literatures indo - ayrennes. Pondichéry 1965.

- Vaughan - Lee, Liewellyn: » The People of the Secret«, in: Sufi 22 (Summer 1994)

- Walther, Wiebke: Die Frau im Islam. Leipzig Stuttgart 1980, mehrere Neuauflagen.

- Yashrutiyya, Fatima al - : Rihala ila'l - haqq. Beirut s.d.,ca. 1995.

- Young, William C.,» The Ka[]ba, Gender, and the rites of pilgrimage.« International Journal of Middle East Studies 25, 1993.

- Zaidi, M.H.: Katalog der Urdu - Handschriften in deutschen Bibliotheken. Wiesbaden 1973, Nr. 64: fawa'id an nisa.

# المحتويات

الموضـــوع | الصفحة

الكتب خان للنشر والتوزيع®

١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة.

تليفون:+٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩ - +٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨

بريد إليكتروني:info@kotobkhan.com

موقع إليكتروني:www.kotobkhan.com



في هذا الكتاب، تكتشف "آنا ماري شمل"، العالمة المرموقة التي كرّست أكثر من خمسين سنة من حياتها لفهم العـ
الإسلامي، كنزا من الأفكار والصور التي تزيح الستار عن دور المرأة في الإسلام، الدور الذي أسيء فهمه طويـ
"شمل" تنتقد النسويات الغربيات، تحديدا اللائي يتناولن الإسلام من دون الاستغراق الكافي في ثقافاته، ولغا
وتقاليد مجتمعاته العديدة. محطمة الأنماط والأفكار المسبقة. تعيد "شمل" إنشاء بابٍ هامّ لكنه مجهول في الروحا
الإسلامية، وبأمثلة عديدة، ترينا المساواة الإسلامية بين الرجل والمرأة في السنة، والقرآن، واللغة النسائية في التقا
العرفانية الإسلامية، وأمهات الكتب الصوفية، والكتب الموجهة إلى الناشئات المسلمات، وأعمال الخطّاطات
والشاعرات، والفقيهات. الفرع العرفاني في الإسلام، الصوفية، يبدي احتراما كبيرا للنساء التقيات، الفقيهات
المتأدبات. رابعة العدوية أزاحت هذه الطريقة من التنسك والزهد إلى العشق المطلق لله.
هنا تكشف" شمل" عن الروح الأنثوية للوجود التي قال عنها مولانا "جلال الدين الرومي": إنها امرأة حبلى "تحـ
في بطنها اللغز الذي يزداد عمقا مع كل خطوة".

الناشر

آنا ماري شمل (١٩٢٢-٢٠٠٣)، مستشرقة ألمانية ذات تأثير كبير، وعالمة مرموقة دوليا بشؤون الإسـ
والصوفية، درست في هارفرد من ١٩٦٧ إلى ١٩٩٢ وحصلت على أعلى وسام استحقاق من دولة باكستان.
أعمالها "ومحمد رسوله: تقدير النبي في التقوى الإسلامية"، "فك شفرة علامات الله: مقاربة ظاهراتية للإسلام".

لميس فايد، باحثة ومترجمة مصرية، تخرجت من كلية الآثار بجامعة القاهرة، وحصلت على ماجستير الدراسـ
القبطية بجامعة مونستر في ألمانيا، "روحي أنثى" هو أول ترجماتها عن الألمانية إلى العربية.




ISBN 978-977-6306-75-2
9 789776 306752 >